

إسطنبول: ١٤٣٢هـ- ٢٠١١م

إسطنبول: ١٤٣٢/ ٢٠١١

اسم الكتاب باللغة التركية: Öyle Bir Rahmet ki

الترجمة للعربية: الرَّحمة المهداة

مراجعةو تصحيح وتدقيق: الدكتور.آدم أقيـــن

تصميم وتنضيد: حسام يوسف

ISBN: ٩٧٨٩٩٤٤٨٣٣٢١٩

طباعة وتغليف: مطبعة دار الأرقم

العنوان:



Adres: Organize Sanayi Bölgesi Turgut Özal Cad.
No: 117 Kat:2/C Başakşehir / İstanbul
Tel: (0090 212) 671 07 00 Pbx Faks:(0090 212) 671 07 48
www.worldpublishings.com/sa

سلسلة كتب: من حديقة الفؤاد

الرحمة المهداة

تأليف

عثمان نوري طوباش

مجموعة من المترجمين

مراجعة وتصحيح وتدقيق

الدكتور. آدم آقيـــن

مُقَدِّمَة

الحمد والثناء لمولانا الأعظم الذي يغمرنا بلطفه وإحسانه ورحمته ويغفر لنا ذنوبنا ويعفو عن خطايانا، وهو أرحم الراحمين.

والصلاة والسلام على سيدنا محمد المصطفى ﷺ الذي أُرسِلَ رحمةً للعالمين، وهو مخلِّص البشرية وشفاؤها ومبشرها وشفيعها.

كل ما هو موجود في الكون إنما وجد بمحبة جناب الحق ورحمته، وزُيِّن بمحبته ورحمته، وقيمته من قيمتهما؛ أي أن ربنا ﷻ يعامل البشر دائماً بالرحمة. حتى الكفار يتنفسون ويُرزقون برحمته. إن بقاء العالم برغم كل المظالم والمفاسد والمعاصي التي فيه، مرتبط بسعة هذه الرحمة. ذلك لأن الرحمة الإلهية تتقدم دائماً على الغضب الإلهي. لأن الله تعالى يحب الرحمة والرأفة. إلى درجة أنه وصف آخر رسله وأشرفهم محمداً المصطفى ﷺ، بكلمة الرحمة. قال تعالى مخاطباً رسوله الكريم:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء، ١٠٧)

كل ما هو موجود في الكون يستفيد من هذه الرحمة. للإنسان بالأخص نصيب أوفر منها. كل ما ننعم به وكل المكرمات الإلهية التي وهبت لنا بشمس الرحمة وكل الجمال وكل المقاييس وغيرها، إنما هي تجليات تلك الرحمة.. تلك الرحمة، **ويا لها من رحمة،**



تتجلى في جمال ألوان أجنحة فراشة، ولطف وردة تفتحت، وظرف أزهار الربيع، والمزايا الأخلاقية التي تسمو بالإنسان إلى أحسن تقويم، والفضائل الإلهية التي نشأ عليها الكثير من العباد. هي جميعاً آياتٌ وتجلياتٌ من رحمته، تجليات من رحمته.. لا تبلغ البشرية السعادة والخلاص إلا بفضل معايير الأخلاق العظيمة لتلك الشخصية القدوة الفريدة.

لذلك، كل الكائنات مدينة له بالشكر. ويكون وفاء هذا الدين بالصلاة له وفيض محبته، ومحبة من يحبهم أيضاً. من هنا ينبغي على محبة أهل البيت أن تملأ قلوبنا. وعلينا أن نعدّ محبة الخلفاء الراشدين ونحذوا حذوهم في الحياة، وفقاً للدستور الذي انتقل منهم إلينا، نعمةً. وهم قطب الصدق أبو بكر الصديق وآية العدل عمر بن الخطاب ومثال الحياء عثمان بن عفان وباب العلم علي بن أبي طالب ﷺ وكرَّمَ وجهَه.

فدستور الحياة هذا قد أنقذ البشر من الوحشة والظلم والمصيبة الأبدية ومنحهم عصوراً ملؤها السعادة. إن عيش المجتمع والحكام في غربة عن هذا الدستور العظيم، يؤدي إلى ضمور الأخلاق والعدل والصواب والعلم. في حين أن جميع المجتمعات والحكام ليس لها ولهم أن يديموا وجودهم إلا على أسس المساواة والعلم والأخلاق والحق والعدل. ولا يسعنا أن نطيق ثقل المسؤولية التي تحملها لنا هذه الحقيقة إلا بشعور الأمانة. لكي نكتسب هذا الشعور بصورة



صحيحة يتوجب علينا أن نفكر بعمق. بيد أن هذا التفكير يجب أن يتحقق، لا في دوّامة الأحقاد، بل على الأرضية الخصبة للروحانيات.

من الضروري، في هذه النقطة، أن نعجن العقل والقلب بالتربية المعنوية على ضوء الوحي، وبلوغ سلامة القلب عن طريق تنشئة تصوُّفية. إن في صحبة الصالحين والإرشادات السَنِيَّة لمعلمينا في شؤون الروح وإشعاعات الحكمة في عالم الروح لمولانا جلال الدين الرومي التي تعبّر عن لسان حال أهل الله، مكانةً خاصة في إنضاج قلوبنا.

إن عمراً مضى على هذه الصورة في الإشراق، هو عمرٌ ملؤه الرحمة والبركة. رحمةٌ هو سيدنا محمد ﷺ رحمةً للعالمين. رسول الرحمة الذي أهدى إلينا دساتير من شأنها أن تجعلنا نحيا كل لحظة من حياتنا في بركة رمضان المبارك: تربية حياة روحانية.

ربما أكثر ما علينا الإنتباه إليه في عصرنا، من تلك الدساتير، إنما هو موضوع الإسراف. ذلك أن كلاً من الإسراف في الإيمان والإعتقاد والعبادة والإسراف في الوقت والإسراف في العلم والإسراف في القيم الأخلاقية والإسراف في التفكير والإسراف في تأمين المعيشة والإنفاق والإسراف في الصحة والطعام والشراب قد بلغت حدها اليوم. بل إن أول ضروب الإسراف وأهمها الإسراف في الإنسان هو مرض من أمراض زماننا وعِلَلِه الكبرى.

لهذا السبب على المؤمنين أن يراقبوا خلو قلوبهم من هذا المرض، وأن يبذلوا الجهد بحماسة لتنشئة أنفسهم وأولادهم، أمانة



الله في أعناقهم، كأجيال مؤمنة في البيئة الروحانية للقرآن الكريم والسنة الشريفة. وعليهم ألا يخرقوا حدود الحلال والحرام، تحت أيّةِ ذريعة أبداً أبداً.

الخلاصة، ثمة ضرورة اليوم لمحاسبة وجدانية قوية جداً تدور حول الحياة المباركة لرسول الرحمة وحول مبادئه التي من شأنها أن تدخلنا الجنة. انتفاضة قوية تعيد لنا رشدنا!.. لأن رأس المال يطبع الأفراد بطابعه، في حين أنه ينبغي على الأفراد أن يطبعوا رأس المال بطابعهم. على الإنفاق والرحمة والشفقة والغيرة أن تكون علاماتنا الفارقة. على كل نفس من أنفاسنا، وكل مواقفنا، وكل كلامنا أن يكون من الرحمة، تماماً كما كانت حال سيدنا ﷺ.

تم تأليف هذا الكتاب المتواضع ليكون وسيلةً لتحقيق هذه النية الخالصة والموضوعات التي ألمحنا إليها أعلاه، حاولنا تناولها في مقالات منفصلة تم نشرها تباعاً في مجلة «أَلْتُون أولوق»، وأعيد النظر فيها حين تقرر جمعها في كتاب وتقديمها لقرائنا الأعزاء.

لِيتقبّلْ رَبُّنا نياتنا الحسنة وجهودنا في سبيله وأعمالنا الصالِحة وعباداتنا جميعاً. يا ربِّ.. اجعل لنا نصيباً من وصف سيدنا ﷺ أنه ﴿رؤوف رحيم﴾ (التوبة، ١٢٨) **اجعلنا نعيش في الرحمة وأغرقنا في رحمتك..آمـــــين...**

عثمان نوري طوبّاش

١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م

أسكدار – اسطنبول

الرحمة المهداة



ولِكَي نتمكَّن من حماية إيماننا بدرع معنوي قويٍّ ومتين، يجب علينا أن نكون أوفياء للرسول ﷺ وفاءً كاملاً وذلك من موجبات إيماننا بالله و رسوله. والوفاء للرسول الكريم ﷺ يوجب علينا أن نتخلّق بأخلاقه. والوفاء للّه ﷻ هو الوفاء لفخر الكائنات وخاتم المرسلين سيدنا محمد ﷺ. فقد كانت رحمته على أمته ورأفتُه بها تفوق حنان الأم لِطفلها.

الرحمة المهداة

لقد أرسل الله تعالى الرسولَ ﷺ رحمةً للعالمين.

هو رحمةٌ. كل كائن خُلقَ من أجل احترامه، واكتسب قيمةً عند الخالق بقدر محبته له.

هو رحمةٌ. أغدق رحمته وحنانه على البشر أجمعين بل على الكائنات جميعها.

هو رحمةٌ. وُهبَ من قبل رب العالمين، لجميع العقول والقلوب، ينبوعاً للعلم والعرفان والحكمة، كمثل ماء الحياة الأبدية، ومصدراً للخير والبركة بلا حدود.

هو رحمةٌ. جلب معه دليل الهداية الأبدية، القرآن الكريم.

هو رحمةٌ. هو حبيب الله الرحمن الرحيم الذي وهبه المعراج.

هو رحمةٌ. لولاه لتحولت الأرض صحارى موحشة.

هو رحمةٌ. بنوره كان بدء الخليقة. كل الأنبياء الذين ظهروا على وجه الأرض، حملوا فيض نوره وبركاته.

هو رحمةٌ. ليس كل جمال غير تجل من تجلياته وانعكاس من صورته. لا تتفتح زهرة في العالم إلا من نوره. لولاه لما وجد شيء.

هو زهرة إلهية من نور خالص، لا تذبل، بل تزداد نضارةً مع كل يوم.

هو رحمةٌ. يحكي الله ﷻ عن قدره وقيمته ويصلي عليه.



إعلان الله تعالى عن قدر رسوله وقيمته بالصلاة عليه، يفوق كل مدح وثناء. فَرَبُّ العالمين يضرب مثلاً بذاته في الصلاة والسلام على رسوله. ويأمر جميع ملائكته بالصلاة على أجمل النبيين وفخر الكائنات. ثم يأمر، بالصورة نفسها، جميع المؤمنين بالصلاة والسلام عليه. ذلك أن رب العالمين قد شرّفنا بلا مقابل بأن جعلنا أمّة هذا الرسول الذي اختاره من بين ١٢٤ ألفاً ونيف من الأنبياء والرسل.

بقدر ما يعبر هذا الكرم الإلهي عن امتياز خصَّنا به، فهو يحمّلنا أيضاً دين شكر ووفاء بحجم الشرف الذي أغدقه علينا. أي أن مرتبة أمة سيد الأنبياء والمرسلين هي أجلّ المراتب وأعظمها، كما هي أكثر المسؤوليات ثقلاً. إلى درجة أن الله تعالى عدَّ طاعته من طاعته وعصيان أوامره من عصيان أوامره.

من هنا فإن واجب الإمتنان والوفاء يقضي أن يبدأ عند كل مؤمن بحبه أكثر من أي شيء آخر، بل أكثر من نفسه وروحه. وفي هذا الإطار تشكل صلاتنا وسلامنا عليه من أعماق قلوبنا كلما ذُكر اسمه، ونهلنا من فيض شخصيته واقتدائنا بها، وحياتنا كعاشقين له، ملامح من شخصيتنا كمؤمنين، ودستوراً لحياتنا، وينبوعاً من ينابيع الفيض والروحانية. فنحن محتاجون في الحياة الدنيا لرحمته التي تغمر العالمين، وفي الحياة الآخرة لشفاعته العظيمة.

واجبنا إذن أن نحيا بمعيته في أفعالنا وأقوالنا وكل ما يصدر عنا. فالشخص يكون مع من يحب ويتخذ منه قدوة. إن واحداً من



أسرار المحبة التي بسببها كانت العوالم، هو حلول المحب في حال المحبوب. بقدر ما يربطنا العشق والمحبة بالسنّة السَنِيَّة، بقدر ما يعني ذلك أننا نحبه ونحس به في أعماق روحنا بالقدر نفسه. بقدر ما نعرفه ونذكره، بقدر ما يكون وجهتنا ومقصدنا. من هنا يجب أن يكون هدفنا معرفة مزايا شخصيته وعظمتها وفضائلها، وأن نكون تابعين له ونتمثل أخلاقه ونعرفه بالقلب أكثر مما نعرفه بالكلمات.

إنه رسول الله، لم يعلِّمهُ أحد، أنشأه ربه وما أجمل ما أنشأ، فجعل أعظم الأخلاق تتجلى فيه، وأرسله للبشر أجمعين مترجماً لعالم الغيب ومعلِّماً في مدرسة الحق. آيات جماله من الكثرة ما تعجز عن ضمه المجلدات. لا يسعنا هنا أن نذكر من فضائل شخصيته الفريدة إلا بعض النماذج:

رسول الله ﷺ في حرصه لأمته:

رحمته ورأفته بأمته فاقت حنان الأم نحو طفلها. حيث تقول الآية الكريمة:

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (التوبة، ١٢٨)

إليكم واحداً من أدعيته التي لا تعد ولا تحصى، المملوءة بالرحمة والشفقة، من أجل أمته: في يوم ظهرت رحمة سيدنا محمد ﷺ على أمته في قوله باكياً متضرعاً: **" اللهم أمتي أمتي"**.

أمر الله تعالى جبريل أن يذهب إلى محمد ﷺ فيسأله عما يبكيه، «وربك أعلم».

جاء جبريل عليه السلام، فقال له رسول الله ﷺ إنه يبكي لخوفه على أمته. (وبعدما عاد جبريل إلى رب العالمين ونقل إليه جواب رسوله الكريم) قال الله تعالى:

"يا جبريل! اذهب إلى محمد فقُل: إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوؤك" (مسلم، الإيمان، ٣٤٦)



عَنْ عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قَالَ: قَالَ لِي النَّبِيُّ ﷺ: **"اقْرَأْ عَلَيَّ"**

قُلْتُ: آقْرَأُ عَلَيْكَ وَعَلَيْكَ أُنْزِلَ؟

قَالَ: **"إني أحب أن أسمعه من غيري"**

فَقَرَأْتُ عَلَيْهِ سُورَةَ النِّسَاءِ، حَتَّى بَلَغْتُ:

﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ (النساء، ٤١)

قَالَ: **"أَمْسِكْ"** فَإِذَا عَيْنَاهُ تَذْرِفَانِ (البخاري، تفسير، ٤٥٨٣)

تؤكد لنا هذه الحادثة أيضاً مدى رحمة رسول الله وشفقته على أمته. ففي يوم القيامة سيأمر الله قائلاً:

﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ (الإسراء، ١٤)

وسوف تُعرَض ذنوب الأمة على الملأ. وقد ذكّره الحديث أعلاه بهذا المشهد الأخروي، فلم يحتمل قلبه الرقيق المملوء بالشفقة على أمته، فأدمعت عيناه، صلوات الله عليه وسلامه، دموعاً كحبات اللؤلؤ.



وقال الرسول الأكرم ﷺ أيضاً:

"**أنزل الله عليَّ أمانين لأمتي**، قال تعالى:

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ (الأنفال، ٣٣)

فإذا مضيت تركت فيهم الإستغفار" (الترمذي، تفسير ٨\٣٠٨٢).

علينا ألا ننسى أنه إذا حمل مؤمن في قلبه محبة سيدنا محمد، ﷺ، بصورة دائمة، فمن المأمول أن يعفيه الله تعالى من نار جهنم، فلا يرمي القلب المملوء بمحبة رسوله في النار.

الروايات التي قمنا بنقلها أعلاه، ليست غير بضعة من أمثلة لا تعد ولا تحصى مما يعبر عن رحمة وشفقة وحنان رسول الله ﷺ نحو أمته. من هذا المنظور، مقابل الشفقة الواسعة لسيدنا الرسول على أمته، علينا أن نقايس في عالمنا الداخلي دائماً، مقدار محبتنا له وقدرتنا على السير على سنته المباركة.



رسول الله ﷺ والتواضع

لم تكن نبوته أبداً من شهوة السلطة. لقد فضّل أن يكون «**عبداً رسولاً**» على أن يكون «**ملكاً نبياً**»[1].

كان يهتم شخصياً بضعفاء الأمة وعجزتها، ويسعى لتأمين احتياجاتهم بيديه المباركتين، ويخصص ركناً في مسجده لصحابته الفقراء ممن جاؤوا يلتمسون تعلم دين الله، فيسعى بنفسه لتأمين قوتهم.

كان في التواضع قدوةً ومثالاً. لم يكن همه شخصياً، بل كانت هواجسه منصبة على اهتداء الناس إلى سبيل السعادة في الدنيا والآخرة، إلى درجة كان هذا الهم ينهكه.

قالت عائشة:

بعث إلينا آل أبي بكر بقائمة شاة ليلاً فأمسك رسول الله ﷺ وقطعت أو أمسكت وقطع

فقال:

"الذي تحدثه أعلى غير مصباح"

فقالت:

(لو كان عندنا مصباح لاتدمنا به إن كان ليأتي على آل محمد ﷺ الشهر ما يختبزون خبزا ولا يطبخون قدرا) (أحمد، ٦، ٢١٧/ ٢٥٨٦٧).

١ راجع: الهيثمي: مجمع الزوائد، ٩، ١٩٢

رسول الله ﷺ والكرم

جاء أحدهم إلى سيدنا محمد ﷺ ذات يوم وسأله حاجة، فقال له رسول الله ﷺ:

"ما عندي شيء أعطيك ولكن استقرِضْ حتى يأتينا شيء فنعطيك".

فقال عمر رضي الله عنه: ما كلفك الله هذا، أعطيت ما عندك، فإذا لم يكن عندك فلا تكلف، قال: فَكَرِهَ رسول الله ﷺ قول عمر رضي الله عنه حتى عرف في وجهه، فقال الرجل: يا رسول الله بأبي وأمي أنت، فأعط ولا تخش من ذي العرش إقلالاً، قال: فتبسم النبي ﷺ وقال:

"بهذا أمرت" (الهيثمي، ١٠/ ٢٤٢).

إذا جاء صاحب حاجة إلى رسول الله، ﷺ، كان يطلب أن يُعطيَ شيئاً من بيته، فإذا أخبروه أن لا شيء في البيت غير الماء، طلب من صحابته إعطاء صاحب الحاجة حاجته، وما كان يرتاح قبل تلبية حاجة المحتاج.

يحكي أنس، رضي الله عنه، هذا المثال: «أتي النبي ﷺ بمال من البحرين، فقال عليه السلام:

"انثروه في المسجد".

وكان أكثر مال أتي به رسول الله ﷺ، فخرج رسول الله ﷺ إلى الصلاة ولم يلتفت إليه، فلما قضى الصلاة جاء فجلس إليه، فما

كان يرى أحداً إلا أعطاه... فما قام رسول الله ﷺ وثم منها درهم»
(البخاري، الصلاة، ٤٢)

فقد كان إبهاج المؤمنين باستجابة حاجاتهم، يمنحُ رسولَ الله ﷺ راحةً عصية على الوصف.

قال سيدنا فخر الكائنات، في أحد أحاديثه الشريفة:

"أخبرني جبريل عن الله تعالى أنه أمر فقال:

«إن هذا دين ارتضيته لنفسي ولن يصلح له إلا السخاء وحسن الخلق، فأكرموه بهما ما صحبتموه»" (الهيثمي، ٨، ٢٠؛ علي المتقي، الكنز ٦، ٣٩٢)

من هذا المنظور، يشكل تمثلنا لأخلاق النبي بهدف إجلال ديننا وحماية إيماننا، وفاءً بديننا وتعبيراً عن امتناننا نحوه. فالوفاء الأعظم والأوجب، من بعد الوفاء لله تعالى، هو الوفاء لفخر الكائنات الأبدي رسول الله ﷺ. هذا الوفاء هو التعبير الأجمل لمشاعر الإمتنان الواجبة نحو نبينا الوفي لأمته الذي كان يطلب لأمته أولاً قائلاً: **"أمتي أمتي"**، وإضافة إلى ذبائحه، كان يذبح باسم غير القادرين من أمته[1].

هذا الوفاء الذي يبدأ بالتعمق في عشقنا لسيدنا الرسول ومحبتنا له، يبلغ قوامه الحق بنجاحنا في تحويل سنّته السَّنِيَّة إلى ينبوع الفيض والروحانيات في حياتنا.

١ انظر: أبو داوود، الأضاحي، ٣-٢٧٩٢\٤؛ ابن سعد ١، ٢٤٩.



عبّر سيدنا عليه الصلاة والسلام، عن محبته العميقة للصالحين من أمته الذين تمثلوا هذه المشاعر فباتوا من عشاق النبي، فقال:

"من أشد أمتي لي حباً، ناس يكونون بعدي، يود أحدهم لو رآني، بأهله وماله" (مسلم، الجنة، ١٢)



إن سبب حرمان الإنسان من هذه الحقائق وخسرانه لحياته الفانية، يعود إلى التناقضات العويصة التي يعيشها في عالميه الظاهر والباطن. الواقع أن هذه التناقضات تنبع، عند الإنسان، من تجاور التقوى -أي أرفع الفضائل التي تقرّبه من الله ﷻ- والفجور الحيواني الذي يبتعد به عن الغاية من خلقه. تقول الآية الكريمة:

﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا، قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ (الشمس، ٨-٩)

لذلك فإن العوالم الداخلية للناس الذين لم ينشأوا في ضوء القرآن والسنة، ولم تبلغ قلوبهم الطمأنينة، تشبه غابةً تعيش فيها الحيوانات من أكثرها ألفة إلى أكثرها توحشاً. كأن في قلب كل واحد منهم شخصية حيوان تتغير وفقاً لكل شخص. منهم الخبيث المحتال كالثعلب، ومنهم الشرس كالضبع، ومنهم الحريص كالنمل، ومنهم السام كالثعبان.ومنهم من يعض وهو يتظاهر بالملاطفة، ومنهم من يمص الدم كالعلقة، ومنهم من يضحك في وجهك ويحفر لك من وراء ظهرك. كل صفة من هذه الصفات موجودةٌ في الحياة.



الإنسان الذي لم يتمكن من تحرير نفسه، بالتربية المعنوية، من أَسْرِ أهوائه، وبالتالي لم يتمكن من بناء شخصية سليمة، سوف يبقى حبيس تلك الطباع السفيهة.

تتحكم في بعضهم شخصية حيوان واحد، وفي بعض آخر شخصيات عدد من الحيوانات. أضف أن داخِلهم ومضمونَهُم تنعكس على وجوههم وتصرفاتهم، فلا تصعب على أهل النظر معرفتهم.

أليس النظام الشيوعي الذي تم بناؤه على دماء عشرين مليون شخص، انعكاساً لبنية قلبية متوحشة؟ أليست الأهرامات التي دفن فيها الكثير من الناس أحياءً لدفن جثة الفرعون، في حقيقتها صرحاً للظلم؟.

ما زال الكثير من المغفلين ينظرون إليها بوصفها أعمالاً فنية رائعة تبهرهم. أما حين نقيّمها بنظر الحق والحقيقة، فهي تظهر لوحةً للوحشية من شأنها أن تثير هلع ودهشة أكثر الطباع دموية.

كل هذا يشير إلى أنه إذا تحكم بمجتمع من المجتمعات أشخاص من طينة الضفادع، تحول المكان إلى مستنقع. وإذا حكم أناس لهم أرواح الثعابين والأفاعي، تسمم الشعب بأسره وبدأ الإرهاب والتخريب. أما إذا حكم أناس لهم طباع الورد وقلوب ملؤها الرحمة، تحولت البلاد إلى أرض للورد وبلغ المجتمع الطمأنينة والسعادة الحقيقيتين.



من الممكن الإشارة إلى أمثلة عديدة من التاريخ على كل من الحالات المذكورة. والمثال الأول على تحويل الزمان والمكان إلى أرض الورد هو سلطان الأنبياء محمد ﷺ. ففي فترة زمنية قصيرة لا تتجاوز ٢٣ عاماً استغرقتها رسالته، استطاع، بطبعه وشخصيته الأجمل من الورد، أن يحوّل البشر والعصر الذي عاش فيه، إلى أرض ورد وسعادة لا يَذْبُلان ولا يذوبان.

لقد أضاءت شمس الهداية حتى أكثر الأماكن ظلمةً، فاتضح الحق والخير بكل جمالهما، والشر والباطل بكل قبحهما. وظهر المفهوم الأكثر جمالاً وصواباً عن الله والكائنات والنفس البشرية. أدرك الناس أن هذا العالم هو مدرسة للامتحان. مجتمع الجاهلية الأمي أصبح من «**الذين يعلمون**»[1]. الأفكار تغيّرت، وانفتحت القلوب على آفاق الحكمة التي لا يحدها حد، فشمل التفكير العميق كيف يخلق الإنسان من نقطة ماء، والطير من بيضة صغيرة، والأشجار والثمار من بذرة في منتهى الصغر، وصولاً إلى خلق السماوات والأرض.

ونتيجةً للتربية النبوية، بلغت الدقة والحساسية ذروتهما في الرحمة والشفقة وروح التضحية والعدل. واحتل بؤرة الصداقة الله ورسوله. ارتبطت الحياة برضى الله ﷻ. امتلأت جميع القلوب بالسؤال الحماسي: «ماذا يريد منا الله، وكيف يريد رسول الله ﷺ

١ انظر: سورة الزمر، ٩

أن يرانا؟». استحالت الليالي نهاراً، والشتاءات ربيعاً. بهذا المعنى أصبح ذلك العصر، في تاريخ البشر عصر السعادة. بالفعل كان رسول الله، ﷺ، رحمةً، غرقت في نوره الكثير من الزوايا المعتمة.

ويقوم في أساس حملات التشويه الشنيعة التي تُنظّمُ من حين لآخر ضد سيدنا الرسول ﷺ، النظرة الحولاء والحاقدة التي ينظر بها إليه من لا يعرفونه حق المعرفة.

يستطيع كل كائن أن يديم حياته في بيئة تلائم طباعه. وليس الإنسان بمنجى من هذه القاعدة. فبقدر ما لا يمكن لنحلة تتغذى وتتنفس على الأزهار وغبارها أن تواصل حياتها بعيداً عن هذه البيئة، كذلك لا يمكن للفأر الذي يتغذى على القاذورات أن يعيش في بستان الورد. وكما تتغذى الأرواح السامية على فيض الحقيقة المحمدية، تلقى الأرواح الفاسقة الخبيثة إشباعها في الخبث.

كان أبو بكر، رضي الله عنه، ينظر إلى وجه رسول الله، ﷺ، فيقول منبهراً: «ما أجمله!». حقيقة الأمر أن أبا بكر كان يرى في المرآة عالمه الداخلي. وإذ قال له رسول الله، ﷺ:

"ما نفعني مال قط، ما نفعني مال أبي بكر"

فانهمرت دموع أبي بكر وقال:

«يا رسول الله! هل أنا ومالي إلا لك يا رسول الله؟» (ابن ماجة، المقدمة ١١)



بهذه الكلمات كان أبو بكر، ﷺ، قد عبر عن تكريسه لنفسه وماله في سبيل رسول الله، ﷺ، وعن فنائه فيه. فقد تحوّلت مشاعره وروحُه إلى مرآة لرسول الله ﷺ.

في الطرف المقابل، كان أبو جهل - العدو الأول لله ورسوله - يحصل على انطباع نقيض من ذلك الوجه المبارك، فيبقى في منأى عن جماله وعظمته، ويصارع في دوامة شروره وشتائمه. يعود سبب هذا الفارق بين الإنطباعين إلى أن كلاً منهما يرى في مرآة وجه محمد، ﷺ، صورة حقيقته الخاصة ونفسه الخاصة. ما من مرآة تراعي خاطراً فتعكس القبيح جميلاً أو الجميل قبيحاً!

أمام قدرة وعظمة الله ﷻ الذي أخذ الدين تحت حمايته، لا بد أن يلقى أولئك الذين يحاولون الإساءة إلى المسلمين والقرآن الكريم ورسول الله، صلوات الله وسلامه عليه، عقابهم الإلهي، إن عاجلاً أم آجلاً.

فمن المعروف كم تسيء تلك الأفواه المسمومة والأقلام فاقدة الإحساس، المنطوية على عوالمها الداخلية المظلمة كالأفاعي، وتطل برأسها من حين لآخر، إلى المؤمنين الطاهرين المملوءة قلوبهم بمحبة رسول الله ﷺ.

ينبغي أن نعرف خير معرفة أن إعدام الإحساس بالحق والحقيقة، هبة الله للبشر، هو أمر محال. مهما جرت من مساع

لنشر الكفر عن طريق الظلم، لن يحول هذا دون تبرعم الجذور السماوية للدين المزروعة عميقاً في روح الإنسان ووجدانه. لا يمكن الوقوف في وجه حاجة العبد للتقرب من ربه. لا يمكن حظر هذه الحماسة السامية في الخليقة. فالقدرة الإلهية عدّت الحاجة إلى الدين والتقرب من الخالق، سنّةَ الله، أي القانون الأبدي للحق تعالى.

نَوَّرَ الحقُّ عيوننا وقلوبنا بالنور المحمدي وجعل من نصيبنا أجمعين أن نكون قادرين على الوفاء بامتناننا بشرف كوننا أمة النبي الأكرم وأفاض على عصرنا وأمتنا من الندى المملوء بعطر وردة الأنبياء الفريد ووهب قلوبنا البهجة من بيئة عصر السعادة وجعل منا جميعاً عباداً صالحين لذاته الإلهية، وأمةً تليق بحبيبه الأكرم.

آمـــــــــــين

معايير الأخلاق السامية-١

في

الشخصية القدوة



علينا أن نتخذ من الشخصية القدوة لرسول اللهﷺ، هدى لنا في كل صفحة من صفحات حياتنا. الصلوات الشريفة التي تفيض من قلوبنا، يجب أن تَعْكِسَ على أرواحنا شيئاً من النسيج الروحاني لشخصية سيدنا سيد المرسلين. إن من يحوز في نفسه نصيباً من قناعته وتوكله وخضوعه لمشيئة الله تعالى أو ما يماثلها من الأخلاقيات السامية، فهو مؤمن نال السعادة الحقيقية.

معايير الأخلاق السامية من الشخصية القدوة - ١

لكي يتمكن المؤمن من تنمية صفاته الروحانية ويبلغ الكمال، فلا بد له من أن يأخذ نصيبه من سيرة فخر الكائنات ﷺ، ومن أخلاقه السامية. تتحقق هذه الحال بقدر ما تكون المحبة لسيدنا الرسول ﷺ وتمثل روحانياته.

فالبشرية بأسرها قد سمعت الترنُّمات الإلهية التي تمنح القلب شفاءً ورحابة، من اللسان المبارك لرسول الله، ﷺ. لقد تشرّفت البشرية ببحر المغفرة والكرم الشاسع للرحمن تعالى، بفضل محبته لنور الوجود. وبرغم كل ذنوبها، نالت البشرية عطف ربنا وشفقته المتجليين في ندائه: «**يا عبادي!**»، أيضاً كرمي لوجه سيد العالمين.

أمام كل هذا الإحسان والإكرام والمحبة، فإن واجبنا، كأمة محمد، هو اتباع أوامر رسول الله ﷺ، ونواهيه ووصاياه بجماع قلوبنا، وأن نحيا حياتنا في ضوء روحانيات سنّته السَّنِيَّة.

لقد تلطف ربنا فوهب سيدنا محمداً ﷺ، المقام المحمود الذي هو أعظم المقامات وأرفعها، وأوصى بما يتفق ورفعة المقام اللائق به. ولأنه كثير الرأفة والرحمة أيضاً نحو أمته، فقد أراد لأمته أن تلتزم بتلك الوصايا. فيما يأتي بعضٌ فقط؛ من تلك الوصايا:



قال سيدنا عليه الصلاة والسلام:

"أمرني ربي بتسعٍ: خشية الله في السر والعلانية..."[1] وأوصيكم بالمثل.

اِتّبع رَسول الله ﷺ، أمر ربه هذا بحرص ككل أوامره، وقال:

"أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له" (البخاري، النكاح، ١)

وكان عليه السلام، كلما نهض ليغادر مجلساً دعا إلى ربه قائلاً:

"اللهم اقسم لنا من خشيتك ما يحول بيننا وبين معاصيك" (الترمذي، دعوات، ٧٩، ٣٥٠٢)

كان سيدنا رسول الله ﷺ، قد نال شرف معرفة الله تعالى معرفةً أكثر قرباً من جميع البشر. قال، ذات يوم، لصحابته:

"لو علمتم ما أعلم، لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً" فغطى اصحاب رسول الله ﷺ وجوههم لهم خَنين (البخاري، تفسير، ١٢\٥)

لقد وعد الله عزّ وجلّ عباده الذين يخافون منه، في السر والعلن وفي كل الأحوال، بالجنة. قال اللّه تعالى في آياته الكريمة:

﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى. فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ (النازعات، ٤٠-٤١)

﴿هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ. مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ﴾ (ق، ٣٢-٣٣)

[1] انظر: الجزري، جامع الأصول، ١١، ص ٦٨٧، ٩٣١٧.



﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ (السجدة، ١٦)

لهذا السبب تكون الليالي التي يقومها الأنبياء وصحابته في الحق، وفي قلوبهم مخافة الله والأمل في رحمته الواسعة، أكثر ضياءً من نهارهم. فلياليهم مملوءة بروحانيات وطمأنينة سجودهم المغسول بفيض دموعهم.

قال رسول الله ﷺ: **"أمرني ربي بتسعٍ...وكلمة العدل في الغضب والرضى ..."**[1] وأوصيكم بالمثل.

إن حالة الغضب هي تلك اللحظات حين يصعب على المرء المحافظة على اعتداله ووجهته، ويفقد السيطرة على التوازن بحيث يحيد بسهولة عن العدل. في مثل هذه المواقف، ينبغي التصرف بهدوء والتحلي بالصبر، مع التذكر الدائم لله واليوم الآخر، والإبتعاد عن الظلم. يقول اللّه تعالى:

﴿..فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا..﴾ (النساء، ١٣٥)

﴿..فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (الحجرات، ٩)

قال رسول الله ﷺ في حديث تطرق فيه إلى موضوعات عدة:

"ثلاث منجيات من النار: العدل في الغضب والرضا، القصد في الفقر والغنى، خشية الله في السر والعلانية" (الهيثمي، ٩٠١١)

١ انظر: الجزري، جامع الأصول، ١١، ص ٦٨٧، ٩٣١٧.

قصد يوماً شخصٌ سيدنا فخر الكائنات يرجو منه إعفاء سارق من عقوبة قطع اليد، فقال ﷺ مشيراً إلى أحب بناته إليه:

"وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها"

(البخاري، الأنبياء، ٥٤؛ مسلم، الحدود، ٨-٩)

فالعدل ضروري من أجل سعادة الأفراد والمجتمعات على السواء. يشير عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى هذه الحقيقة بهذه العبارة الوجيزة: (العدل أساس الملك) والملك هو الدولة والسيادة والقوة.

في عهد عمر بن عبد العزيز - خامس الخلفاء أهميةً في تاريخ الإسلام - ولم يتجاوز سنتين ونصف السنة من الحقبة الأموية التي دامت اثنين وتسعين عاماً، عاش الأهالي في حال من الإستقرار والأمن، لأن حكمه قام على الحق والعدل، في بلاد وصلت حدودها إلى اسبانيا. فلا عمران مع الظلم ولا دولة بلا عدل.

ولدينا مثال من تاريخنا العثماني. فقد تخاصم معمارٌ نصراني والخليفة السلطان محمد الفاتح أمام القاضي خضر بيك، فما كان من هذا الأخير القاضي خَضِر بيك إلا أن حكم للمعمار النصراني على الخليفة، مع أن القاضي من أصدقاء الخليفة المقربين ويدين له بتعيينه في منصبه. هذا الحكم مثال على العدل الذي بفضله دامت الدولة العثمانية على مدى قرون عديدةٍ.



يقول رسول الله ﷺ:

"أمرني ربي بتسعٍ...والقصد في الفقر والغنى..."[١] وأوصيكم بالمثل

على الإنسان أن ينفق باقتصاد، سواء كان ثرياً أو فقيراً، على ما قسم له الله، وألا يقع في غواية الإسراف في أي موقف أو شرط. وقد أوصى الرسول ﷺ بمعرفة قيمة الثراء قبل الوقوع في براثن الفقر.[٢]

قال الله ﷻ في الإعتدال والإقتصاد:

﴿.. وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا. إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾ (الإسراء، ٢٦-٢٧)

﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا﴾ (الإسراء، ٢٩)

وقال رسول الله ﷺ: **"ما عال من اقتصد"** (ابن حنبل، ١\٤٤٧)

"ما خاب من استخار، ولا ندم من استشار، ولا عال من اقتصد". (الهيثمي، مجمع الزوائد، ٢\٢٨٠)

من هذا المنظور، على المؤمن أن يدرك أن الملك لله ﷻ، وأنه ليس سوى مؤتمن عليه، فيستخدم منه بحدود كفايته، وينفق ما تبقى في سبيل الله. قال الله تعالى في كتابه العزيز:

﴿.. وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ..﴾ (البقرة، ٢١٩)

---

١ انظر: الجزري، جامع الأصول، ١١، ص ٦٨٧، ٩٣١٧.
٢ أنظر: الحاكم المستدرك، ٤\٣٤١/ ٧٨٤٦

وقال رسول الله ﷺ موصياً بغنى القلب حتى في الشدائد:

"اتقوا النار ولو بشق تمرة، فمن لم يجد شق تمرة، فبكلمة طيبة"

(البخاري، الأدب، ٣٤)

تنال السعادة الحقة للغنى والثراء بالإنفاق في سبيل الله ﷻ. وحتى يتمكن المؤمن من الإنفاق وتقديم الخدمات في سبيل الله ورضاه، عليه أن يكسب بالحلال والطاهر وأن يستطيع العطاء من غير شعور بالضغينة. قال رسول الله ﷺ في ذلك:

"نعما بالمال الصالح للرجل الصالح" (ابن حنبل، ٤/ ٢٠٢)

فالشخص الصالح هو من أصحاب الرحمة والرأفة. وما الرحمة إلا أن يُعطي الشخص ما يملك لمن حرم منه. بعبارة أخرى، الرحمة هي مساعدة الآخرين من أجل تلافي حرمانهم. الرحمة والكرم هما بشرى راحة الضمير في الدنيا والسعادة الأبدية في الآخرة.

الأغنياء الشاكرون، أي الأثرياء الذين يشكرون ربهم وينفقون في سبيله، وكذا الفقراء الصابرون هم نماذج نادرة الوجود في المجتمعات. لذلك فالمؤمنون من المجموعتين كلتيهما هم من العباد الصالحين المرضي عنهم عند رب العالمين. الأثرياء الكرماء من أهل الشكر كالفقراء الصابرين من أهل الكرامة، سواءٌ في الشرف الإنساني والرضا الإلهي معاً. بيد أن الإسلام ذمَّ الأثرياء المتكبرين الخسيسين، والفقراء الذين لا يطيقون صبراً على ما قسم



لهم ويتمردون. لهذا فقد دعا رسول الله ﷺ فقال:

"اللهم إني أعوذ بك من شر فتنة الغنى، ومن شر فتنة الفقر"
(مسلم، الذكر، ٤٩)

الغني الحق إذن، هو من امتلك فضائل سامية كالقناعة والتوكل والتسليم. ولا يقوم سلطان الغنى الحقيقي إلا على سعادة الإنفاق.

حين بدأت حملة الإنفاق من أجل غزوة تبوك، امتلأ الصحابة حتى ممن لا يملكون شيئاً، بالحماسة للتضحية بالمال والروح. أحد هؤلاء، ويدعى أبا عقيل رضي الله عنه، عمل الليل بطوله فكسب صاعين من التمر. فأعطى صاعاً لأهل بيته، وتبرع بالثاني للغزوة.[1]

وقال رسول الله ﷺ ذات يوم:

"سبق درهم مئة ألف درهم" فاستفسره صحابته الكرام:

«يا رسول الله، وكيف؟» أجابهم قائلاً:

"رجل له درهمان، فأخذ أحدهما، فتصدق به (أي أنه تصدق بنصف ماله)، ورجل له مال كثير، فأخذ من عرض ماله مئة ألف، فتصدق به" (النسائي، الزكاة، ٤٩)

أي أن الأول أعطى نصف ما يملك، مع أنه بحاجة إليه، في حين أعطى الثاني قسماً ضئيلاً مما يملك، وإن كان أكثر بكثير مما أعطاه الأول. معنى هذا أن قيمة العطاء تتعلق بمستوى الشعور بالتضحية أكثر مما بمقداره المادي.

---

١ انظر: الطبري: تفسير، التوبة آية ٧٩،



وهنا مثال آخر عن هذه الحقيقة: قصد شخصٌ عثمان بن عفان ﵁، وقال له: «ذهبتم يا أصحاب الأموال بالخير، تتصدقون وتعتقون وتحجون وتنفقون...» فسأله عثمان ﵁: «وإنكم لتغبطوننا؟» فرد الرجل بالقول: « إنا لنغبطكم!» فأجاب عثمان ﵁ قائلاً:

«فوالله لدرهم ينفقه أحد من جَهْدٍ خيرٌ من عشرة آلافٍ غيضٍ من فيض» (علي المتقي، ١٧٠٩٨\٦١٢\٦)

ويعبر الشيخ سعدي عن الحقيقة نفسها فيقول:

«لم يغلق الله تعالى باب الخير في وجه أحد. عليك أن تعلم أن فعل الخير يتناسب وقدرات كل شخص. لا يستوي تصدق غني بقنطار من الذهب من خزينته وتصدق فقير بقيراط مما كسبه بجهده. ساق الجرادة حمل ثقيل بالنسبة لنملة».

أي أن حجم الخير يتناسب وسوية التضحية المتضمنة فيه. مثال من معركة اليرموك: الشهداء الثلاثة الذين كانوا على وشك الموت ظمأً، ولديهم كأس واحدة من الماء، راح كل منهم يقدمها لِصاحبِهِ. تشير هذه الحادثة إلى مستوى التضحية الذي يعز بلوغه.

نعم، كان المثل الأعلى للصحابة هو الإقتداء بأخلاق الرسول ﷺ، فبلغت الرحمة والزهد عندهم ذروتيهما. فقد كان ذلك المجتمع يحيا على ترويض النفس والزهد في ملذات الدنيا. أما الإستهلاك المغالي والنهم والرفاه والأبهة، فهي مما أنكره نسل الصحابة. كان أثرياؤهم من «الأغنياء الشاكرين» وفقراؤهم من «الفقراء الصابرين».



وكان رسول الله ﷺ أجمل قدوة في ذلك، فكانت حاله حين تأتي الغنائم حال الأغنياء الشاكرين، وحين تمضي الأيام فلا يطهى طعام في بيته ويربط حجراً على بطنه لمواجهة الجوع، حال الفقراء الصابرين.

قال رسول الله ﷺ:

"أمرني ربي بتسع... وأن أصل من قطعني..."[1] واوصيكم بالمثل.

يأمر الله ﷻ دائماً عباده بأن يصلوا أرحامهم بصورة مستمرة دون انقطاع وان يحسنوا الى اقاربهم ويكرموهم قال عليه الصلاة والسلام:

"...أرسلني (اللّه) بصلة الأرحام وكسر الأوثان وأن يوحد الله لا يشرك به شيء" (مسلم، صلاة المسافر، ٢٩٤)،

معلناً بذلك عن أهمية صلة الرحم، أي زيارة الأقارب وحمايتهم والإهتمام بهم. حتى لو تصرف الأقرباء بسلبية نحونا، بل حتى لو قطعوا كل صلاتهم بنا، توجب علينا الاستمرار في زيارتهم ونصحهم بلسان لطيف أي أمرهم بالمعروف. وهذا حديث شريف آخر حول الموضوع نفسه:

"ليس الواصل بالمكافئ، ولكن الواصل الذي إذا قُطعت رحمه وصلها" (البخاري، أدب ١٥؛ أبو داوود، زكاة ٤٥)

١ انظر: الجزري، جامع الأصول، ١١، ص ٦٨٧، ٩٣١٧.



القدوة الأرفع في هذا الموضوع أيضاً هو بلا شك رسول الله ﷺ. فحين كان يذبح أضحية، كان لا بد أن يرسل منها إلى أهل خديجة رضي الله عنها[1].

كان يقول أيضاً: **"تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم"** (علي المتقي، الكنز، جـ١٠، ٢٢٠، ٢٩١٦٢)

يبين الله عز وجل كم سيخسر أولئك الذين يهملون واجب صلة الرحم فلا يحمون أقرباءهم، في الآيات الكريمة التالية:

﴿الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (البقرة، ٢٧)

﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ. أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ﴾(محمد، ٢٢-٢٣)

ويعبر رسول الله ﷺ عن مدى الخسران الرهيب الذي سيتعرض له أولئك الذين يهملون صلة الرحم، في الحديثين الشريفين:

"لاَ يَدْخُلُ الجَنَّةَ قَاطِعٌ" (البخاري، الأدب، ١١/ ٥٩٨٤)

"مَا مِنْ ذَنْبٍ أَجْدَرُ أَنْ يُعَجِّلَ اللَّهُ لِصَاحِبِهِ العُقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا مَعَ مَا يَدَّخِرُ لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنَ البَغْيِ وَقَطِيعَةِ الرَّحِمِ" (أبو داوود، الأدب، ٤٣؛ الترمذي، القيامة، ٥٧/ ٢٥١١)

---

١ أنظر: البخاري، مناقب الأنصار، ٢٠.



قال رسول الله ﷺ:

"**أمرني ربي بتسعٍ ...وأعطي من حرمني...**"[١] وأوصيكم بالمثل

يقول الله تعالى:

﴿**وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ**﴾ (فصلت، ٣٤)

ويقول الحديث الشريف:

"**صل من قطعك وأعط من حرمك واعرض عمن ظلمك!**" (ابن حنبل، ١٤٨\١٤، ١٥٨/ ١٧٣٧٢)

في العام السابع للهجرة غرقت مكة في الجفاف والمجاعة. قام رسول الله ﷺ بإرسال الذهب والشعير والتمر إلى أهل مكة الذين يعادونه بضراوة منذ عشرين عاماً. استلم أبو سفيان كل ذلك ووزعه على فقراء قريش.

الإنسان يغلبه الإحسان. الإكرام والإحسان يتغلبان حتى على العداء فيهذبانه. بسبب هذا الإنفاق الذي قام به رسول الله ﷺعلى فقراء مكة، عبّر أبو سفيان عن سروره قائلاً:

«جزى الله ابن أخي خيراً. فإنه وصول لرحمه» (اليعقوبي، التاريخ، ٢، ٥٦)

---

١ انظر: الجزري، جامع الأصول، ١١، ص ٦٨٧، ٩٣١٧.



كان هذا الكرم قد أدى إلى تشرف كثيرين باعتناق الإسلام.

لدينا مثال آخر جميل في النبي يوسف عليه السلام. فقد ألقى به أخوته في الجب مدفوعين إلى ذلك بغيرتهم منه. أما هو فقد أكرمهم أجمل إكرام، وسامحهم ولم يواجههم بما فعلوه به. فما كان منهم إلا أن قالوا:

﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾ (يوسف، ٩١).

الخلاصة أنه لكي نوجّه الناس نحو الحق والخير، علينا أن نعثر على الطريق المؤدية إلى قلوبهم. وأقصر السبل إلى ذلك هو الكرم والرأفة والمغفرة. هذا يعني القدرة على الإنفاق من هذه الفضائل القلبية على عباد الله عز وجل. لبلوغ الكمال في الإيمان ونيل محبة الله عز وجل، علينا أن نحافظ في قلوبنا دائماً على مخافة الله جل جلاله وألا نحيد عن العدل، في الغضب والرضى، أي في جميع الحالات؛ وأن نتصرف باقتصاد، في الفقر كما في الغنى، لنتمكن من الإنفاق في سبيل الله عز وجل بقدر ما نستطيع؛ وألا نقطع صلتنا بأقربائنا؛ وأن نكرم حتى من حرمنا؛ وأن نغفر حتى لمن ظلمنا، بقلب رحب وصدر واسع.

جعل الله عز وجل من نصيبنا جميعاً أن نتبع بحرص أوامر وتوصيات حبيبه الأديب، اتباع الظل لصاحبه، ليتسنى لنا أن نصبح من عباده الذين يحبهم. وجعلنا نتحلى بأخلاق رسوله الكريم الذي قام بتربيته بالذات ليكون قدوةُ للبشرية. وألحقنا بزمرة عباده الصالحين الذين هم شهود ذاته العليا على الأرض. آمـــــين...



معايير الأخلاق السامية -٢

من

الشخصية القدوة



علينا ألا ننسى أن الله تعالى خلق الناس وبعضهم بحاجة إلى بعض. وكما أن في المجتمع أقوياء ومقتدرين، سيكون هناك دائماً ضعفاء وذوُو عاهات ومحتاجون. ولنسأل أنفسنا: «لماذا خلق الله تعالى هؤلاء الناس محتاجين؟» والجواب معروف: «المحتاجون أمانةٌ من الله تعالى في أعناق غير المحتاجين».

محبة كائن ما تسري على كل ما هو وسيلة لها أو تتصل بها. مثلاً، ما يجعل جبل أُحُد ذا مكانة خاصة عند المؤمنين، من بين آلاف الجبال، هو المحبة الخاصة التي كنها لهذا الجبل رسول الله، ﷺ. بالمثل، ما حوّل يثرب التي كانت قبل الهجرة مدينة عادية، إلى المدينة المنوّرة فباتت موضع حب الأمة كلها، هو أنها اغتسلت بمحبة سيدنا سيد القلوب، عليه الصلاة والسلام، وتباركت. والحق أن تتمتَّع المدينة المنورة بمحبة المؤمنين بدرجة لا يمكن مقارنتها بمحبتهم لأي مدينة أخرى، مرده أنها كلما ذُكرت، ذكّرتهم بسيدنا الرسول ﷺ. وبالمثل فإن محبة الله توجب محبة وطاعة رسوله الذي هو أكثر من أحب بين رسله. قال الله تعالى:

﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ...﴾ (آل عمران، ٣١)

أي أن السعي إلى اتباع رسول الله ﷺ، يمنح المؤمن شرف الإنتماء إلى العباد المحبوبين من الله تعالى. بنتيجة محبة الله ورسوله وطاعتهما، تتحول السجايا الجميلة عند المؤمن كالرأفة والرحمة والقدرة على تقاسم الإمكانيات مع أخوته في الدين والمغفرة والقدرة على رؤية المخلوقات بعين الخالق، إلى متعة ولذة.

فقد أراد الصحابة الكرام أن يقتربوا من حقيقة رسول الله ﷺ، فتحلقوا حوله وداروا، وعدوا الفناء فيه أعظم نعم الحياة، فاستحقوا الألطاف الإلهية. والمؤمنون الذين اتخذوا من رسول الله ﷺ أسوة



حسنة فحصلوا على ما يستحقونه من نصيب من شخصيته القدوة، أنضجوا نشوةً إلهية فبلغوا ذروة الإيمان والأخلاق، فكانوا مشاعل هداية للبشرية عبر التاريخ. الدواء الأنجع للقلوب العليلة والتائهة، هو محبة رسول الله ﷺ، والإعجاب بتلك الشخصية الرفيعة، وما ينتج عنهما من اتباع السنة. كان رسول الله ﷺ، يرغب أن يبقى في الجنة مع أمته التي أحبها كثيراً، لذلك فقد طالب أمته بالإمتثال بحرص شديد بكل ما أمر به الله تعالى. في الآية الكريمة التالية يتحدث جلّ جلاله عن مدى محبة رسوله لأمته:

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (التوبة، ١٢٨)

إذا أردنا أن نلتقي عند حوض الكوثر مع سيدنا المحب لأمته كل هذا الحب، علينا أن نصغي من كل قلوبنا إلى ما أوصانا به. إليكم هنا بعضاً من وصاياه المهمة التي أراد لنا أن نتبعها بحرص شديد،

قال رسول الله ﷺ:

"أمرني ربي بتسعٍ...وأن يكون صمتي فِكراً..."[١] وأوصيكم بالمثل.

لقد تكرم الله تعالى على كل مخلوق من مخلوقاته بقدرة على التفكير بما يناسب خصائصه. ويطلق على تفكير المخلوقات، غير الإنسان والجان، «الغريزة» التي تعنى باستمرارية الحياة الجسدية، تساعد الحيوان على الغذاء وحماية الذات وبقاء النوع من طريق

١ انظر: الجزري، جامع الأصول، ١١، ص ٦٨٧، ٩٣١٧.

التناسل. أما الإنسان، فقد مُنِحَ ملكة التفكير ليقوّي بنيانه الروحي ويصبح عبداً جميلاً ومقرباً من الله. يا لها من خسارة، والحال هذه، أن يستهلك الإنسان نعمة ملكة التفكير لديه على حاجاته الدنيوية والشخصية! كلما سما الإنسان، على مدى حياته، في عمق التفكير والشعور، واكتسب من دراية، نال نصيبه من المحبة الإلهية وزاد مقدار سعادته بعد الموت بالقدر نفسه. التفكير هو واحد من أهم الوسائل التي من شأنها السمو بالشخص إلى ذرى الكمال البشري. يدعو مرشدنا وهدانا القرآن الكريم الإنسانَ، من أولى آياته إلى آخرها، إلى التفكير بعمق، والتأمل في حكمة الخلق والنظام الإستثنائي في الكائنات والمعجزة الفريدة في بيان القرآن. يحض القرآن الإنسان بعبارات من نوع «ألا تعقلون؟» و«لا تتفكرون؟» و«ألا تعتبرون؟». كل من أراد أن يحيا بطريقة تليق بالكرامة الإنسانية، فهو بحاجة إلى الإنخراط في بيئة من التفكير بهداية القرآن الكريم. قال الله ﷻ:

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ﴾ (الروم، ٨)

﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ. وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ (ق، ١٥-١٦)



وكان رسول الله ﷺ، الذي وُهِبَ الأمةَ أسوةً وقدوة، كثيراً ما يتفكر في عالم المخلوقات وخالقها ذي الحكمة. وما كان يتحدث بلا ضرورة. كانت حال الصمت تطول به. وفي كل سانحة كان يدعو أمته للتفكير فيما خلقه الله[1]، معتبراً التفكير نوعاً استثنائياً من العبادة.[2]

قال رسول الله ﷺ:

"أمرني ربي بتسعٍ... ونطقي ذِكراً..."[3] وأوصيكم بالمثل.

يحس المحبوب بحاجة إلى ذكر محبوبهم بقدر شدة حبهم له. وبالمقابل، يزيد هذا الذكر من محبة المحب للمحبوب. إن من نالوا نصيباً من لذة الإيمان، كلما تقدموا مرحلةً في هذا السبيل، زادت محبتهم لله تعالى وزاد ذكرهم له معاً.

لا شك أن ذكر الله ﷻ لا يقتصر على تكرار لفظ الله، بل يتعداه إلى ترسيخه في القلب الذي هو مركز المشاعر، في حالة من الإدراك والشعور العاليين. تقول الآية الكريمة:

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ (الرعد، ٢٨)

وفقاً لعائشة رضي الله عنها، كان رسول الله ﷺ، يذكر الله على كل أحيانه.[4] أراد لنا الله تعالى أن نكون على الحال نفسها، قال تعالى:

---

١ انظر: ديلمي، جـ٢، ص ٥٦.
٢ انظر: علي المتقي، كنز العمال، جـ ١٦، ص ١٢١.
٣ انظر: الجزري، جامع الأصول، ١١، ص ٦٨٧، ٩٣١٧.
٤ انظر: مسلم، الحيض، ١١٧.

﴿... وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ (آل عمران، ٤١)

﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ ...﴾

(النساء، ١٠٣)

يأمرنا الله ﷻ في هذه الآية ألا نغفل عن الذكر حتى في شروط الحرب أو اللحظات المملوءة بالخوف والمخاطر والمصائب، وأن تظل القلوب معه في جميع الشروط والحالات.

الذكر ضرورة لتجنب وقوع الإنسان في الغفلة. قال تعالى:

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (الحشر، ١٩)

وقال أيضاً، حين أرسل موسى وهارون عليهما السلام، إلى فرعون:

﴿اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي﴾ (طه، ٤٢)

إن شخصاً يردد قلبه كلمة «يا ربي!»، لن يتفوه بكلام سيء ولن يجور على أحد، ولن يعامل الناس بغير الرأفة. فالشخص القائم بالذكر يحظى بتجليات الرحمن والرحيم، من صفات الله.

كذلك تبلغ حياة العبادة ذروتها عند أولئك الذين ينشغلون بذكر الله تعالى وتكون قلوبهم معه. قال رسول الله ﷺ في ذلك:

"مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه مثل الحي والميت"

(البخاري، الدعوات، ٦٦)

قال رسول الله ﷺ:

"أمرني ربي بتسع... ونظري عبرةً..."[1] وأوصيكم بالمثل.

يمتدح الله تعالىً عباده الذين ينظرون إلى الأشياء والأحداث نظرة العبرة، فإنه أنزل آياته من أجل هذا النوع من عباده. تحض الآيات الكريمة الإنسان على الإعتبار من الكائنات والأحداث التي تقع حولهم، فتقول:

﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ. وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ. وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ. وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ (الغاشية، ١٧-٢٠)

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ...﴾ (محمد، ١٠)

إن أهم ما في العلم والعرفان هو التآلف مع لسان حال الكائنات. مولانا جلال الدين الرومي يعبّر عن هذه المرحلة بكلمتي «نضجتُ» و«احترقتُ». فهو يتحدث في «مثنويته» إلى جميع الكائنات، ويصبح مترجماً للسان حالها. من ذلك حديثه إلى الورد. يكاد مولانا يتبادل الحديث من القلب إلى القلب مع الوردة، فيقول:

«لقد اكتسبت الوردة رائحتها العطرة بسبب علاقتها الودية مع الشوك. اسمع هذه الحقيقة من الوردة نفسها، اسمع ما تقوله:

ولماذا أغتمُّ من رفقتي للشوك؟ ولماذا أستسلم للحزن؟ أنا التي حصلت على الضحك بسبب تحملي للشوكة ذات الطبع السيء، وبسببها بتُّ قادرة على تقديم الجمال والطيب للعالم».

---

١ انظر: الجزري، جامع الأصول، ١١، ص ٦٨٧، ٩٣١٧.

ويتحدث يونس أمرة إلى الزهرة الصفراء، ويفهم من لغتها حكمة الكائنات وأسرارها، ويحكيها.

ويقول سعدي الشيرازي:

«في نظر أولي الألباب، كل ورقة شجرة خضراء كتابٌ يوصل الإنسان إلى معرفة الله. أما الغافلين، فليست جميع الأشجار، بالنسبة لهم، حتى ورقةً خضراء».



الخلاصة أن خصالاً سامية كالتفكر والذكر والعبرة في النظر، ضروريةٌ من أجل إنضاج دخيلة الإنسان من طريق تزكيته وتنقيته. لقد بلّغ رسول الله ﷺ، أن الله تعالى خص هذه الأمور فأمره بها، وطالب أمته بالحرص في اتباعها.

ما أجمل ما قال في ذلك حضرة الإمام الرباني:

«واليوم يُقبل الامر اليسير المقرون بتصديق حقيقة دينه عليه الصلاة والسلام مكان العمل الكثير ولا غرو فيه...» (رسائل الرباني، الرسالة رقم ٤٤)

ألحقنا الله بزمرة المحظوظين الذين اتبعوا على أحسن وجه سنّة حبيبه الأكرم.

أن نحيا الحياة على هدى وصاياه ومناقبه السامية، هو الوسيلة لتحويل عالمينا معاً إلى عيد. إن الوصفة الوحيدة للسعادة في هذا العالم التي من شأنها تحويل العذابات الفانية إلى راحة أبدية،



ودموع الألم إلى ابتسام دائم، وصرخات الإستغاثة إلى أصداء من الجنة، مخبوءةٌ في قيم سيدنا محمد ﷺ، في رأفته ورحمته وشفاعته.

على الأعياد التي ندركها في الحياة الدنيا أن تدور، قبل كل شيء، حول هذه الحقائق السامية، لنحظى بالأعياد الحقيقية والأبدية. بين الحقائق المشار إليها التفكّر والذكر والنظر إلى العالم باعتبار.. أو باختصار الإمتثال بِأخلاق رسول الله ﷺ السامية. وكذا الغيرية والمشاركة..

لقد خلق الله تعالى البشر في حاجة متبادلة بعضهم إزاء بعض. وكما أنه في المجتمع أقوياء ومقتدرون، سيكون ثمة دائماً الضعفاء والمعطوبون والمحتاجون. علينا، والحال هذه، أن نسأل أنفسنا:

«لماذا خلق الله تعالى هؤلاء الناس محتاجين؟»

والجواب معروف:

«المحتاجون أمانة إلهية في أعناق غير المحتاجين». لقد حمّل الله تعالى المقتدرين هذه المسؤولية بالذات.

ينبغي التفكير أنه كان من الممكن أن يكون المقتدرون في محل المعوزين، والمعوزون في محل المقتدرين. وبالتالي على ذوي الأحوال الحسنة أن يدركوا مسؤوليتهم عن تلافي حاجات المحتاجين، إدراكاً تاماً. لأن هذه الحياة الدنيا ليست إلا فصلاً قصيراً جداً بالقياس إلى الأبدية. فقد يغرق أولئك المحتاجون في الآخرة في نعم عظيمة، جزاء لهم على صبرهم وحمدهم.



قال رسول الله ﷺ ذات يوم:

"...والله الذي نفسي بيده لا تدخلوا الجنة حتى تراحموا"

فقال الصحابة الكرام: «يا رسول الله، كلنا رحيمٌ»

فقال لهم رسول الله ﷺ:

"إنه ليس برحمة أحدكم، ولكن رحمة العامة، رحمة العامة"

(الحاكم، المجلد ٤، ٧٣١٠\١٨٥)

لذلك علينا أنْ نستَمِع ونُصْغِي إلى الإستغاثات المكتومة التي تتصاعد من أعماق المَجتمع. لا شك أنه يأتي في أولهم المرضى والمسنون الذين تركوا لمصيرهم، والأطفال الذين تركوا لرحمة الأزقة، والشباب في ربيع العمر ممن اندفعوا في الدروب غير المشروعة، بفعل سموم الإعلام المنكرة، فتركوا ليذووا في مستنقعات الكحول والمخدرات، والأدمغة الفتية التي فقدت مشاعرها الدينية والقومية.

حين نتذكر كل هؤلاء ونمد يد العون للناس المحرومين والمحتاجين بحق، ونفتح لهم قلوبنا، نكون قد حصلنا على عيد حقيقي. لأن جميع المسلمين هم كأعضاء جسد واحد. فكل إنسان نخسره هو بحكم عضو اقتطع من هذا الجسد. قال رسول الله ﷺ، معبراً عن رغبته في أن يكون المؤمنون في هذه الحالة الروحية:

"مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم، مثل الجسد. إذا اشتكى منه عضو، تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى"

(البخاري، الأدب ٢٧؛ مسلم، البر ٦٦)



علينا أن نفكر: ترى لأي حملة روحية يحتاج العيد الحقيقي الذي من شأنه أن يوقظ الغافلين في مجتمعنا، وينعش المساكين والبؤساء فيغرق قلوبهم في السرور، ويجعل البشرية تبتسم بوجه الإسلام البشوش؟ كيف علينا أن نتبادل التهاني بالعيد مع أخوتنا في الدين المظلومين والمغدورين في شتى أنحاء العالم؟ كيف ينبغي لتهنئتنا لهم بالعيد أن تكون؟ إلى أي حد يمكن لقلوبنا ودعواتنا أن تمتد إلى المظلومين مهيضي ومكسوري الجناح واليتامى والمحتاجين؟ هل سنكون قادرين على توسل ابتسامة على وجوههم، من شأنها أن تمنحنا بهجة العيد الحقيقية وتمنح قلوبنا انبساط الربيع؟

الخلاصة، إن الأعياد الحقيقية التي من شأنها أن تملأ حياتنا الأبدية بالراحة والسعادة، هي الأعياد التي سنعيشها حين نستطيع تقديم الإجابات الجميلة على هذه الأسئلة. في ضوء الحقائق المذكورة، طوبى لمن استطاع أن يحيا بما يتفق والأخلاق السامية لسيدنا محمد ﷺ.

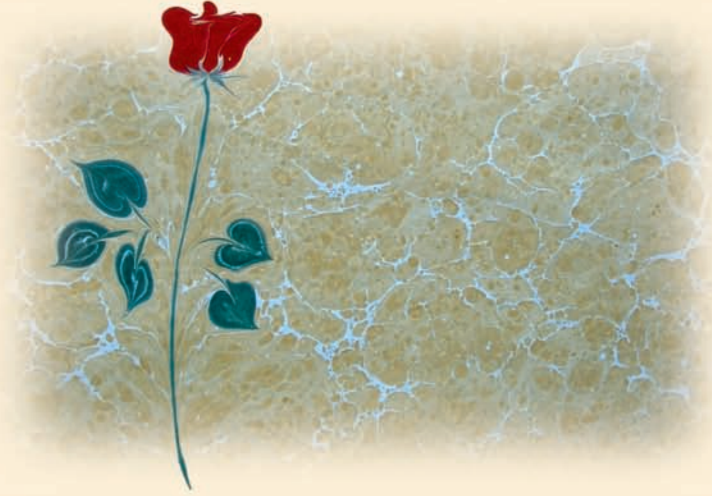
جعل الله تعالى من نصيبنا أن نتمكن من سماع عذابات وبؤس أخوتنا في الدين من المظلومين، وأن نتمكن من تحويل قلوبنا إلى تكية تحميهم، وأن نتمكن من تضميد جراحهم، سواء بمساعدتهم مادياً أو بأدعيتنا من أجلهم. ليحوّل ويجعل بابنا الذي يؤدي إلى الآخرة عيداً أبدياً يأتي مع تجليات السعادة!...آمين...



معايير الأخلاق السامية -٣

من

الشخصية القدوة



كي يكون الإرشاد والتبليغ مقبولاً، فهو يتطلب قلباً حساساً عُجِنَ بحكمة القرآن، ووجهاً بشوشاً يعكس وجه الإسلام البشوش. ويتطلب أيضاً التحوّل إلى تمثال حي للحق والخير والفضيلة والإستقامة، وحياةً قدوة، والتحدث بلسان ودود يفيض بالرحمة.

لقد زوّد الله تعالى جميع المخلوقات، والإنسان بخاصة، بالنزوع إلى المحبة. يكتسب الإنسان، في هذا العالم الذي يشكل معبراً للإمتحان الإلهي، من السوية المعنوية بمقدار ما يوجّه محبته للحق والخير. إن المصدر الحقيقي والنهائي للمحبة.

حيث تبلغ الروح الراحة والطمأنينة، هو الله ﷻ الذي يتكرم على الإنسان من روحه. لذلك فإن جميع أنواع المحبة الفانية التي لا تنتهي إلى الحق، ولا تصل إليه، وتتوه في عناوين خاطئة، وتهدر في الشوارع المسدودة، تشكل للروح إرهاقاً وإثقالاً بلا جدوى.

يا للمثال المعبّر الذي يوضح به مولانا جلال الدين الرومي غفلة العبد هذه، حين يقول:

«لا غرابة في هروب الحمل من الذئب. فالذئب هو عدو الحمل وصياده. ما يدعو إلى الإستغراب حقاً إنما هو وقوع الحمل في هوى الذئب!»

من هذا المنظور، يتوجب امتلاك مزاج قلبي من شأنه عدم نسيان الله تعالى – المنبع الحقيقي للمحبة – وجعل كل محبة فانية عتبة نحو المحبة الإلهية. إن هذا من مقتضيات خلق الإنسان.



والطريق المستقيم والمباشر الذي يؤدي إلى المحبة الإلهية، يمر عبر محبة حبيب الله سيدنا محمد ﷺ وطاعته التي هي شكل تجلي هذه المحبة. وفقاً للقاعدة القائلة:

«إن المحب يحب كل ما يخص المحبوب»

يجب الإخلاص لسيدنا محمد ﷺ وإطاعته في كل شيء. فهذان الإخلاص والطاعة يشكلان العمود الفقري لمحبة الحق.

محبة المؤمن لفخر الكائنات ﷺ تنعكس راحةً في العبادات، ورقّةً في التصرفات البشرية، ورفعةً في الأخلاق، ولطفاً في القلوب، ونوراً على الوجوه، وروحانيةً على اللسان، وعمقاً في الأنظار. فالنبع الأكثر فيضاً الذي يمكن الحصول على كل ألوان الجمال هذه منه، إنما هو سيدنا محمد ﷺ.

الحق أن القلوب تستطيع أن تنال درس المحبة الإلهي، بكل معنى الكلمة، فقط حين تدور حول نور الوجود هذا كمثل فراشةٍ تشتعل في الحب. يعطينا مولانا جلال الدين بضعة أمثلة على تجليات المحبة في الكائنات، مما يساعدنا على قياس درجة محبتنا لرسول الله ﷺ:

«كم من فراشةٍ قفزت في الأتون في سبيل الحب. تضطرب أجنحتها في النار، تحترق ولسان حالها يقول: «كن مثلي!»

«كانت الشمعة تحترق وتبكي. لقد أعطت نفسها للنار



والعذاب. عيناها تدمعان لكنها تنشر حولها النور. وكانت الشمعة نفسها تقول: «ما النفع من نثرك الذهب والفضة بغية أن تربح؟ إن كنتَ ترغب بربح معنوي، عليك بالاحتراق والذوبان مثلي!»..»

سيدنا محمد، عليه الصلاة والسلام، الذي علينا أن نحبه محبة بهذا العمق، عاش طوال عمره وهو ينادي مشفقاً: «أمتي، يا أمتي..». كانت محبته لأمته ورأفته بها، تفوق بما لا يقاس محبة أم حنون لأطفالها الصغار وحدبها عليهم. لقد انشغل واهتم كثيراً بمصير أمته إلى الحد الذي دفعه للقول:

"**...ولقد أوذيت في الله وما يؤذى أحد...**" (الترمذي، القيامة، ٢٤٧٢\٣٤)

وقال لصحبه أيضاً:

"**ألا! إني لكم بمكان صدق حياتي، فإذا مت لا أزال أنادي في قبري: "يا رب أمتي أمتي" حتى ينفخ في الصور النفخة الأولى، ثم لا تزال لي دعوة مجابة حتى ينفخ في الصور النفخة الثانية..**" (علي المتقي، كنز العمال، جـ١٤، ص ٤١٤/ ٣٩١١٤)

إن الوفاء لمحبته لأمته، هو أول دينٍ في عنق كل مؤمن. بمقتضى الحديث الشريف القائل:

"**المرء مع من أحب**" (البخاري، الأدب، ٩٦)

علينا أن نحبه أكثر من أرواحنا، ونتبع سنّته، ونتمثل أخلاقه. لأن هذا هو المعيار والتجلي الأكثر دقة لمحبتنا له.



فيما يأتي اثنتين من الوصايا الحكيمة لسيدنا محمد، عليه الصلاة والسلام، التي من شأنها أن تشكل لنا رأس مال للسعادة والخلاص الأبديين:

"أمرني ربي بتسعٍ... وأعفو عمن ظلمني..."[1] وأوصيكم بالمثل

المغفرة هي العفو عند المقدرة بديلاً من العقاب والثأر من الظالم. وهي واحدة من أجمل تجليات المحبة نحو المخلوق في سبيل رضى الخالق.

أي أنها تمثل النضج الذي يتيح للمؤمن أن يتجرد من نفسه في مواجهة المذنب، ويطلب له مغفرة الله ورحمته. طبعاً لا يبلغ هذا النضج إلا أولئك المؤمنون الكاملون الذين بلغوا الشعور بالعدم أمام الإرادة الإلهية، وتخلقوا بالأخلاق الإلهية. وبالمغفرة الدائمة يصبحون ممن يستحقون مغفرة الله تعالى.

قال عمر رضي الله عنه: "من لا يَرحم لا يُرحم، ولا يُغفرُ من لا يَغفر، ولا يُعفَ عمن لم يَعفُ.." (البخاري، الأدب المفرد، ص ٤١٥، ٣٧١)

التغلب على الغضب والقدرة على العفو، مما يصعب على نفس الإنسان. لكن شرف الحصول على نتيجة هو بحجم صعوبة الوصول إليه. لذلك فإنها فضيلة كبيرة أن يتمكن المرء من التصرف بهذه الحكمة من أجل الله تعالى.

١ انظر: الجزري، جامع الأصول، ١١، ص ٦٨٧، ٩٣١٧.



عن يحيى بن يوسف، أخبرنا أبو بكر هو ابن عياش، عن أبي حصين، عن أبي صالح، عن أبي هريرة ﵁، أن رجلاً قال للنبي ﷺ: أوصني، قال:

"**لا تغضب**" فردد مراراً، قال: «**لا تغضب**» (البخاري، الأدب، ٧٦)

وقال رسول الله ﷺ، يدعو المؤمنين للتغلب على الغضب:

"**لَا تَكُونُوا إِمَّعَةً، تَقُولُونَ: إِنْ أَحْسَنَ النَّاسُ أَحْسَنَّا، وَإِنْ ظَلَمُوا ظَلَمْنَا، وَلَكِنْ وَطِّنُوا أَنْفُسَكُمْ، إِنْ أَحْسَنَ النَّاسُ أَنْ تُحْسِنُوا، وَإِنْ أَسَاءُوا فَلَا تَظْلِمُوا**" (الترمذي، البر، ٦٣\٢٠٠٧)

على ضوء هذه الحقيقة قال حكماؤنا:

«إن مقابلة الخير بالخير هي مما يستطيعه أي شخص؛ أما مقابلة الشر بالخير فهو من شأن الشهم وحده».

الواقع أن هذه الأخلاق هي طريقة في التربية المعنوية. فإذا كان الشخص الذي نعامله بالخير عدواً، فسوف يكسر هذا الخير ما في قلبه من عداء وحقد، ويفتح في قلبه ميولاً ودية؛ وإذا كان شخصاً محايداً ظهرت في قلبه الرغبة في التوادد والتقارب؛ فإذا كان صديقاً ازدادت محبته. تقول الآية الكريمة:

﴿**وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ**﴾ (فصلت، ٣٤)



يفسر ابن عباس ﵁ هذه الآية كما يأتي: المقصود بعبارة «بالتي هي أحسن» في هذه الآية: الصبر عند الغضب والعفو عند الإساءة، فإذا فعلوه عصمهم الله، وخضع لهم عدوهم: «كأنه ولي حميم».

(البخاري، التفسير ١\١٤١)

لقد شهد التاريخ النتائج المباركة لفضيلة العفو والمغفرة، في إبعاد الناس عن الظلم والجور والشر، وفي توجيههم نحو الحق والخير. وتسببت هذه الفضيلة في انتباه كثير من الغافلين.

وفي يوم فتح مكة، أعلن رسول الله ﷺ، العفو والأمان على العموم، فقال لأهل مكة الذين اجتمعوا في الكعبة:

"يا أهل قريش. ما تظنون أني فاعل بكم؟"

فقال القرشيون: «نَقُولُ خَيْرًا وَنَظُنّ خَيْرًا، أَخٌ كَرِيمٌ وَابْنُ أَخٍ كَرِيمٍ، وَقَدْ قَدَرْتَ..» فقال رسول الله ﷺ:

"فإني أَقُولُ كَمَا قَالَ أَخِي يُوسُفُ: ﴿...لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ (يوسف، ٩٢)**. اذهبوا فأنتم الطلقاء"**[١].

---

١ انظر: ابن هشام، جـ ٤، ٣٢؛ الواقدي، جـ ٢، ٨٣٥؛ ابن سعد، جـ٢، ١٤٢-١٤٣.

لقد أوقع الله تعالى المشركين من أهل قريش بين يدي رسوله وأخضعهم له، فعفا عنهم وأطلقهم. أمام كرم الأخلاق هذا، كم من قلوب متحجرة لانت، وكم من قلوب مظلمة أضيئت بنور الهدى.

وَأَمّا هَبّارُ بْنُ الْأَسْوَدِ، فَلَمْ يُقْدَرْ عَلَيْهِ يَوْمَ الْفَتْحِ، وَكَانَ جُرْمُهُ أَنّهُ عَسّ بِابْنَةِ النّبِيّ ﷺ زَيْنَبَ وَضَرَبَ ظَهْرَهَا بِالرّمْحِ- وَكَانَتْ حُبْلَى- حَتّى سَقَطَتْ، فَأَهْدَرَ النّبِيّ ﷺ دَمَهُ. فَبَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ جَالِسٌ بِالْمَدِينَةِ فِي أَصْحَابِهِ إذْ طَلَعَ هَبّارُ بْنُ الْأَسْوَدِ، وَكَانَ لَسِنًا، فَقَالَ: يَا مُحَمّدُ! سُبّ مَنْ سَبّك، إنّي قَدْ جِئْت مُقِرّا بِالْإِسْلَامِ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إلَهَ إلّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنّ مُحَمّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ. فَقَبِلَ مِنْهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَخَرَجَتْ سَلْمَى مَوْلَاةُ النّبِيّ ﷺ فَقَالَتْ: لَا أَنْعَمَ اللهُ بِك عَيْنًا! أَنْتَ الّذِي فَعَلْت وَفَعَلْت. فقال: إنّ الإسلام محا ذلك. ونهى رسول الله ﷺ عن سَبّهِ وَالتّعْرِيضِ لَهُ[1].

فقد أمر الله تعالى:

﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ (الأعراف، ١٩٩)

كان رسول الله ﷺ، يعفو عما ارتكب بحقه جرما بلا تردد، أما إذا تعلق الأمر بعموم الناس، فلم يكن يهدأ له بال قبل أن يتخذ الحق

١ الواقدي، المغازي، جـ٢، ص ٨٥٧-٨٥٨.



والعدل مجراهما. فالعفو يتعلق بما يرتكب ضد الشخص نفسه. أما إذا كان الأمر يتعلق بالمجتمع، يتوجب في هذه الحال حماية حقوق المجتمع. لأنه إذا تم العفو عن ذنب بحق المجتمع، سيشجع هذا مزيداً من الظلم وينفتح الباب أمام مظالم أكبر.

كانت فضيلة العفو لوجه الله، الشعار الأكبر لسيدنا محمدﷺ، الذي أرسل رحمةً للعالمين. فقد عفا الرسول ﷺ عن كثير ممن أساؤوا إِليه وظلموه، في مرحلة التبليغ، ودعا ربه من أجل هدايتهم. حين قصد الرسول ﷺ مدينة الطائف ليبلغ أهلها الإسلام، رجمه هؤلاء الجهلة من عبدة الأوثان بالحجارة إلى أن غطته الدماء. حينها جاءه جبريل، عليه السلام، وقال له إنه ينتظر أوامره ليهلك هؤلاء القوم. فقال له رسول الرحمة، عليه الصلاة والسلام:

"لا.. أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده، لا يشرك به شيئاً" (البخاري، بدء الخلق ٧؛ مسلم، الجهاد ١١١)

إنها من بركات هذا العفو أن أهل الطائف تشرفوا، بعد حين، باعتناق الإسلام.

لقد تعرضت أمنا عائشة رضي الله عنها، وهي مثال العفة، لأكبر مظالم الدنيا وأثقلها، حين افترى عليها البعض افتراءً قبيحاً. وكان بين أولئك المفترين رجل فقير يدعى مسطح، كان أبو بكر رضي الله عنه، يقدم له مساعدات. استاء أبو بكر منه كثيراً، فالمفترى عليها هي ابنته نور عينه، وزوجة رسول الله ﷺ، وأم المؤمنين. أمام هذا الجحود



الرهيب، أقسم أبو بكر على أنه لن يقدم له بعد اليوم أي مساعدة. وإذ انقطعت مساعدات أبي بكر، باتت عائلة مسطح في حال يرثى لها. عندئذ أنزل الله تعالى آيته الكريمة التي أمر فيها بوجوب أن يعفو الفضلاء حتى عمن أساء إليهم، قال تعالى:

﴿...**ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم**﴾ (النور، ٢٢)

فقال أبو بكرﷺ: «وَاللهِ إِنِّي لَأُحِبُّ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لِي»

فَرَجَعَ إِلَى مِسْطَحٍ النَّفَقَةَ الَّتِي كَانَ يُنْفِقُ عَلَيْهِ، وَقَالَ: لَا أَنْزِعُهَا مِنْهُ أَبَدًا. (مسلم، التوبة، ٥٦)

الخلاصة أن صاحب العفو الحقيقي هو الله تعالى. ويستمتع المؤمنون بالعفو بمقدار ما في قلوبهم من محبة الله ﷻ. إن الذين يريدون تذوق متعة التقرب من الله تعالى، هم أولئك الذين يوزعون طيب العفو من الورود اللطيفة في حدائق قلوبهم. إن قدرة المؤمن على العفو عمن أساء إلى شخصه وظلمه، لوجه الله، هي النصر الحقيقي لروحه.

ويقول رسول الله ﷺ في وصية أخرى من وصاياه:

"أمرني ربي بتسعٍ...وآمر بالعُرف وقيل بالمعروف"[١] وأوصيكم بالمثل.

---

١ انظر: الجزري، جامع الأصول، ١١، ص ٦٨٧، ٩٣١٧.

إن الأمر بالمعروف – وهو تجلي الرأفة والرحمة بالمخلوقات لوجه الخالق – والنهي عن المنكر، هما الخدمة الأكبر التي يمكن تقديمها للإنسان. ذلك أن أكبر حاجات الإنسان هي سلامة الإيمان. لذلك فإن دعوة الناس إلى الهدى هي واجب مقدس من الممكن وصفه بـالمهمة النبوية. قال الله تعالى في الآية الكريمة:

﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ (الأعراف، ٦)

لقد كرس رسول الله ﷺ، عمره لواجب التبليغ، وكرر في خطبة الوداع ثلاث مرات: «هل بلّغت؟» وحصل على الجواب من أمته بالإيجاب. إن هذا الواجب المقدس هي مسؤوليتنا أيضاً، نحن أمته.

وقد جاء في القرآن الكريم:

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (فصلت، ٣٣)

﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (آل عمران، ١٠٤)

وجاء في الحديث الشريف: **"والله لأن يُهدى بك رجل واحد خيرٌ لك من حُمرِ النعم"** (البخاري، أصحاب النبي، ٩؛ الجهاد،١٠١)

ما أكبر سعادة القلوب المؤمنة التي تحظى بكل هذه المدائح والبشائر. وجاء في الحديث الشريف أيضاً:



"من دعا إلى هدىً، كان له من الأجر مثل أجور من تبعه، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً " (مسلم، العلم، ١٦)

إن مكافأة الجهود المخلصة من أجل تبليغ رسالة الحق والخير، تتضاعف مثل كرة الثلج. إذن تنبيه وهداية المحرومين من نعمة الإيمان، أو المؤمنين الذين يعيشون إيمانهم بمعايير سطحية وفظة بسبب غفلتهم وجهالتهم، هو أكبر خير نعمله من أجلهم، كما أنه ينالنا بفعله أجر عظيم، وهو أيضاً وفاء منا لما ندين به لنعمة الإيمان.

من ناحية أخرى، إن درجة سعينا في التبليغ هي بمثابة المقياس لسوية إيماننا كما جاء جاء في الحديث الشريف:

"من رأى منكم منكراً فليغيره بيده. فإن لم يستطع فبلسانه. فإن لم يستطع فبقلبه. وذلك أضعف الإيمان" (مسلم، الإيمان ٧٨)

لقد وردت تنبيهات شديدة بحق من يهملون واجب التبليغ. قال رسول الله ﷺ:

"والذي نفسي بيده، لتأمرن بالمعروف، ولتنهون عن المنكر، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عذاباً منه ثم تدعونه فلا يستجاب لكم" (الترمذي، الفتن ٩)

بيد أنه يجب الانتباه إلى أصول التبليغ وآدابه، وإلا فمن المحتمل أن يتم اقتلاع العين بنية تكحيلها، أي إنتاج الضرر بدلاً من النفع. فمن أجل تبليغ الحق والحض على الخير، ينبغي أولاً معرفة

الحق والخير بصورة صحيحة. فتبليغ الجاهل لا يمكن أن يبرأ من الأخطاء، لا في الأسلوب ولا في المحتوى. الشرط الأول، والحال هذه، لسواء السبيل هو رأس المال العلمي والروحي. فكما أنه لا يمكن تقديم الماء بكأس فارغة، كذلك لا نتوقع خيراً من تبليغ من حرم من العلم والعرفان.

أضف أنه من الخطأ أن يتنطح للتبليغ من كان قلبه مملوءاً بالأنانية وضروب الضعف المماثلة. إن أمثال هؤلاء يزيدون من الأضرار إذ يتنطحون للدعوة إلى الخير. يتطلب التبليغ، إذا أردنا له أن يكون مقبولاً، قلباً حساساً مترعاً ومليئاً بحكمة القرآن ووجهاً بشوشاً يعكس الوجه السمح للإسلام. كذلك يتطلب ممن يقوم بالتبليغ أن يصبح مثالاً حياً للحق والخير والفضيلة والإستقامة، وأن يحيا حياة تقتدى ويتحدث بلسان صميم يبث الرحمة حوله.

ينبغي أن يتم التبليغ بالكرم والإحسان وبتمثيل رقة شخصية الإسلام وظرفها. فالإنسان يغلبه الإحسان وتفتنه الشخصية السامية التي يراها.

من ناحية أخرى، على من يقوم بواجب التبليغ، ألا يحرم مخاطبه من الدعوة، مهما بلغت ذنوبه. عليه ألا ينبذ أحداً، ويفكر كم من الشجر والزهر تنشق عنه الصخور والأسوار، وألا ينسى رحابة رحمة الله التي لا يحدها حد.



لم يغلق رسول الله ﷺ، باب الدعوة حتى في وجه هبار بن أسود الذي أوقع ابنته زينب رضي الله عنها، من فوق الجمل وتسبب في موتها، ولا في وجه عكرمة ابن أبي جهل الذي عادى المسلمين كل أنواع العداء إلى حين فتح مكة، ولا في وجه وحشي الذي قتل عمه حمزة، ولا في وجه هند زوجة أبي سفيان التي عضت على كبدعَمِّه حمزة بحقد. يجب ألا يحرم أحد من التبليغ، حتى لو بلغ به الكفر مثل فرعون. لقد أمر الله تعالى نبيه موسى عليه السلام، بالذهاب إلى فرعون الذي ادعى الألوهية، وتبليغه بلسان معتدل. علينا أيضاً أن نتوجه إلى الآثمين الذين انسحقوا تحت عبء ذنوبهم وظنوا أنهم فقدوا كل أمل بالخلاص، فنلقنهم عظمة رحمة الله ورأفته. قال الله عز وجل:

﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ. وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ﴾ (الزمر، ٥٣-٥٤).

كما ترون، ينبغي دعوة المجرمين الذين يختنقون في مستنقع آثامهم، إلى دار الأمل والرحمة في الإسلام، بكلام عذب وحكيم وبأسلوب الرحمة.

الخلاصة أن واجب المؤمن، فيما يَخُصُّ التبليغ، هو مواصلة الجهد، من غير يأس أو استرخاء أو كلل أو ملل، والتوكل على الله. ينبغي أيضاً أن نبتعد عن الأنانية والاكتفاء بالخلاص الشخصي مخافة التعب من بذل الجهد في سبيل بيان جمال الإسلام والحق والخير.

أراد الله تعالى أن يبين لنا الكثير من الحكم والحقائق بواسطة الكائنات الكثيرة التي خلقها. إن القدرة على قراءة عالم الأسرار والحكم هذا، هي فن اختص به القلب. الكائنات مدرسةٌ ممتازة بالنسبة لمن كان قلبه مهيئاً لتلقي الدروس والعبر. كان أصدقاء الحق من أمثال مولانا جلال الدين الرومي والشاعر المتصوف يونس أمرة، التلاميذ البارزين لمدرسة الكائنات هذه. لقد حصّلوا من هذا العالم الحكم والأسرار، ونثروا عطر الروح على القلوب الظمأى للمعرفة. لقد فتح لهم ربنا عالم الكائنات كالكتاب المفتوح.

كم من العبر والحكم يكشف الله تعالى في كل كائن أمام العين التي ترى والقلب الذي يحس. ومن طريقها يلفت انتباهنا بصورة خاصة إلى حكمة الغيرية. لنضرب مثلاً بالنحلة التي لا يتجاوز عمرها خمسة وأربعين يوماً. فهي تصنع العسل لتلبية حاجتها الخاصة، لكنها تنتج منه كمية تكفي لغذاء مئة نحلة. وهكذا نرى أن الغاية الحقيقية من حياتها هي خدمة الآخرين.

لنفكر أيضاً كيف أن ثمرة شجرة الخوخ هي، في الوقت نفسه، بذرتها والغاية منها تناسلها. لكن بذرة واحدة كافية لبزوغ شجرة خوخ، ومع ذلك فهي تنتج من الثمار الكثير لكي يستفيد الآخرون من هذه النعمة. هذه أمثلة على ما يكشفه الله تعالى في المخلوقات من الغيرية.



يعطينا الله تعالى في شجرة الدلب مثالاً آخر على الحياة الدنيا. هذه الشجرة الكبيرة والمهيبة، تسقط أوراقها مع حلول الشتاء، فتهتف بلسان حالها أن الموت حق، هتافاً بلا صوت أو كلام. وبأوراقها التي تخضر في الربيع، كأنما تعطينا مثلاً على الانبعاث بعد الموت. وبرغم كل هيبتها، ليست لشجرة الدلب ثمار.

بل إنها لا تصلح للاستخدام خشباً. يمكنها فقط أن تصبح حطباً للنار. أي أن منفعتها هي في الحدود الدنيا. وكأن لسان حال هذه الشجرة يقول لنا: «فلتدركوا بأنكم فانين، ولا تكونوا بلا ثمرة مثلي».

على المزايا التي نملكها أن تكون منافعها في الحدود القصوى، كما هي حال شجرة الزيتون مثلاً. هذه الشجرة ذات الجذع الرفيع، تبدأ بإعطاء ثمارها بمضي عام على زراعتها، وتواصل هذه الخدمة طيلة عمرها. ويقول لسان حال وردة لنا: «أنا، بلوني وعطري، في حال ابتسام دائم لأنني أتحمل الأشواك. فاقتدوا بي وكونوا مثلي».

إن ثراءً في منأى عن الكرم والغيرية، وصحةً أو مقاماً أو علماً لم يفِ صاحبها بدينه من الحمد والإمتنان، صحيح أنها جميعاً وسائل هيبة، لكنها من نوع «هيبة شجرة دلب عجفاء». المهم بالنسبة للمؤمنين هو أن يكونوا كالأشجار المثمرة، وأن يكونوا في سعي لا يكل من أجل زيادة الثمار.



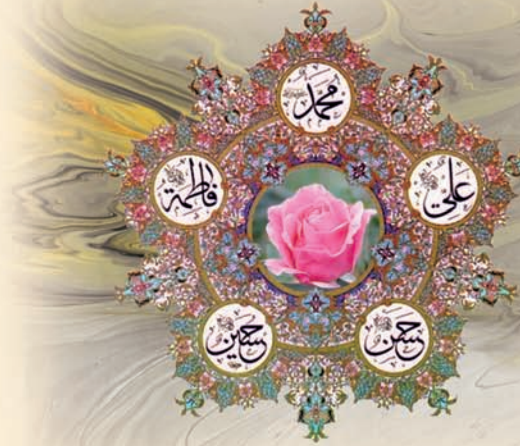
على المرء أن يحاسب نفسه في إطار هذا التفكير وهذا الإحساس: «إلى أي درجة أفكر بنفسي، وإلى أي درجة أفكر بمن حولي من المحتاجين؟ كم أقدم من التضحيات؟ ما الذي تعنيه لي نحلة أو وردة أو شجرة خوخ أو شجرة زيتون؟»

بما أن الإنسان له من الكرامة أكثر مما للنحلة أو الشجرة، عليه، إذن، أن يسعى ليكون نافعاً للآخرين بأكثر من حاجاته أضعافاً مضاعفة. أي أن ما يليق بالإنسان الذي يحتل أعلى المراتب شرفاً بين الكائنات، هو أن يخدم نفسه مرة، وغيره ألف مرة. تقول الآية الكريمة:

﴿...وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ (البقرة، ٢١٩)

جعلنا الله وإيّاكم جميعاً من عباده الذين يعرفون قدر كل النعم وقيمتها، ويمضون أعمارهم بالصورة الأكثر عطاءً، في أعمال تبتغي رضى الله تعالى وألحقنا الله تعالى بزمرة المؤمنين الصالحين الذين يستفيد الناس من أيديهم وألسنتهم وحالاتهم وأخلاقهم. لتتفق نياتنا وأفكارنا ومشاعرنا وأعمالنا مع رضى الله تعالى. آمين...

المحبة
لأهل البيت



أهل البيت هم شخصيات منتخبة، شهدت عن قرب الجمال النبوي، أي الملاحة النورانية على وجه الرسول ﷺ، وفصاحة كلامه، ولطافة حركاته، والبلاغة الفريدة في بيانه. إنهم أكثر الناس نيلاً لمحبة الرسول ، لأنهم اتخذوا من حاله حالاً لهم، ومن أخلاقه قدوة لأخلاقهم، ونشأوا في ظل تربيته.

المحبة لأهل البيت

"أحبوا الله تعالى لما يغذوكم من نِعَمِه، وأحبوني بحب الله، وأحبوا أهل بيتي لحبي"[1]

المحبة والصداقة

تنبع المحبة والصداقة من المشتركات في المشاعر والأحوال. كلما كانت المشتركات كثيرة، زادت المحبة بالنسبة ذاتها.

إن الله تعالى يحب أكثر عباده الذين يشاهد فيهم صفاته الجمالية ويكرمهم بصداقته وقربه الخاص.

إن ميل عاطفة النبي يعقوب عليه السلام، إلى يوسف من بين أولاده الإثني عشر، مرده إلى رؤيته فيه لمشاعره وأفكاره وإمكانياته وخصوصياته، بأكثر مما في أولاده الآخرين. معنى ذلك أن الصداقة تنبع من رؤية المحب في المحبوب صفاته الخاصة.

بالمثل، الأشخاص المباركون الذين تلاحظ عليهم أحوال رسول الله ﷺ، وصفاته على أحسن صورة، هم أقرب الناس إليه، أي عائلته الكريمة أو أهل بيته.

---

١ الترمذي، المناقب، ٣٧٨٩\٣١



فأهل البيت هم الذين عاينوا عن قرب صور الجمال النبوي، أي الملاحة النورانية والطيبة على وجهه وفصاحة لسانه ولطافة حركاته والبلاغة الإستثنائية في بيانه. لقد كانوا أحب الناس إلى قلب الرسول ﷺ، الذي بحاله امتثلوا وبأخلاقه تخلّقوا وفي ظل تربيته نَشَؤا.

لذلك فقد دفع هؤلاء الأشخاص الأعزة، طيلة أعمارهم، أثماناً باهظة طوعاً في سبيل أن يليقوا بمحبته وألا يحرموا منها أبداً. لقد أخذوا نصيبهم مما تعرض له من شقاء وعذاب.

فالإنسان يقدم أكبر التضحيات من أجل من يحب وما يحب. وأكبر التضحيات التي يمكن تقديمها في هذا العالم الفاني هي التضحية في سبيل المحبة الإلهية.

ويشكل أهل البيت ذروة استثنائية بين أبطال الإسلام الذين قدموا ثمن المحبة الإلهية بمتعة ووجد كبيرين.

أهل البيت

أهل بيت نور الوجود رسول الله ﷺ، المباركين.. السلالة الشريفة التي اكتسبت شخصيتها من الأخلاق والعلم والعرفان والفضائل النبوية.. سادة الأمة التي أصبحت مثالاً للإخلاص والتقوى في محبة الرسول والوفاء له، آل محمد ﷺ..



يعني تعبير أهل البيت أولاً أفراد عائلة سيدنا محمدﷺ. أهل البيت، بهذا المعنى، هم الرسول الأكرم وأسرته، وعلي بن أبي طالب رضي الله عنه، وجعفر وعقيل وعباس وأسرهم. وكما أن الصلاة والسلام على سيدنا محمد ﷺ، هو واجب على جميع المؤمنين، كذلك هو الإخلاص لأهل البيت بمحبة واحترام.

لأن النتيجة الطبيعية لمحبة الإنسان لشخص ما، هي أن تشمل هذه المحبة كل ما ومن له علاقة بمن يحب. يمكن أن يتعلق الأمر بأشخاص أو أشياء أو سلوك أو أماكن على السواء.

إذا أحببتم شخصاً، على سبيل المثال، فسوف تذكركم به كل حال أو حركة تخصانه، حين ترونها في شخص آخر. وسوف تحبون الشخص الذي ترون عنده تلك الأحوال والحركات أيضاً لمجرد أنه يذكركم بمن تحبون. تتجلى هذه النتيجة بصورة متناسبة مع درجة محبتكم. إن من يحب شخصاً بدرجة عالية من المحبة، فإن جلوس هذا الشخص ونهوضه وحتى طريقته في الملبس، تؤثر جميعاً في قلب المحب. إن محبة لحية رسول الله المباركة وثيابه، هي أثر من هذه الحالة الروحية.

إن محبة الله عز وجل هي الذروة النهائية في فعل المحبة. أما الذروة التالية فهي محبتنا لرسول الله ﷺ، لكونه سبب خلقنا. إن من امتلأت قلوبهم بمحبة رسول الله ﷺ، ستبهجهم أيضاً محبة أهل البيت، في إطار الحقائق التي ذكرناها أعلاه، وسوف يقتدون بهم.

يحكي زيد بن أرقم ﵁، فيقول:

«قام رسول الله ﷺ، يوماً فينا خطيباً. بماء يدعى خمّاً. بين مكة والمدينة. فحمد الله وأثنى عليه، ووعظ وذكر. ثم قال:

"أما بعد. ألا أيها الناس! فإنما أنا بشر يوشك أن يأتي رسول ربي فأجيب. وأنا تارك فيكم ثقلين: أولهما كتاب الله فيه الهدى والنور. فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به".

فحث على كتاب الله ورغب فيه ثم قال:

"وأهل بيتي. أذكِّركم الله في أهل بيتي. أذكِّركم الله في أهل بيتي. أذكِّركم الله في أهل بيتي".

فَقَالَ لَهُ حُصَيْنٌ: وَمَنْ أَهْلُ بَيْتِهِ؟ يَا زَيْدُ أَلَيْسَ نِسَاؤُهُ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ؟ قَالَ: نِسَاؤُهُ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ، وَلَكِنْ أَهْلُ بَيْتِهِ مَنْ حُرِمَ الصَّدَقَةَ بَعْدَهُ، قَالَ: وَمَنْ هُمْ؟ قَالَ: هُمْ آلُ عَلِيٍّ وَآلُ عَقِيلٍ، وَآلُ جَعْفَرٍ، وَآلُ عَبَّاسٍ قَالَ: كُلُّ هَؤُلَاءِ حُرِمَ الصَّدَقَةَ؟

قَالَ: نَعَمْ. (مسلم، فضائل الصحابة، ٣٦)

سلمان منا أهل البيت

هناك أيضاً من هم من أهل البيت معنوياً. كان سلمان الفارسي ﵁، يقدم في كل أحواله صورة جميلة جداً عن شخصية المسلم، فكان كل من المهاجرين والأنصار يتنافسون على حسبانه عليه

قائلين: «سلمان منا». فما كان من رسول الله ﷺ، إلا ان أكرمه قائلاً: **"سلمان منا، أهل البيت"** (الحاكم، جـ٣، ص ٦٩١، ٦٥٤١؛ ابن هشام، جـ٣، ص ٢٤١).

هذا يعني أن الشرط الأهم للانتماء إلى أهل البيت هو التقوى. فإلى جانب الانتماء إلى أهل البيت، بالمعنى الظاهري، هناك أيضاً الانتماء إلى أهل البيت معنوياً وروحياً. وهذه هي المرتبة الأشرف بالنسبة للقلوب المؤمنة.

في هذا الإطار لدينا مثال جميل جداً في معاذ بن جبل رضي الله عنه، الذي عرف بين الصحابة بفضيلته وتقواه:

لما بعثه رسول الله ﷺ إلى اليمن خرج معه رسول الله ﷺ يوصيه ومعاذ راكب ورسول الله ﷺ يمشى تحت راحلته فلما فرغ قال:

"يا معاذ انك عسى ان لا تلقاني بعد عامي هذا أو لعلك ان تمر بمسجدي هذا أو قبرى"

فبكى معاذ جشعا لفراق رسول الله ﷺ ثم التفت فأقبل بوجهه نحو المدينة فقال:

"إن أولى الناس بي المتقون من كانوا وحيث كانوا".[1]

ثمة مثال آخر وهو أسامة بن زيد رضي الله عنه. وفي يوم من الأيام قصد علي والعباس رضي الله عنهما، رسولَ الله ﷺ ذات يوم، وسألاه عمن يحب أكثر من أهله، فأجاب قائلاً:

١ أحمد، جـ٥، ص ٢٣٥/ ٢٢١٠٥؛ الهيثمي، مجمع الزوائد، بيروت ١٩٨٨، جـ٩، ص ٢٢.



"فاطمة بنت محمد"

فقالا له: «ما جئناك نسألك عن أهلك» فأجابهما الرسول قائلاً:

"أحب أهلي إليّ من قد أنعم الله عليه وأنعمت عليه، أسامة بن زيد" (الترمذي، المناقب، ٣٨١٩\٤٠)

سيدنا محمد فخر الكائنات الذي قال:

"وإنما أوليائي المتقون" (أبو داوود، الفتن، ٤٢٤٢\١)

أوضح الرسول ﷺ إذن أن الشرط الأهم للتقرب منه هو التقوى. والتقوى أيضاً هو السبب الأهم لمكانة المؤمن عند الله تعالى.

ويبين المحدّث الكبير حكيم الترمذي أن المقربين من الله تعالى هم في ذكر دائم لله، ما يجعلهم من أهل البيت بصورة معنوية، موضحاً أنها ليست قرابة نسب بل . قرابة قلب وروح. يقول الحكيم الترمذي:

«بعث رسول الله ﷺ لإقامة ذكر الله وليبوّأ له مستقراً، وهو الذكر الخالص الصافي. فكل من آوى إلى ذلك المثوى فهم آله»

(الحكيم الترمذي، كتاب ختم الأولياء، ص ٣٤٥-٣٤٦)

هذا يعني أنه لكي نكون قريبين من سيدنا محمدﷺ، كما يقضي الحديث الشريف: **"المرأ مع من أحب"** (البخاري، الأدب، ٩٦)،

ليكون ضمن دائرة صحابته وأهل بيته، يجب على قلوبنا أن تمتلئ بمخافة الله ومحبته، قبل كل شيء، أي أن تكون قلوبنا مع الله ورسوله. وتتجلى هذه الحالة، بأوضح ما يكون، في عبادتنا وسلوكنا.



تربية أهل البيت

كان رسول الله ﷺ، يُرغِّبُ لأفراد عائلته الذين يغمرهم بمحبته ورأفته، أن يعيشوا حياة تقوى من شأنها أن تكون مثالاً للبشرية. فكان يحثُّ أهل بيته العزيزين جداً على قلبه، على التقوى العميقة والزهد والتواضع والبساطة واللطف والإخلاص الدائم، الذين من شأنهم أن يمنحهم حياة العزة في الدنيا والآخرة حتى كان حثه في المباحات احياناً لخوفه عليهم ان تميل قلوبهم الى الدنيا. فكان يقول عليه الصلاة والسلام: **"لا عيشَ إلاّ عيشُ الآخرة"** (البخاري، الرقاق، ١)

كان سيدنا فخر الكائنات يكنُّ محبةً خاصة لابنته فاطمة رضي الله عنها. ليس هناك من ابنة تحب أباها بقدر محبة أمنا فاطمة لسيدنا الرسول، وليس هناك من أبٍ يحبُّ ابنته، بقدر ما أحبَّ سيدنا الرسول ابنته فاطمة. لهذا السبب، نحن على قناعة بأن وجود اسم فاطمة في كل أسرة، هو وسيلة رحمة وبَرَكَة تُقَرِّبُنا من سيدنا محمد ﷺ.

قال عليه الصلاة والسلام:

"فاطمة قطعةٌ مني، من أحزنها كأنه أحزنني، ومن فرَّحَها كأنه فرَّحني"[١] مُبَشِّراً بذلك بأنها أكثر سيدات الجنة فضيلةً[٢].

لكنه، من جهة ثانية، كان يُذَكِّرُ فاطمة في كل فرصة، بألا تعتمد على كونها ابنة رسول الله، فتغفل عن حسابها في الآخرة:

---

١ مسلم، فضائل الصحابة، ص ٩٣-٩٦

٢ أحمد، جـ١، ص ٢٩٣

"يا فاطمة! أنقذي نفسك من النار. فإني لا أملك لكم من الله شيئاً. غير أن لكم رحما سأبلها ببلالها" (مسلم، الإيمان، ٣٤٨)

"يا فاطمة بنت رسول الله! سليني بما شئت. لا أغني عنك من الله شيئاً" (مسلم، الإيمان، ٣٥١)[١]

وعلى الرغم من أَنَّ فاطمةَ هيَ أكثر مَنْ أحبَّها الرسول ﷺ من بين أفراد أسرته الكريمة، فقد أراد لها رسول الله ﷺ، أن تتمتع بالحد الأدنى من نِعَم الدنيا، في حال من القناعة، وأن تستخدم ما يفيض عن ذلك في الإنفاق على ذوي الحاجة. فكان لا يترك لابنته أي مجال لبروز أدنى تعلق بنعم الدنيا في قلبها، موجهاً كريمته المحبوبة دائماً إلى الله والآخرة.

رأى سيدنا محمد ﷺ، ذات يوم، عَقداً عند ابنته فاطمة. ولم تتأخر تلك السيدة الرقيقة والحساسة في ملاحظة استياء أبيها، فذهبت من فورها وباعت العقد، وبرغم حاجتها استغنت عن ثمنه فأنفقته على شراء عبد وإعتاقه. سُرَّ سيدنا محمد عليه السلام، من سلوك ابنته المعبر عن الشفقة والرحمة والإيثار، أيَّما سرور. (النسائي، الزينة، ٣٩)

كانت فاطمة رضي الله عنها، سيدةً نحيفة وهزيلة، وكانت الأعمال المنزلية ترهقها كثيراً. فكانت تشعل الموقد وتعمل على طهي الطعام. في بعض الأحيان، كانت الشرارات المتطايرة من النار عند نفخها

١ انظر أيضاً: البخاري، تفسير، ٢\١٢٦؛ الترمذي، تفسير، ٢\١٢٧.

عليها، تحرق ثيابها. وكان الغبار يغطيها بسبب كنسها للبيت. وكان يحدث أن تتقرح يداها من تدوير حجر الرحى، ويجرح ظهرها من حمل الماء.

حدث أنهم جاؤوا رسول الله ببعض أسرى الحرب، فطلبت فاطمة من أبيها أن يعطيها واحداً منهم لمساعدتها في أعمال البيت. فما كان من الرسول ﷺ، إلا أن وجَّهَ ابنته الأحب إلى قلبه، إلى السعادة الأبدية، قال ﷺ:

"اتَّقِي اللَّهَ يَا فَاطِمَةُ، وَأَدِّي فَرِيضَةَ رَبِّكِ، وَاعْمَلِي عَمَلَ أَهْلِكِ، فَإِذَا أَخَذْتِ مَضْجَعَكِ فَسَبِّحِي ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، وَاحْمَدِي ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، وَكَبِّرِي أَرْبَعًا وَثَلَاثِينَ، فَتِلْكَ مِائَةٌ، فَهِيَ خَيْرٌ لَكِ مِنْ خَادِمٍ"

فقالت فاطمة رضي الله عنها :

«رَضِيتُ عَنِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَعَنْ رَسُولِهِ ﷺ»

لقد استغنى الرسول ﷺ، عن منح ابنته العزيزة على قلبه، خادماً.

(أبو داوود، الخراج، ١٩-٢٠\٢٩٨٨)

وفي رواية أخرى، يقال إن سيدنا، ﷺ، قال أيضاً:

"لا أعطيكما وأدع أهل الصفة تطوى بطونهم لا أجد ما أنفق عليهم ولكني أبيعهم وأنفق عليهم أثمانهم" (أحمد، جـ١، ١٠٦/ ٨٣٨)

لقد ربى سيدنا محمد ﷺ، ابنته في شروط حياة بهذا التواضع. إنها أُمُّنَا فاطمة التي ستكون أماً لأهل البيت والسلسلة الذهبية

من الأولياء الصالحين كالشيخ عبد القادر الجيلاني وبهاء الدين النقشبندي وأحمد الرفاعي وغيرهم الكثير من الأولياء والأصفياء والأبرار والمقربين، وقدوةً صالحة لنساء أمة الإسلام.

وهنا مثال آخر على التربية المعنوية التي منحها سيدنا فخر الكائنات لأفراد عائلته، مهيِّئاً إياهم للحياة الأبدية:

من سورة الأحزاب:

﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا. وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ (الأحزاب، ٣٢-٣٣)

حين نزلت هذه الآيات، واظب رسول الله ﷺ، طوال ستة أشهر، على المرور على باب بيت فاطمة، في طريقه إلى صلاة الصبح، فكان ينادي قائلاً:

" الصَّلَاةَ يَا أَهْلَ الْبَيْتِ ﴿...إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ (الأحزاب،٣٣)" (الترمذي، تفسير، ٣٢٠٦\٣٣)

كذلك كان الرسول ﷺ، يطرق الباب، في بعض الليالي، على علي وفاطمة رضي الله عنهما، لإيقاظهما على صلاة التهجُّد - واحد من أهم وجوه رأس مال السعادة في الحياة - خشية استغراقهما في النوم بفعل التعب.

يقول أنس بن مالك رضي الله عنه:

«لم أر من هو أكثر رأفةً من رسول الله ﷺ، بأفراد أسرته».

هذا الكلام يعني، في الوقت نفسه، أنه ما من أحد ربى أهل بيته كما فعل سيدنا الرسول عليه السلام. نعم، لقد كان الرسول، عليه الصلاة والسلام، يدفع أهل بيته إلى حياة التقوى الكاملة ويحثهم على أن يكونوا قدوةً للآخرين.

إنما بفضل هذا أصبح أهل البيت الذين تلقوا تربية الرسول بصورة مباشرة، سادة وسيدات بالنسبة للآخرين، تماماً كما كان الرسول ﷺ، الذي تلقى تربية الله بصورة مباشرة، سيداً لجميع الأنبياء والمرسلين.

بالفعل، لقد تحلّقَ أهل البيت بالمحبة حول رسول الله الذي أرسل رحمةً للعالمين، وتحلوا بحاله. مثل نسمة صباح هبت على حديقة يزينها الورد والقرنفل والأزهار الجميلة، فحملت رائحتها

الطيبة حيثما وصلت، حمل أهل البيت الذين نَشَؤُا على تربية رسول الله المعنوية، روحانياته إلى الأجيال التالية، بإخلاص ووفاء كبيرين.

وكمثل إشعال عدد غير محدود من الشموع من لهيب شمعةٍ واحدة، أصبحوا قناديل فيض وروحانية تحافظ على نور رسول الله متوهجاً على مدى الأجيال والعصور. بحيث أن من حظوا بالاستنارة بضوء أحد تلك القناديل، تذوقوا لذة التواصل مع المنبع الأول لذلك النور، سيدنا الرسول ﷺ.

ويشكل إمام أهل البيت جعفر الصادق، بؤرة فيض جميع سلاسل المتصوفة المنحدرين عن علي بن أبي طالب وأبي بكر الصديق رضي الله عنهما. كذلك فقد كان الإمام الأعظم أبو حنيفة رضي الله عنه، الابن المعنوي لجعفر الصادق وتلميذه الأكثر نجابة. وقد عبَّرَ الإمام الأعظم عن منبع الفيض الذي شكله جعفر الصادق بالنسبة له، فقال عن الزمن الذي أمضاه برفقته: «لولا السنتان لهلك النعمان» (الامام الألوسي، صب العذاب على من سبَّ الأصحاب، ص ١٥٧؛ محمد أبو زهرة، الامام الصادق، ص ٣٧-٣٩، ٢٥٤)

أهل البيت إذن يمثلون ذروة استثنائية في نقل حال سيدنا، صلى الله عليه وسلم، وأوصافه وأخلاقه، عبر العصور والأجيال.



محبة أهل البيت

قال تعالى في كتابه العزيز:

﴿... **إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا**﴾ (الأحزاب، ٣٣) معلناً بذلك عن تزكيته لأهل البيت وتبرئته لهم. أي أن الله يمتدح أهل البيت بالذات.

وكان رسول الله ﷺ، يحب أفراد عائلته أيضاً من أعماق قلبه، ويريد لأمته أن يحبوهم أيضاً. قال ﷺ:

"أحبوا الله لما يغذوكم من نعمه وأحبوني بحب الله وأحبوا أهل بيتي لحبي" (الترمذي، مناقب، ٣٧٨٩\٣١)

أبو بكر الصديق ، الذي أفنى ذاته في رسول الله، هو قدوةٌ في احترام أهل البيت ومحبتهم. فكان يقول:

«ارْقُبُوا مُحَمَّدًا ﷺ فِي أَهْلِ بَيْتِهِ» «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَقَرَابَةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَحَبُّ إِلَيَّ أَنْ أَصِلَ مِنْ قَرَابَتِي» (البخاري، أصحاب النبي، ١٢)

إن محبة أهل البيت واجب من الأهمية بحيث أن الله تعالى أرادنا أن ندعو من أجلهم في الصلاة، بعبارة «**وآل محمد**» في دعاء «صلِّ وبارك» الذي يتلو «التحيات».

لا شك أن الدعاء الذي نؤديه في الصلاة من أجل آل محمد كخاتمة للتشهُّد، يشير إلى سمو مقامهم. فلا تحظى أي عائلة أخرى بإجلال واحترام مماثل.



الإمام الشافعي الذي قال رداً على اتهامات بعض المغرضين وأهل الغفلة بالقول: «إذا كانت محبة آل محمد من الرافضية، فليشهد الإنسُ والجِنُّ على أنني رافضي» عبّر عن مشاعره نحو أهل البيت بالقول:

«يا أهل بيت رسول الله، إن محبتكم فريضةٌ أنزلها الله في كتابه العزيز. يكفيكم فخراً أن من لا يصلي عليكم لا تقبل صلاته» (محمد پارسا، فصل الخطاب، ص ٥٢٢)

الجريمة التي هزت السماوات

(كربلاء، العاشر من شهر محرم)

الجريمة التي ارتكبت بقتل الحسين رضي الله عنه، الحفيد المحبوب لسيدنا الرسول ﷺ، الذي كان يضمه بشوق إلى صدره ويقبِّله ويلاعبه ويركبه على ظهره المبارك حتى وهو يصلي، هي واحدة من أشد المصائب مرارةً في تاريخ الإسلام. الجرح الذي فتحته هذه الجريمة الفظيعة في صدر العالم الإسلامي، ما زال ينزف. كل واحد من المشتركين في ارتكاب هذه الجريمة الوحشية، تعرَّض لغضب الله تعالى على حدة.

لقد تلقى المسلمون مقتل سيدنا الحسين بتلك الخسة، بكراهية بلغت اعتياد المسلمين على استخدام اسم حاكم ذلك الزمان يزيد كوسيلة للإهانة. لأن قلوب كل المسلمين، بصرف النظر عن



مذاهبهم، تبكي أمام تلك الجريمة النكراء. من هذا المنظور، فلا يوجد أي سبب للخصومة بين السُّنَّة والشيعة. أما افتعال خصومة من هذا النوع فلا يعدو كونه تحريضاً من سيئي النوايا. وبالتالي على الطرفين ألا ينظرا اليوم بخصومة أحدهما إلى الآخر. يتوجب اليوم التمسك بمبدأ﴿**إنما المؤمنون أخوة**﴾ (الحجرات، ١٠)

لذلك فإن مكافأة المنازعات المفتعلة التي من شأنها ضرب وحدة أمة محمد ﷺ، والدخول في صراعات مماثلة، هي أولاً مما يجرح الأرواح العزيزة لتلك السلسلة المباركة.

إن ضروب التعصب غير المبررة بخاصة، كانت مؤذية طوال التاريخ. لأن أقل احتكاك من هذا النوع إنما يصب الماء في طاحونة أعداء الإسلام الذين يريدون تفتيت أمة محمد عليه السلام.

أفضل ما يخلق بنا، بهذا الصدد، هو التصرف بتيقظ بفراسة الإيمان، والنأي بأنفسنا عن ضروب الغيبة والمجادلات التي لا جدوى منها. إلى جانب القرآن الكريم والسنة الشريفة، نملك عنصراً مشتركاً لا يهتز، من شأنه أن يعيننا على النجاح في ذلك، ألا وهو محبة أهل البيت. هذه المحبة التي أمرنا بها سيدنا الرسول ﷺ بالذات، هي مما يتوجب على كل مسلم التحلي بها.

إنما لهذا السبب حافظ أجدادنا العثمانيون على احترام أهل البيت، ولم يكتفوا بذلك، بل أتوا أفعالاً جميلة من شأنها أن تشكل

قدوةً للأمة في كيفية محبتهم واحترامهم. فقد اعتبروا خدمة أهل البيت واجباً رفيعاً، فطوَّروا مؤسسةً رسمية باسم «نقابة الأشراف» وظيفتها الحفاظ على كرامة أهل البيت وعزَّتهم.

وبوصفنا أحفاد أولئك الأجداد المباركين، وكي نكون جديرين بسيدنا الرسول ﷺ، علينا أن نحيي قلوبنا بالقرآن الكريم ومحبة أهل البيت، الأمانتين الكبيرتين اللتين تركهما لنا، عليه الصلاة والسلام.

علينا أن نتخذ منه قدوة لنا في الأخلاق الجميلة والمعاملات. ولكي نحقق ذلك، علينا، قبل كل شيء، أن نقايس حالنا دائماً بحال سيدنا الرسول وآله وأصحابه.

يا ربِّ.. أكرم على قلوبنا بنصيب من روحانيات سيدنا الرسول وأهل بيته وصحابته المقربين وأصحاب الحق ممن ساروا في أعقابهم.آمـين..





دساتير الحياة من الخلفاء الراشدين - ١

سيدنا أبو بكر رضي الله عنه

(٦٣٢- ٦٣٤ م)



عاش أبو بكر الصديقُ رضي الله عنه حياته في العشق الإلهي واحترق بنار المحبة منكراً لذاته. وَوَجد حلاوةً ولذّةَ الحياة فقط مع رسول الله ﷺ وهكذا فكلما تحدث مع الرسول الكريم أو التقى به دخل حالة من الوجد والذهول، وبدل أن تهدأ نفسه في حضرة رسول الله ﷺ، كان شوقه ومحبته إليه يزدادان تأججاً.




دساتير الحياة من الخلفاء الراشدين - ١

سيدنا أبو بكر رضي الله عنه

(٦٣٢- ٦٣٤ م)

إن عصر السعادة (عصر الرسول ﷺ والصحابة الكرام) هو بلا جدال، العصر الأبرز في التاريخ الإنساني، من حيث الفضيلة والعدالة والغيرية والأخلاق الرفيعة، لأن ذاك العصر المبارك هو العصر الذي عاش فيه محمد ﷺ، سبب خلق كل العوالم. إنه العصر الذي أخذ شكله من روحه وفيض نوره. هذا العصر هو عصر معرفة الله ورسوله معرفةً اليقين، في مناخ من التأمل العميق.

هذا العصر المبارك رفع المجتمع إلى قمة الفضيلة والتحضر، بعدما أخرجه من ظلمات الجاهلية، فبلغ به معرفة الله، أي معرفته قلباً. إن أفراد هذا المجتمع هم الصحابة الكرام الذين يطلق عليهم "الأصدقاء المباركون لرسول الله المخلصون له من جماع قلوبهم في كل الأمور"

إنهم الصحابة الكرام الذين فهموا كلام رسول الله ﷺ، وسلوكه ومواقفه، على أجمل صورة، ونقلوا إلينا منه آثاراً نورانية.



الخلفاء الراشدون

ومن بين الصحابة الكرام يبرز الخلفاء الراشدون، أي الخلفاء الأربعة الكبار، وهم الذين كوّنوا شخصياتهم بقرب رسول الله من رقته وحساسيته المرهفة. لأن هؤلاء قد تعلقوا بالله ورسوله تعلق عشقٍ وهوى، وكمثل قطرة الماء من البحر، تحلّوا بأخلاق الرسول الرفيعة ومسلكه. وبهذه الطريقة فقد تحوّل عالمهم الداخلي إلى مكان تتجلى فيه محبة رسول الله والعشق الإلهي، بل إلى قصر جليل لكنز معرفة الله.

ونقول أيضاً إن كلامهم وأفعالهم المملوءة بالعبر أصبحت منظومة حِكَم وأسرار باتت قدوةً للأمة وكنز نصائح ولا أجمل. قال رسول الله ﷺ عن مكانة عهد الخلفاء الراشدين:

"خِلَافَةُ النُّبُوَّةِ ثَلَاثُونَ سَنَةً..."[1]

مشيراً بذلك إلى أن الإدارة ستعمل من بعده بصورة صحيحة أحياناً، وستتعرض إلى الوهن أحياناً.

سيدنا أبو بكر رضي الله عنه

إن السنوات الأولى من هذه الصفحة هي الزمن الذي استمر فيه الاستقرار والانسجام اللذين تميّز بهما عصر السعادة، ويعود

١ انظر: أبو داود، السنة، ٨/ ٤٦٤٦؛ احمد، جـ٥، ٢٢٠-٢٢١

الفضل في ذلك، بالدرجة الأولى، إلى أبي بكر الصديقﷺ، ببصيرته وأهليته. أول المختارين للخلافة هو أبو بكر الصديق الذي تفانى، في عصر السعادة، في حبه وعشقه لرسول الله، ووفائه وتسليمه أمره له. لقد عاش التعلق القلبي به بأعلى درجاته، بحيث أنه كاد يتوحد به.

لكن حالة التوحّد هذه تحققت نتيجة تضحياتٍ عديدة، ولقاء أثمان كبيرة. فأعظم الأثمان يدفعها المرء في سبيل محبته. وفي هذا العالم الفاني فإن الثمن الأعظم الذي يُدفَع هو ما يُدفَع في سبيل محبة الله ﷻ.

وقد عاش سيدنا أبو بكرﷺ، طوال عمره يبذل الجهد بحماسة لدفع ثمن صداقة الله ورسوله ومحبتهما، بغية الاستغراق في اللذة السامية لهذه الصداقة والمحبة.

وفي الهجرة المحمدية نال سيدنا أبو بكر شرف مرافقة رسول الله. في تلك الرحلة المقدسة التي شهدت كثيراً من تجليات السر الإلهي، كان بقرب سيدنا في غار ثور طيلة ثلاثة أيام، تلقى منه خلالها الكثير من الأسرار والحكم. فنال شرف تقرب ورفقة مقدسين. في ذلك المكان الذي تحوّل إلى مدرسة للأسرار الإلهية وانبساط القلوب، بلغ مرتبة "**ثاني اثنين**" وكان ثالثهما هو الله. قال نور الكائنات لصديقه العزيز:

﴿**لا تحزن إنَّ الله معنا ..**﴾ (التوبة، ٤٠)



لقد أوَّلَ الفقهاء هذه الحالة على أنها مبتدأ تعاليم الذِكر السري، والتجلي الأول لطمأنينة الأفئدة مع الله. أي أن المكان الأول المعروف في تاريخ الإسلام لنقل السر الصوفي من قلب إلى قلب، هو غار ثور.

هذا يعني أن الغاية في جميع الأسفار الجليلة إنما تتحقق بقدر محبة الله ورسوله. ذلك لأن شرط المحبة وعلامة الحب هو أن تحب ما يحبه المحبوب. هذه خطوة مهمة في طريق التوحد مع المحبوب، وحياة أبو بكر الصديق مملوءة بهذه التجلِّياتِ.

أبو بكر مني وأنا منه

عاش حياته بنار المحبة والعشق الإلهي متنكراً لذاته، وجد الحياة في حضرة المصطفى ولم يحيَ إلا في وجود رسول الله، وهكذا كلما التقى أو تحدث مع رسول اللهﷺ ، عاش حالة وجد واستغراق، فكان شوقه ومحبته للمصطفى تزداد أكثر في حضوره بدل أن تهدأ.

قال رسول اللهﷺ :

"مَا نَفَعَنِي مَالٌ قَطُّ مَا نَفَعَنِي مَالُ أَبِي بَكْرٍ"

قال فبكى أبو بكر رضي الله عنه وقال: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَلْ أَنَا وَمَالِي إِلَّا لَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ (ابن ماجة، المقدمة، ١١/ ٩٤)

وبقوله بيّن كيف ضحّى بنفسه وبكل ما يملك وعرف بأن المصطفى من الفانين. وبسبب وحدة الحال هذه قال سيدنا المصطفى عليه السلام:

"أبو بكر مني وأنا منه، أبو بكر أخي في الدنيا والآخرة"[1] ، مبيناً بقوله صيرورة الحال من قلب إلى قلب، والوحدة في عالم المعاني.

أقرب الصحابة للأسرار النبوية

لقد حوّل سيدنا أبو بكر رضي الله عنه ، عالمَ قلبه إلى مرآة لامعة تعكس قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبهذه الطريقة أصبح الأنموذج المشخص على الفناء في رسول الله صلى الله عليه وسلم . وبفضل هذا الفناء اكتسب كل ما يخص سيدنا فخر الكائنات، معنىً عميقاً في قلبه. إلى درجة أن أبا بكر رضي الله عنه، بات في مقدم الصحابة من حيث فهمه لآيات الله تعالى وكلام رسوله وتدفق أحاديثه. أحس بكثير من الإلماعات النبوية التي لم يستطع غيره فهمها، بفراسة وبصيرة فائقتين. في حجة الوداع نزلت الآية الكريمة:

﴿...الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ...﴾ (المائدة، ٣)

١ الترمذي، مناقب، ٢٠



الكل فرِحَ لإتمام الدين، إلا أن سيدنا أبا بكر غرق في حرقة نار الفراق لأنه أحس وبفطنته العالية، أن الله تعالى وقريباً جدا سيدعو الرسول العزيز إلى العالم الأبدي[1].

ومن الأمثلة التي تؤكد رقة أحاسيس سيدنا أبي بكر ﷺ:

أن رسول الله ﷺ، بسبب تقدم المرض به وعدم قدرته الذهاب إلى المسجد، عيَّنَهُ إماماً للجماعة.. وإذ تحسنت حاله ذهب إلى المسجد، وبعدما زود الجماعة ببعض النصح، قال لهم:

"ان عبداً عرضت عليه الدنيا وزينتها فاختار الآخرة فلم يفطن لها أحد من القوم الا أبو بكر فقال بأبي أنت وأمي بل نفديك بأموالنا وأنفسنا وأولادنا".

حين سمع أبو بكر ﷺ هذه الكلمات التاع قلبه أسىً وأدمعت عيناه حرَّ الدموع. كان يعلم بأن كلمات رسول الله ﷺ تدل على الوداع النبوي فكان يحسّ بذلك بشكل جلي لأنه من المقربين للأسرار النبوية. وبدأ يجهش في البكاء كألحان ناي يعزف لحن الفراق، وقال: " فداك أبي وأمي يا رسول الله، فداك آباؤنا وأمهاتنا وأجسادنا وأموالنا وأولادنا.." (أحمد، جـ٣، ٩١/ ١١٨٨١)

لم يدرك أحد من الجماعة غيره، مشاعر رسول الله ﷺ، وأنه يودع الحياة الدنيا. فلم يفهموا سبباً لبكاء أبي بكر الصديق، وراحوا

١ انظر: المالِلي محمد حمدي يازير، حق ديني قرآن ديلي،، جـ٣، ١٥٦٩



يتساءلون فيما بينهم قائلين:

"إنه لغريبٌ أن يبكي هذا الكهل عند حديث رسول الله ﷺ، عن الشخص الصالح الذي اختار لقاء ربه " (البخاري، الصلاة، ٨٠)

لم يحسوا بالحقيقة التي أحس بها أبو بكر ولم يخطر ببالهم أن يكون العبد الصالح المتروك حراً بين الله والدنيا هو رسول الله ﷺ. فقال رسول الله ﷺ مهدئاً لنفس أبي بكر ومبيناً للصحابة مدى أهميته:

"إِنَّ مِنْ أَمَنِّ النَّاسِ عَلَيَّ فِي صُحْبَتِهِ وَمَالِهِ أَبَا بَكْرٍ، وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلًا غَيْرَ رَبِّي لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ، وَلَكِنْ أُخُوَّةُ الإِسْلَامِ وَمَوَدَّتُهُ، لاَ يَبْقَيَنَّ فِي المَسْجِدِ بَابٌ إِلَّا سُدَّ إِلَّا بَابَ أَبِي بَكْرٍ" (البخاري، اصحاب النبي، ٣)

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:

"قَدْ بَلَغَنِي الَّذِي قُلْتُمْ فِي بَابِ أَبِي بَكْرٍ، وَإِنِّي أَرَى عَلَى بَابِ أَبِي بَكْرٍ نُورًا، وَأَرَى عَلَى أَبْوَابِكُمْ ظُلْمَةً" (ابن سعد، جـ٢، ٢٢٧)

وهكذا في لحظة الوداع الحزين أغلقت كل الأبواب إلا باب أبي بكر فقد ترك مفتوحاً. وبالمعنى المجازي، هذا يعني باب التقرُّب الخاص من رسول الله ﷺ، وبالإمكان فتحه بطاعة كمثل طاعة الصديق الكبرى، وتضحياته ووفائه ومحبته.



قلعة إيمان لا تتزحزح

كان سيدنا أبو بكرﷺ، من الأغنياء فعندما وجد بأن رسول الله ﷺ فانٍ، ضحى بماله وروحه وبكل كرم، وأنفق أمواله بدون خوف من الفقر، كما فعل رسول الله ﷺ، حتى إذا سأله رسول الله ﷺ:

"وما أبقيت لأهلك؟"

قال: "أبقيت لهم الله و رسوله" (ابو داوود، زكاة، ٤٠)

لم يكن رسول الله ﷺ، يأذن لأحد من الصحابة أن ينفقوا كامل أموالهم، فكان يأذنُ لِأبي بكر وحده بأن ينفق جل أمواله ، وذلك لأن الإنفاق الكامل للمال والملك، والوقوع في حالة الفقر والعوز، يجعل احتمال الندم في النفوس وارداً لإغواء الشيطان والنفس، وهذا الندم يمحو فضائل الخير والحسنات، ويسقط الأجر.

فقط سيدنا أبو بكر الصديق ﷺ كان كقلعة إيمان لا تتزحزح، فعالم روحه ترسخ بمحبة الله ورسوله. تماماّ بالشكل الذي استعرضه في حادثة المعراج بقلب ثابت لا تردد فيه، فتصديقه للرسول يوضح ما فاز به قلبه من قوة في إيمان.

قال سيدنا عليﷺ ، بصدد مديحه لهذا القلب:

"كنت كالجبل لا تحركه العواصف ولا تزيله الرواجف" (أبو نعيم، معرفة الصحابة، جـ١، ص ٢٦٤)



حقيقة إن أبا بكرﷺ، قد أنفق عدة مرات كامل ثروته في سبيل الله بكرم، وبقي في فقر وعوز. فقط رضاء الله ورسوله حولت ضيق الدنيا إلى لذة وهدوء كبيرين لروحه . وقد بشره سيدنا المصطفىﷺ، لفضائله وإخلاصه، قائلاً:

"من سره أن ينظر إلى عتيق من النار فلينظر إلى هذا - يعني أبا بكر" (علي المتقي، الحديث ٣٢٦١٧)

مناخ التواضع وإنكار الذات

كان سيدنا أبي بكرﷺ، مثالا حياً للأخلاق المحمدية حيث انسلخ من ذاته ووجدانه، فانصهر في ذات رسول اللهﷺ. كسيدنا محمد ﷺ نسي همه، واهتم بِهَمْ الأمة متخلصاً من الأنانية والذاتية، بالغاً ذرى الرأفة بأمته. وحالته هذه يجسدها حديث المصطفىﷺ:

"أرحم أمتي بأمتي أبو بكر..." (الترمذي، المناقب، ٣٢، ٣٧٩٠)

لا شك أن تعبيره هذا يدل على مدى احتقار نفسه وإذلالها، وتظهر تواضعه وإنكار ذاته، لمخافته من الله ورحمته ورأفته.

خير الأمة سيدنا أبو بكر عندما انتخب خليفة للمسلمين قام بمخاطبة الناس على المنبر فقال بكل تواضع:

"أما بعد أيها الناس فإني قد وليت عليكم ولست بخيركم إن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوّموني" (ابن سعد، جـ٣، ١٨٢-١٨٣؛ السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ٦٩، ٧١-٧٢)

لقد كان صحابياً كبيراً عاش فكرة (قبول النقد والتنبيه)، بنضج وتواضع كبيرين. وعندما بايعه الناس قال:

"والله ما كنت حريصاً على الإمارة يوماً ولا ليلة قط، ولا كنت فيها راغباً، ولا سألتها الله في سر ولا علانية، ولكني أشفقت من الفتنة، ومالي في الإمارة من راحة" (الحاكم، ٣، ٧٠، ٤٤٢٢)

حقيقة وبعد أن أصبح سيدنا أبي بكر خليفة، وقياساً بحياته الماضية عاش أكثر زهداً وتواضعاً واستغناءً. فقبل أن يصبح خليفة، كان يقضي حاجات جيرانه الأيتام ويقوم بحلب أغنامهم.

اعتقد جيرانه بأنه بعد أن صار خليفة ستزداد مشاغله وتتغير عليه ظروف الحياة بحيث لن يتمكن من حلب أغنام اليتامى، ولكن في الواقع لم يتغير شيء بحيث داوم على حلب أغنام اليتامى وقضاء حاجاتهم .. (السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ٨٠)

لم يكن أبو بكرﷺ، دنيوياً لا في خلافته ولا قبلها، وكسيدنا المصطفى ﷺ كان كل همه طريق الآخرة وإكمالها بنفس حرة من أعباء الدنيا، بنفس هادئة ومطمئنة وبشوق لملاقاة ربه.

ولهذا السبب أوصى، بزهد بالغ، ببيع قطعة أرض عائدة له لإعادة الرواتب التي اضطر إلى أخذها من الخزينة العامة مدة أيام خلافته. (ابن الأثير: الكامل، جـ٢، ٤٢٨-٤٢٩)

مثال الإعتدال و التوازن

كان في حياته توازن إلهي عظيم، لم يكن يظهر العجز والخضوع ، فكان يظهر تواضعاً دائماً، لم يكن متكبراً أو مغروراً بل كان وقوراً دائماً، وعند اللزوم كان عنيفاً وشجاعاً، يعرف العفو والتسامح لدرجة كبيرة، هادئ الطبع، وعاش سمحاً وودوداً، وفي كل الأحوال كان مثالاً كبيراً للتوازن والاعتدال..

وبكل صفاته هذه كان مدافعاً صلباً عن الإسلام، ولم يحتمل قط مخالفة أوامر رسول الله ﷺ. لم يتنازل أبداً عن أحكام الدين بأي شكل من الأشكال. بعد وفاة رسول الله ﷺ أظهر مقاومة للمرتدين عن الدين والحركات التي رفضت إيفاء الزكاة، بكل تصميم ودراية كبيرة. قال: (والله لو منعوني عناقاً كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعها) وبذلك أغلق كل الأبواب أمام تحريف الدين ومنعَ اتساع الفتنة.

إن سلوكه الشجاع والحازم، جعل حتى سيدنا عمر رضي الله عنه، رمز الجلد والعدل، يغبطه ويعجب به.[1]

خلاصة القول، عاش هذا الصحابي الجليل دائماً في مقام الصدق، إن نصائحه وتحذيراته لنا تملك من القيمة ما من شأنها أن

١ انظر: البخاري، الزكاة، ١؛ علي القاري، المرقاة، جـ١٠، ص ٣٨١-٣٨٣/ ٦٠٣٤.



تفتح أمامنا أبواب ذلك المقام الرفيع. فعاش رمزا للصدق ومثالاً لا مثيل له، وأقواله أصبحت دستوراً للمؤمنين وأسراراً تشرح قوانين الحياة، فكل مقولة منها عبارة عن حكم وخزائن للحقيقة.

أقوال وحكم من سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه

"إن الله تعالى ليس بينه وبين أحد من خلقه نسب يعطيه به خيراً ولا يصرف عنه سوءً إلا بطاعته واتباع أوامره"

"إن الله لا يرضى من عبده أقوالاً بلا أعمال"

"الكلام الكثير يجعل الإنسان ينسى كثيراً"

"فكّر جيداً بما تقول ومتى تقول ولمن تقول"

"كن عبداً للعلماء ممن يعرفون الحق"

"لا تُخفِ شيئاً عمن يهديك إلى الطريق، وإلا خدعتَ نفسك"

"أصلح نفسك حتى يعاملك الآخرون بالحسنى"

"أربعة هم من عباد الله الصالحين:

١ـ من يفرح لرؤية التائب.

٢ـ الداعي لله بأن يعفو عن المذنبين.

٣ـ من يدعو لإخوتهم في الدين في غيابهم.

٤ـ من يساعد المحتاجين ويقوم بخدمتهم.



"والضعيف فيكم قوي عندي حتى أريح عليه حقه إن شاء الله والقوي فيكم ضعيف حتى آخذ الحق منه إن شاء الله"

"لو كان الإيمان فقط في الجوامع، والمال عند البخلاء، والسلاح عند الجبناء، والسلطة عند الضعفاء، لاختلّت الأمور"

"العاقل هو صاحب التقوى، والظالم غير عاقل"

لما حضر أبا بكر الموت دعا عمر فقال له:

"اتق الله يا عمر! واعلم أن لله عملا بالنهار لا يقبله بالليل وعملا بالليل لا يقبله بالنهار وإنه لا يقبل نافلة حتى تؤدى الفريضة، وإنما ثقلت موازين من ثقلت موازينه يوم القيامة باتباعهم الحق في دار الدنيا وثقله عليهم وحق لميزان يوضع فيه الحق غد أن يكون ثقيلا، وإنما خفت موازين من خفت موازينه يوم القيامة باتباعهم الباطل في الدنيا وخفته عليهم، وحق لميزان يوضع فيه الباطل غدا أن يكون خفيفا: وإن الله تعالى ذكر أهل الجنة فذكرهم بأحسن أعمالهم وتجاوز عن سيئه، فإذا ذكرتهم قلت: إني لأخاف أن لا ألحق بهم، وإن الله تعالى ذكر أهل النار فذكرهم بأسوأ أعمالهم ورد عليهم أحسنه، فإذا ذكرتهم قلت: إني لأخاف أن أكون مع هؤلاء وذكر آية الرحمة وآية العذاب فيكون العبد راغبا راهبا ولا يتمنى على الله غير الحق ولا يقنط من رحمته ولا يلقي بيديه إلى الهلكة. فإن أنت حفظت وصيتي فلا يك غائب أحب إليك من الموت وهو آتيك، وإن أنت ضيعت وصيتي فلا يك غائب أبغض إليك من الموت ولست بمعجزه"(علي المتقي الهندي، كنز العمال، رقم: ٣٥٧١٧)

"إذا فاتك فعل الخير الحق به، وإذا بلغته اسع لتجاوزه ولفعل خير منه وأجمل"

"فعل الخير للناس تقي الإنسان من الشرور والمصائب"

"اهرب من الشهرة كي يلاحقك الشرف، وكن مستعداً للموت حتى تـُمنح الحياة"

"لا مصيبة إلاّ وهناك أكثر منها شراً"

"لا ضير في الصبر، ولا نفع في الحزن والقلق"

"الصبر نصف الإيمان، واليقين الإيمان كله"

"سلوا الله العافية، فإن أحداً لم يُعطَ، بعد اليقين، ما هو أفضل من العافية"

"بقناعتي الشكر على العافية، أكثر قبولاً من صبر على امتحان"

"الدنيا سوق للمؤمنين، الليل والنهار رأسمالهم، العمل الصالح سلعهم التجارية، الجنة ربحهم و جهنم خسارتهم"

"الصَّلاةُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ أَمْحَقُ لِلْخَطَايَا مِنَ الْمَاءِ لِلنَّارِ، وَالسَّلامُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ أَفْضَلُ مِنْ عِتْقِ الرِّقَابِ، وَحُبُّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَفْضَلُ مِنْ مُهَجِ الأَنْفُسِ، أَوْ قَالَ: ضَرْبُ السَّيْفِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ..."

(البغدادي، تاريخ بغداد، جـ٧، ص١٦١)



قال ابو بكــر الصديق ﵁ :

العــباد ثلاثة اصنــاف لكل صنف ثلاث علامات يعرفون بها صنف يعبدون الله على سبيل الخوف وصنف يعبدون الله عـلى سبيل الرجــاء وصنف يعبدون الله عـلى سبيل الحــب، فللأول ثلاث علامات:

- يستحقر نفســه
- ويستقــل حسنــاته
- ويستكثر ســـــيئاته

وللثاني ثلاث علامات:

- يكون قدوة النــاس فى جميع الحالات
- ويكون اسخى الناس كلهم باالمال زهدا فى الدنيا
- ويكون أحسن الظن باالله فى الخلق كلهم

وللثالث ثلاث علامات:

- يعطى ما يحبه ولايبالى بعد ان يرضى ربه
- يعمل بسخط نفســه ولا يحتم به بعد ان يرضى ربه
- يكون فى جميع الحالات مع سيده فى امره ونهيه (ابن حجر العسقلاني، المنبهات، ص٩٤ــ ٩٥)



كان أبو بكر رضي الله عنه إذن تلك الشخصية الإسلامية المباركة التي جمعت كل صفات أصحاب الحق وطباعهم.

ربنا اجعل من نصيبنا الإستفادة من نصائحه الحكيمة والإستنارة بطباعه الجميلة، واجعلنا في دائرة صحابته. فالخلفاء الراشدون الذين حظوا بينبوع الصداقة في الله ورسوله، وكذلك الصحابة الكرام وأصحاب الحق ومن سلك دربهم، هم جميعاً الرحالة المحظوظون، بلطف الله وكرمه، في قافلة السعادة الأبدية.

فلنختم كلامنا بدعاء قلبي لسيدنا أبي بكر رضي الله عنه قائلين آمين من قلوبنا:

"اللهم اجعل خير عمري آخره، وخير عملي خواتمه، وخير أيامي يوم لقائك" (السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ١٠٣)

"اللهم إني أسألك الذي هو خير لي في عاقبة الأمر، اللهم اجعل آخر ما تعطيني من الخير رضوانك والدرجات العلى من جنات النعيم" (السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ١٠٣) **آمـــــين....**

دساتير الحياة من الخلفاء الراشدين -٢

سيدنا عمر رضي الله عنه

(٦٣٤- ٦٤٤ م)



كان سيدنا عمر رضي الله عنه قبل أن يتشرف بالإيمان، مثالاً عادياً لإنسان الجاهلية لا يعرف الرحمة ولا الحق أو العدل، وبعد أن تشرّف بالإيمان تحول سيدنا عمر رضي الله عنه، إلى رمز للعدالة والفضيلة، وأهلاً للحكمة، غيْرِياً. مزاجه الفظ والغليظ قبل الإسلام قد ذاب وتحول إلى نَفس حنونة، رحيمة، فعيونه تدمع دائماً، لدرجة أنه يتجنبُ إيذاء نملة، يفكر بسعادة الأمة دائماً، حاملاً شعور المسؤولية.

دساتير الحياة من الخلفاء الراشدين -٢

سيدنا عمر رضي الله عنه

(٦٣٤- ٦٤٤ م)

كان سيدنا عمر رضي الله عنه الخليفة الثاني، مثالاً للشخصية الإسلامية أصبح رمزاً بسيره وبكل صدق في كل أفعاله وتصرفاته على الخطى النورانية لرسول الله صلى الله عليه وسلم.

سيدنا عمر رضي الله عنه قبل أن يتشرف بالإيمان كان مثالاً عادياً لإنسان الجاهلية، عديم الرحمة، لا يعرف الحق والعدل. وبعدما تشرّف بالإيمان، تحول إلى رمز للعدالة، وأهلاً للحكمة، غَيْري، ظريف، وقد تلاشى مزاجه الفظ والغليظ قبل الإسلام، فتحول إلى إنسان عيونه تدمع، وقلبه مملوء بالرحمة والشفقة، لدرجة أنه كان يتجنب إيذاء نملة، مفكراً بسعادة الأمة، لديه شعور عال بالمسؤولية.

لقد دأب على محاسبة نفسه دائماً، فقال:

«لو هلك حمل من الضأن ضياعاً بشاطئ الفرات، خشيت أن يسألني الله عنه»[1]

أراد أن يكون سنداً لمن لا سند له من الأيتام والمشردين، فكان يتجول الأحياء في الليالي وعلى ظهره كيس الأرزاق، ليكون إلى

١ ابن أبي شيبة، المصنف، جـ٨، ص ١٥٣



جانب الضعفاء والمحتاجين، لم تكن نفسه تهدأ إلا إذا قام بتهدئة النفوس، ومسح الدموع، وجعلهم يبتسمون، لقد بلغ درجة من الشعور بالمسؤولية، جعلته يصل الليل بالنهار طيلة خلافته منشغلاً بمشاغل الأمة. على الرغم من كل هذا لم يكن يرى بأن خدماته كافية. ولأنه اتخذ من رسول الله ﷺ قدوةً له، لم يتمكن قط من تهدئة قلبه الرازخ تحت عبء واجباته، برغم بلوغه ذرى العدالة والدراية والأهلية.

حين تعرض للإغتيال فأصيب بجراح بليغة قالوا له: «يا أمير المؤمنين لو استخلفت»

أما هو على الرغم من حرصه على العدالة والحق بدقة ورهافة متناهية، فقد قال: «أَتَحَمَّلُ أَمْرَكُمْ حَيًّا وَمَيِّتًا، لَوَدِدْتُ أَنَّ حَظِّي مِنْهَا الْكَفَافُ، لَا عَلَيَّ وَلَا لِي، فَإِنْ أَسْتَخْلِفْ فَقَدِ اسْتَخْلَفَ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنِّي يَعْنِي أَبَا بَكْرٍ وَإِنْ أَتْرُكْكُمْ فَقَدْ تَرَكَكُمْ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنِّي، رَسُولُ اللهِ ﷺ»[1]

وإذ اقترحوا عليه أن يكلف ابنه عبد الله قال:

«بحسب آل عمر أن يحاسب منهم رجل واحد»

ففي هذا الطريق كان مثاله الأقدس رسول الله ﷺ، فهذا الصحابي المبارك نسي مشكلاته غارقاً في مشاكل الأمة، وتحمُّل مسؤولياتها. ولم ينس المشقات والمتاعب، وكمن يتبع أثر إنسان على الثلج، كان يتتبع أثر المصطفى المبارك ﷺ.

١ مسلم، الإمارة، ١١



الزهد والغنى

عندما رأى سيدنا عمر ﷺ بأن الحصيرة التي نام عليها رسول الله ﷺ قد علـَّمتْ على جسده المبارك، بكى من أعماقه، فسأله فخرُ الكائنات: "**ما يبكيك "؟**"

فقال: «يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ كِسْرَى وَقَيْصَرَ فِيمَا هُمَا فِيهِ، وَأَنْتَ رَسُولُ اللهِ» فرد عليه سيدنا الرسول عليه الصلاة والسلام:

"**أَمَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ لَهُمَا الدُّنْيَا، وَلَكَ الْآخِرَةُ**" (مسلم، الطلاق، ٣١)

في خلافة سيدنا عمر ﷺ تم فتح بعض البلاد منها سوريا والعراق ومصر وفلسطين والأراضي الإيرانية دخلت بكاملها في حدود الدولة الإسلامية، الثروات البيزنطية والإيرانية الغنية، بدأت تتدفق على المدينة المنورة، فارتفع مستوى رفاه المجتمع. وعلى الرغم من بهاء الدولة، وغنى بيت المال، كان سيدنا عمر يخطب في الناس بثيابه المرقعة مستغنياً عن هذا الرفاه والغنى، فكان يعيش حياة متواضعة كي يحمي نفسه من شهرة المقام.

قال لعبده على أبواب دمشق: «اركب جملي، جاء دورك»

أراد عبده أن يعترض بالقول:

«يا خليفة المسلمين سيظن الناس أنني الخليفة»

لكن الخليفة أركبه على الجمل، فدخل الشام سائراً والعبد راكب، وهذه الحادثة تركت مثالاً شاخصاً للأُخوَّة ِ الإسلامية، صارت تتناقل لعصور متتالية.

قَبِل سيدنا عمرﷺ من مخصصات الخزانة مقدار الكفاية فعاش في ضائقة، دائناً أحياناً، وبسبب تواضعه هذا صَعُب على الذين لا يعلمون بأنه خليفة للمسلمين، أن يصدقوا أنه الخليفة.

لم يحتمل الصحابة وضع الخليفة هذا، وأرادوا زيادة مخصصاته. ولأنهم يتهيبون من طرح هذا الموضوع معه مباشرةً، فقد لجؤُا إلى أمنا حفصة سيدة المؤمنين والتي هي بنت سيدنا عمر وزوجة رسول الله ﷺ فعرضوا عليها بأن تطرح على أبيها فكرة زيادة راتبه. وفاتحت سيدتنا حفصة أباها بالموضوع. فقال لها عمرﷺ، وهو الذي كان شاهداً على رسول اللهﷺ الذي كان يتلوى جوعاً طيلة اليوم فلا يجد تمرةً واحدة يسد بها جوعه[1]: «يا ابنتي، كيف كان حال الرسول في المأكل والمشرب والملبس؟»، قالت: كان بمقدار الكفاية. فقال لها:

«كنا كثلاثةِ مسافرين على طريق واحد أنا وصديقاي (سيدنا محمد وأبو بكر) بلغ أولنا (سيدنا محمد) مقصده، ومشى الثاني في أثره فالتقى بالأول، وأنا الثالث أريد اللحاق بهما، فلو كان حملي ثقيلاً لن ألحقَ بهم! ألا تريدين، أن أكون الثالث على هذا الطريق؟»[2]

رضاء الله ﷻ كانت الغاية الأساسية لسيدنا عمرﷺ. ففي نظره كل المصائب والعوائق التي تعيق طريقه كانت تافهة، فكان يسير إلى

---

١ انظر: مسلم، الزهد، ٣٦

٢ انظر: أحمد حلمي شهبندر زادة، تاريخ الإسلام، جـ١، ص ٣٦٧.

غايته بكل عزم، متحملاً بصبر ورضاء كل المشقات والأهوال. كان يعيش حياته في سعي حثيث، على الرغم من أن رسول الله ﷺ قد بشّره بالجنة مرات...

محبته لرسول الله ﷺ

قال رسول الله ﷺ لسيدنا عمر رضي الله عنه حين جاء يستأذنه للذهاب إلى العمرة: **"لا تنسنا يا أخي من دعائك "** **"أيْ أُخيَّ أَشْرِكْنَا فِي دعائك ولا تَنْسَنَا"**[1]

تأثر سيدنا عمر كثيراً من هذا الإطراء فقال:

«فرحت لدرجة أن الدنيا لم تسعني»

فإطراء صغير من رسول الله ﷺ كان يعادل الدنيا.

ولعل هذا المثال في محبة سيدنا عمر لرسول الله ﷺ لافت للإنتباه:

عن صفية بنت بحرة، قالت: استوهب عمّي فراس رضي الله عنه من النبي ﷺ قصعة رآه يأكل فيها. فأعطاه إياها، قال: وكان عمر رضي الله عنه إذا جاءنا قال أخرجوا إليّ قصعة رسول اللّه ﷺ، فنخرجها إليه فيملؤها من ماء زمزم فيشرب منها وينضحه على وجهه. (ابن حجر، الإصابة جـ٣، ص ٢٠٢)

١ أبو داود، الوتر، ٢٣؛ الترمذي، الدعوات ١٠٩



عمر الفاروق رضي الله عنه

ومن صفات سيدنا عمر «الفاروق». قال الله سبحانه وتعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا...﴾ (الأنفال، ٢٩)

(المفهوم من الفرقان أن نقوم من خلاله التمييز بين الخير والشر)

كان سيدنا عمر شخصية ًبارزةً في مخافة الله أيضاً، ففي المسائل التي كانت تعترضه، كان يحكم، بلطف من الله عز وجل، فيصيب، فيعرف بأن الحقَ حقٌ فيتبعه، ويعرف أن الباطلَ باطلٌ فيبتعد عنه. ومن المشهود لسيدنا عمر بأن آراءه كانت متوافقة ًمع الآيات القرآنية التي نَزلت لاحقاً.

وهذا الحديث الشريف يوضح فضيلته هذه:

"إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه" (الترمذي، مناقب، ١٧ / ٣٦٨٢)

وفي حديث آخر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

"لقد كان فيما قبلكم من الأمم محدثون، فإن يك في أمتي أحد، فإنه عمر" (البخاري، أصحاب النبي، ٦)

لقد شوهد لسيدنا عمر رضي الله عنه، تجليات كثيرة من درايته، ولعل من أوضح كراماته، حادثة تثير الإنتباه إلى درجة كبيرة، ففي خطبته على المنبر قال: «يا سارية..الجبل الجبل»

في الوقت الذي قال فيه عمر رضي الله عنه، هذا الكلام الذي لا علاقة له بموضوع الخطبة، كان القائد سارية يقاتل أعداء الله عز وجل، بعيداً عن



المدينة مسافة شهر ،. فألقاه اللّٰه في سمع سارية، فانحاز بالناس إلى الجبل، وقاتلوا العدوّ من جانب واحد ففتح اللّٰه عليهم (ابن حجرالعسقلاني، الإصابة، جـ٢، ص ٣)

لقد تحوّل عمرﷺ، بلطف الله تعالى، إلى صرح للإستقامة والعدل والحق، بحيث أن إبليس الذي يدفع الناس إلى الإثم والشرور لم يكن يجد مكاناً له حيث وجد عمر ﷺ، وبالتالي ما كان للظلم أن يظهر بوجوده. لذلك قال الرسول ﷺ، لعمر:

"والذي نفسي بيده! ما لقيك الشيطان قط سالكاً فجاً إلا سلك فجاً غير فجك» (مسلم، فضائل الصحابة، ٢٢).

العمل مرآة الشخصية...

الكلمات التالية لسيدنا عمرﷺ لَنصائح رائعة، تدل على رهافة و فراسة:

«لَا تَنْظُرُوا إِلَى صَلَاةِ أَحَد، وَلَا إِلَى صِيَامه، وَلَكِن انْظُرُوا إِلَى مَنْ إِذَا حَدَّثَ صَدَقَ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ أَدَّى، وَإِذَا أَشْفَى وَرِعَ » (البيهقي، السنن الكبرى، جـ٦، ٤٧١؛ شعب، جـ٤، ٢٣٠، ٣٢٦)

إن الصلاة والصيام الصادقان ينهيان العبد عن الفحشاء والمنكر، وهذه حقيقة وبشرى إلهية، ولكن المؤمن الذي لا يقوم بإصلاح أعماله وتجميل أخلاقه، ستكون عباداته محرومة من البركة والروحانية، فلن تبعده عن الشرور والآثام.

لذلك قال عمرﷺ، محذراً أولئك الذين يهملون عملهم فلا يبذلون الجهد بدعوى أنهم من أهل التوكل: «أنتم لا تعتمدون على الله، بل على مال غيركم. فالمتوكل الحق يرمي البذرة في الأرض ثم يتوكل على الله» (ابن رجب، جامع العلوم، جـ ١، ٤٤١)

وفي أحد الأيام مدح أحدهم ،شخصاً آخر بحضور سيدنا عمر ﷺ، فسأله سيدنا عمر عما إذا كان رافقه في سفر أو جاوره في مسكن أو عمل معه في تجارة. وكان الرجل يجيب بلا على كل سؤال من هذه الأسئلة. فقال له سيدنا عمرﷺ:

«والله إنك لا تعرفه» (الغزالي، إحياء، جـ٣ ، ٣١٢)

إذن هذا ما ينبغي الإنتباه إليه في معرفة الأشخاص وتقييمهم. إن الحقيقة التي عبّر عنها أجدادنا في البيت التالي:

مرآة الشخص عمله، دعك من كلامه

تظهر مرتبة عقل الشخص في عمله

كانت إحدى أهم دساتير الحياة التي حرص عليها عمر ﷺ. بهذا المعنى فإن طباع الشخص وتصرفاته، ومستواه المعنوي، وعلاقاته مع الناس، هي التي تظهر بأن الشخص يمتلك شخصية سليمة أم لا. وبهذا المعنى قال سيدنا عمر ﷺ:

«أَحَبُّكُمْ إِلَيْنَا مَا لَمْ نَرَكُمْ: أَحْسَنُكُمْ اسْمًا، فَإِذَا رَأَيْنَاكُمْ فَأَحَبُّكُمْ إِلَيْنَا أَحْسَنُكُمْ أخلاقاً، فَإِذَا اخْتَبَرْنَاكُمْ فَأَحَبُّكُمْ إِلَيْنَا أَصْدَقُكُمْ حَدِيثًا وَأَعْظَمُكُمْ أَمَانَةً » (ابن الجوزي، مناقب، ص ٢١٩)

حياة سمَتْ بالقرآن

كانت حساسية سيدنا عمر ﵁ في اتباع القرآن عميقة جداً، فسماعه للقرآن الكريم في بيت أخته، هو الذي قاده إلى التشرف بالإسلام. بذل سيدنا عمر ﵁ جهداً كبيراً للنفوذ إلى فحوى القرآن والعيش بمقتضاه، فمنحه هذا لذة ومتعة بلا حدود.

عَن ابْنِ عُمَرَ ﵄ قَالَ: تَعَلَّمَ عُمَرُ الْبَقَرَةَ فِي اثْنَتَيْ عَشْرَةَ سَنَةً، فَلَمَّا خَتَمَهَا نَحَرَ جَزُورًا (القرطبي، الجامع، جـ ١، ٤٠)

الخلاصة أن سيدنا عمر﵁ كان بثباته في الإخلاص للقرآن والسنة، وسلوكه القدوة في الجهد والإخلاص في سبيل الله، وحياته المملوءة بالعبر والحكم، منبعاً استثنائياً للإرشاد والعرفان.

قال عبد الله بن مسعود ﵁ بعد وفاة سيدنا عمر ﵁، متأثراً بشدة:

«رحل تسعة أعشار العلماء» فقال الصحابة: «ما زال بيننا علماء»

فقال: «أنا أتحدث عن علم المعرفة»

وبصدد الإستفادة من منبع المعرفة كما ينبغي قالت سيدتنا عائشة ﵂: «زينوا مجالسكم بالصلاة على النبي ﷺ، وبذكر عمر بن الخطاب ﵁» (ابن جوزي، مناقب، ص٢٧٦)

هذا هو سيدنا عمر ﵁ الذي حصل وبكل فراسة وبصيرة على العلم والعرفان والأخلاق الحسنة من رسول الله ﷺ ، وبهذا خدم في سبيل الله ﷻ وهذه بعض أقواله التي تعكس عالم قلبه المملوء بالحكم والعبر:

أقوال وحكم من سيدنا عمر رضي الله عنه

- «ترك الذنوب، أهون من الانشغال بالتوبة»

- «أحب الناس إلىّ من رفع إلىّ عيوبي» (السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ١٣٠)

- «من كثر كلامه كثر سقطه ومن كثر سقطه قل حياؤه ومن قل حياؤه قل ورَعه ومن قل ورعه مات قلبه».

- «لولا أنه ادعاء بمعرفة الغيب، لشهدت على خمسة بأنهم من أهل الجنة:

١ــ ذو عيال كثير يجتهد في المعيشة لأجلهم حتى يطعمهم الحلال.

٢ ــ المرأة (الصالحة) التي يرضى عنها زوجها.

٣ ــ امرأة وهبت صداقها المسمى لزوجها.

٤ ــ الشخص الذي ينال رضاء الوالدين.

٥ــ التائب من الذنب بصدق»

- «كل الأصدقاء زرتهم ورأيتهم، لم أر خيراً من حفظ اللسان. رأيت كل أنواع الثياب، فلم أر خيراً من العفة والمحافظة ثوباً. رأيت كل مال، فلم أر خيراً من القناعة. رأيت كل الأعمال الصالحة، فلم أر خيراً من النصيحة. كل الأطعمة ذقتها ورأيتها، فلم أرى ألذَّ من الصبر»

- «إقامة صداقات جميلة نصف العقل. والسؤال في مكانه نصف العلم، والتدبير الجيد نصف الحياة»



- «ما الدنيا من الآخرة إلا كوثْبَةِ أرنب» (ابن أبي شيبة، المصنف، جـ٨، ص ١٥٢).
- «تارك الثرثرة يُمنَح الحكمة».
- «من غضَّ بصره، منح التواضع لقلبه».
- «من قلَّل طعامه مُنحَ لذَّةَ العبادة».
- «من كثر ضحكه قلت هيبته».
- «من مزح اُستُخِف به».
- «تارك حب الدنيا يفوز بالآخرة».
- «من ترك الانشغال بعيوب الآخرين، فاز بإصلاح عيوب نفسه».
- «من ترك الجدل في ماهية الله المتعالية، فاز بتطهره من النفاق»
- «ما صلحت عشرة بغير عشرة: العقل بغير عفة، والفضيلة بغير علم، والخلاص بغير خوف، والسلطان بغير عدل، والنبل والشرف بغير أدب، وراحةٌ بغير أمان، وثراء بغير سخاء، وفقر بغير قناعة ، وسمو بغير تواضع، وجهاد بغير توفيق»
- «مَنْ لا يَرْحَمُ لَا يُرْحَمُ، وَلَا يُغْفَرُ مَنْ لَا يَغْفِرُ، وَلَا يُعْفَ عَمَّنْ لَمْ يَعْفُ، وَلا يُوقَّ مَنْ لَا يَتَوَقَّ» (البخاري، الأدب المفرد، ص٤١٥، رقم٣٧١)
- «إنَّ الدُّعَاءَ مَوْقُوفٌ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لَا يَصْعَدُ مِنْهُ شَيْءٌ، حَتَّى تُصَلِّيَ عَلَى نَبِيِّكَ ﷺ» (الترمذي، الوتر، ٢١)
- «لَا يَبِعْ فِي سُوقِنَا إِلَّا مَنْ قَدْ تَفَقَّهَ فِي الدِّينِ» (الترمذي، الوتر،٢١/ ٤٨٧)
- «المدح في الوجه كالذبح» (ابن قتيبة، المسائل، ص١٤٥)



كتب سيدنا عمر ﵁ إلى ولاته ما يلي:

«أهم شيء عندي الصلاة، فمن واظب على أوقاتها وحفظها فقد حفظ دينه، ومن لم يفعل وفقدها، سرعان ما فقد دينه»

كتب القاضي شريح رسالة إلى سيدنا عمر﵁، سائلاً كيف يقضي، فكتب له سيدنا عمر ﵁ يقول:

«أَنْ اقْضِ بِمَا فِي كِتَابِ اللَّهِ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِي كِتَابِ اللَّهِ فَبِسُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِي كِتَابِ اللَّهِ، وَلَا فِي سُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَاقْضِ بِمَا قَضَى بِهِ الصَّالِحُونَ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِي كِتَابِ اللَّهِ، وَلَا فِي سُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَلَمْ يَقْضِ بِهِ الصَّالِحُونَ، فَإِنْ شِئْتَ فَتَقَدَّمْ، وَإِنْ شِئْتَ فَتَأَخَّرْ، وَلَا أَرَى التَّأَخُّرَ إِلَّا خَيْرًا لَكَ، وَالسَّلَامُ عَلَيْكُمْ»

(النسائي، قضاة، ٣\١١)

- «الفقر والغنى مطيتان، لا أهتم أيهما سأمتطي»
- «أعقل الناس، من يقدر تصرفات الآخرين خير تقدير»
- «أعرف من سؤال الشخص مستوى ذكائه»
- «لا تؤجل عمل اليوم إلى الغد»
- «إذا تأخر العمل مرةً، فلن يتقدم أبداً»
- «من لا يعرف الشر، وقع في مكيدته»



- «قلل الميول الدنيوية كي تعيش حراً (كي لا تقع أسير أهواء النفس)»

- «إذا لم تعش كما تؤمن، ستؤمن كما تعيش»

- «أصلحوا أنفسكم قبل أن تصلحوا الآخرين»

- «أكثر الناس جهلاً (وحمقاً) من يبيع آخرته من أجل دنيا الآخرين»

- «شرف الخير في فعله دون تأخير»

- «إن الشاهد السري للفعل السيئ هو الوجدان» من ذلك أن رسول الله ﷺ قال عندما سُئِل عن معنى البِرِّ:

"استفت نفسك البر ما اطمأن إليه القلب واطمأنت إليه النفس والإثم ما حاك في القلب وتردد في الصدر وان أفتاك الناس" (ابن حنبل، جـ ٤، ٢٢٧-٢٢٨)

- «من كتم سره سيطر على نفسه»

- «كن قوياً بلا شدة، وكن مرناً بلا ضعف»

هذا هو سيدنا عمر رضي الله عنه صاحب القلب السامي، وحياة كلها تقوى، فكان يدعو الله عز وجل قائلاً: «اللهم إني أعوذ بك أن تأخذني على غرة، أو تذرني في غفلة، أو تجعلني من الغافلين»[1]

١ ابن أبي شيبة، المصنف، جـ٧، ص ٨٢



وفي الليالي كان يضرب بالسوط قدميه ويحاسب نفسه قائلاً: «ماذا عملت اليوم يا عمر؟»[1]. هذه المحاسبة للنفس جعل منها صلاة يومية كل مساء.

لا شك أن حساسيته هذه عينة للإرشادات الجميلة التي تركها ميراثاً لنا. فعلينا أن نقوم بمحاسبة الوجدان دائماً «ماذا فعلنا اليوم من أجل الله ﷻ؟» وننقّش ذكراه وأفعاله في نفوسنا. علينا أن نتجنب، في واجباتنا المادية والمعنوية، الكسل والإهمال والغفلة والعطالة، وأن نحاسِب أنفسنا، قبل أن نُحاسَب في حضرة الله.

ربّنا هون علينا حساب الآخرة، واجعل نفوسنا منتشية في السعادة الأبدية، واجعل دنيانا مملوءة بالأعمال الصالحة والإيمان والأخلاق الحسنة، وأحسنْ على نفوسنا من صفات الفاروق، سيدنا عمر رضي الله عنه! آمين ....

١ الإحياء، جـ٤، ص ٧٢٨



دساتير الحياة من الخلفاء الراشدين -٣

سيدنا عثمان رضي الله عنه

(٦٤٤- ٦٥٦ م)



كان سيدنا عثمان رضي الله عنه، عالماً وحكيماً وكريماً وذا قلب مرهف وطبع رقيق وذا حياء وتواضع من أهل القلب ممن يحبه الناس. قال عنه رسول الله ﷺ: **"فإنه من أشبه أصحابي بي خُلقاً"** (الهيثمي، جـ٩، ٨١)

استشهد غيلةً على يد العصاة وهو يتلو القرآن. سال دم الشهيد العزيز المبارك على الآية الكريمة في المصحف الذي كان يقرأ فيه: ﴿...**فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ**﴾ (البقرة، ١٣٧)

دساتير الحياة من الخلفاء الراشدين -٣

سيدنا عثمان ﵁

(٦٤٤-٦٥٦م)

سيدنا عثمان ﵁ ثالث الخلفاء الأربع العظام، كان من الصحابة المقربين الحائزين على شرف المصاهرة والخدمة بالنفس والمال لرسول الله ﷺ. لقد قدّم خدمات جليلة وعظيمة سواء في زمن سيدنا الرسولﷺ، أو في زمن خلافة أبي بكر وعمر﵄، أو في زمن خلافته هو.

ذو النورين

عثمان ﵁ الذي تشرف بالإقتران بابنة سيدنا محمدﷺ، غرق في حزن عميق حين ماتت رقية ﵂. فسأله رسول الله عن سبب حزنه الكبير فأجاب قائلاً:

« يا رسول الله وهل أصاب أحداً ما أصابني؟ ، ماتت ابنة رسول الله ﷺ التي كانت عندي فانقطعت صلة النسب بيني وبينك»

على الرغم من دعوات أقاربه وإصرارهم عليه كي يتزوج مرة أخرى، كان سيدنا عثمان ﵁ يقول:

«كيف لي أن أجد حماً بعد رسول الله!؟ بعد زواجي من ابنته، أقترن بمن!؟»



كان يشعر بعذاب عميق بفصل عرى القرابة مع العائلة المباركة،عائلة رسول الله ﷺ.

وقف رسول الله ﷺ على حال سيدنا عثمان كان سعيداً بارتباطه ومحبته النادرة. فنكحه ابنته الصغرى(أم كلثوم) وبعد مدة من وفاةِ والدتنا أم كلثوم، قال الرسول الكريم:

"زوجوا عثمان لو كان لي ثالثة لزوجته وما زوجته الاّ بالوحي من الله"[1] تعبيراً عن محبته الخاصة لسيدنا عثمان رضي الله عنه. فقد كان سيدنا عثمان رضي الله عنه، عالماً وحكيماً وكريماً وذا قلب مرهف وطبع رقيق وذا حياء وتواضع من أهل القلب ممن يحبه الناس. قال عنه رسول الله ﷺ:

"فإنه من أشبه أصحابي بي خُلقاً" (الهيثمي، جـ٩، ٨١)

لم يُلاحظ بين الصحابة من يتقن القول الجميل أكثر من سيدنا عثمان رضي الله عنه على الرغم أنه كان قليل الحديث والكلام .

رمز الحياء

من ناحية إحساسه العظيم بالحياء كان شخصاً مثالياً، حتى الملائكة كانت تستحي منه[2].

قَالَتْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: كَانَ رَسُولُ الله ﷺ مُضْطَجعًا فِي بَيْتِي، كَاشفًا عَنْ فَخِذَيْهِ، أَوْ سَاقَيْهِ، فَاسْتَأْذَنَ أَبُو بَكْرٍ فَأَذِنَ لَهُ، وَهُوَ عَلَى تِلْكَ

١ السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ١٥٣.
٢ انظر: أحمد، جـ١، ٧١؛ جـ٦، ١٥٥

الْحَالِ، فَتَحَدَّثَ، ثُمَّ اسْتَأْذَنَ عُمَرُ، فَأَذِنَ لَهُ، وَهُوَ كَذَلِكَ، فَتَحَدَّثَ، ثُمَّ اسْتَأْذَنَ عُثْمَانُ، فَجلَسَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَسَوَّى ثِيَابَهُ - قَالَ مُحَمَّدٌ: وَلَا أَقُولُ ذَلِكَ فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ - فَدَخَلَ فَتَحَدَّثَ،

فَلَمَّا خَرَجَ قَالَتْ عَائِشَةُ: دَخَلَ أَبُو بَكْرٍ فَلَمْ تَهْتَشَّ لَهُ وَلَمْ تُبَالِهِ، ثُمَّ دَخَلَ عُمَرُ فَلَمْ تَهْتَشَّ لَهُ وَلَمْ تُبَالِهِ، ثُمَّ دَخَلَ عُثْمَانُ فَجَلَسْتَ وَسَوَّيْتَ ثِيَابَكَ فَقَالَ:

"أَلَا أَسْتَحِي مِنْ رَجُلٍ تَسْتَحِي مِنْهُ الْمَلَائِكَةُ" (مسلم، فضائل الصحابة، ٣٦)

كان سيدنا عثمان رضي الله عنه رمز الأدب والحياء، يدعو ويرشد الناس في هذا الخصوص قائلاً: «غض العين عمّا هو محرّم، أجمل ستر للشهوات»

ويُروى عَن أَنَس بْن مَالك رضي الله عنه قَالَ: دخلت عَلَى عُثْمَان رضي الله عنه وكنت رأيت فِي الطريق امْرَأَة تأملت محاسنها فَقَالَ عُثْمَان رضي الله عنه: يدخل عَلَى أحدكم وآثار الزنا ظاهرة عَلَى عينه فَقُلْتُ: أَوَحْي بَعْد رَسُول اللَّه ﷺ فقَالَ:

«لا ولكن تبصرة وبرهان وفراسة صادقة»[1]

ما أجمل ما يعبر الحديث الشريف التالي عن قيمة الأخلاق الحميدة في المرتبة الإلهية لهذا الصحابي الجليل:

١ انظر: القشيري، رسالة، بيروت ١٩٩٠، ص ٢٣٨.



قَالَ علي ﷺ: وَضَّأْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقُلْتُ: مَنْ أَوَّلُ مَنْ يُدْعَى إِلَى الْحِسَابِ يوم القيامة؟ فقال: "أنا أقف بَيْنَ يَدَيْ رَبِّي تَعَالَى مَا شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ أَخْرُجُ وَقَدْ غَفَرَ لِي" قُلْتُ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: "أَبُو بَكْرٍ يَقِفُ كَمَا وَقَفْتُ مَرَّتَيْنِ وَيَخْرُجُ وَقَدْ غَفَرَ اللَّهُ لَهُ" قُلْتُ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: "عُمَرُ يَقِفُ كَمَا يَقِفُ أَبُو بَكْرٍ مَرَّتَيْنِ وَيَخْرُجُ وَقَدْ غَفَرَ اللَّهُ لَهُ" قُلْتُ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: "ثُمَّ أَنْتَ يَا عَلِيُّ" قُلْتُ: فَأَيْنَ عُثْمَانُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: "عُثْمَانُ رَجُلٌ ذُو حَيَاءٍ سَأَلْتُ رَبِّي ﷻ أَنْ لا يُوقِفَهُ لِلْحِسَابِ فَشَفَّعَنِي فِيهِ" تَجْوِيزُ التَّوْضِيَةِ وَبَيَانُ أَنَّ مَنْ هُوَ أَعْلَى مَرْتَبَةً يَكُونُ وُقُوفُهُ لِلْحِسَابِ أَخَفَّ وَفِي السِّيَاقِ مَا يُشْعِرُ بِتَقْدِيمِ عُثْمَانَ عَلَى عَلِيٍّ ﷺ" (محمد الرافعي القزويني، التدوين في أخبار قزوين، ١١٤١١)

المكان الذي لا يُرحب فيه برسول الله، لا أكون فيه!

ومن هذا المنطلق لم يبخل سيدنا عثمان ﷺ بأية تضحية وكان رهن إشارته ومحباً له أكثر من روحه. في صلح الحديبية كان سفير رسول الله إلى مكة، ليخبر المشركين بنيتهم في العمرة وثمّ العودة، أما المشركون فقد أذنوا له بالطواف حول الكعبة وحده، فكان الرد

العظيم التالي من سيدنا عثمان ﷛، برهاناً جديداً على مدى إخلاصه لرسول الله ﷺ: «ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله ﷺ» (أحمد، جـ٤، ٣٢٤-٣٢٥)

عندما انتشرت الشائعات بين المسلمين في الحديبية بمقتل سيدنا عثمان ﷛، حصل رسول الله ﷺ على بيعة من صحابته في قتال المشركين إن لزم الأمر، ثم وضع يده فوق الأخرى، وقال معبراً عن مدى اعتماده وحبه لسيدنا عثمان:

"هَذِهِ يَدُ عُثْمَانَ - فَضَرَبَ بِهَا عَلَى يَدِهِ، فَقَالَ - هَذِهِ لِعُثْمَانَ"

(البخاري، أصحاب النبي، ٧)

وفي هذه الأثناء أرسل المشركون وفداً لعقد اتفاق، ومن بعده عاد سيدنا عثمان ﷛سالماً.

شمس السخاء

سيدنا عثمان ﷛، رمز الإخلاص السامي، كان أيضاً شخصية في ذروة السخاء. بحيث أنه كان يقول: «سلطان الغنى هو الشكر، أما الشكر فهو الإنفاق بسخاء» فيجسد المثل في ذاته.

لأجل ذلك حرّر المئات من العبيد في سبيل الله، ودفع آخرين ليحذو حذوه.[1]

---

١ انظر: عثمان ذو النورين، محمود سامي رمضان أوغلو، ص ١٦٣.



تبرّع سيدنا عثمان ﵁ في غزوة تبوك بثلاثمائة ناقة مع كامل تجهيزاتها لجيش المسلمين. بالإضافة لألف دينار.

قال رسول الله ﷺ عنه بإطراء مبشراً:

"مَا عَلَى عُثْمَانَ مَا عَمِلَ بَعْدَ هَذِهِ"[1] (لإنفاقه بسخاء)

وفي هجرة سيدنا عثمان ﵁ إلى المدينة، رأى المسلمين في عوز إلى الماء. كل آبار المدينة كانت مالحة، عدا بئر رومة ذي المياه الحلوة، العائد ملكيته لرجل يهودي. وكان هذا اليهودي يعيش على بيع ماء بئره، قال النبي ﷺ:

"من يشتري بئر رومة، فيكون دلوه فيها كدلاء المسلمين"

فأراد سيدنا عثمان ﵁ شراء هذا البئر فوراً، لكن اليهودي رفض البيع، وبعد مدة وافق اليهودي على بيع نصف حصته كي يستخدمه المسلمون، وبعدها اشترى كامل البئر ووقفه وتخلص أهل المدينة من شحِّ المياه.

وبحسب الرواية ما يدل على فضيلة سيدنا عثمان ﵁ العظيمة، أنه كان يصطفّ بين حشود المسلمين منتظراً نصيبه من ماء البئر الذي اشتراه ثم وقفه. وتقول الرواية أيضاً: نزلت الآية الكريمة بتلك التضحيات التي لا مثيل لها:

﴿يا أيتها النفس المطمئنة. ارجعي إلى ربكِ. راضيةً مرضية. فادخلي في عبادي وادخلي جنتي﴾ (الفجر، ٢٧- ٣٠)

١ انظر: الترمذي، المناقب، ١٨/ ٣٧٠٠؛ أحمد، جـ٥، ٦٣.



مع انتشار الإسلام كثر توافد الناس إلى المدينة، وضاق المسجد النبوي بهم فقاموا بنصب الخيام حوله. فقال رسول الله ﷺ:

"مَنْ وَسَّعَ مَسْجِدَنَا هَذَا بَنَى اللَّهُ لَهُ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ"

فقال سيدنا عثمان رضي الله عنه: «يا رسول الله! فداك مالي وملكي، أتكفَّل بتوسيع المسجد» وعلى أثره نزلت الآية الكريمة:

﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ (التوبة، ١٨) (ابو نعيم، فضائل الخلفاء الراشدين، ص ٩٠)



حين أراد سيدنا علي رضي الله عنه، أن يتزوج من سيدتنا فاطمة، أرسل درعه إلى السوق لبيعه من أجل تغطية مصاريف الزواج، وعندما رأى سيدنا عثمان رضي الله عنه الدرع في السوق تعرّف عليه، وعلى الفور نادى البائع فسأله: «كم يطلب صاحب الدرع ثمناً له؟»

وعندما علم أن ثمنه أربعمائة درهم، اشتراه ودفع ثمنه، ومن ثم أرفق الدرع بأربعمائة درهم أخرى وأرسلها إلى سيدنا علي رضي الله عنه، قائلاً: «هذا الدرع لا يليق إلا بك، وهذه الأربعمائة درهم ارصدها لمتطلبات الزواج، واعف عنّا»[1]

١ انظر: عثمان ذو النورين، محمود سامي رمضان أوغلو، ص ١٣٩.



هذه الحادثة المعبرة تعكس سمو الأخلاق عند شمس السخاء، في زمن خلافة أبي بكر ﵁ مرّ الناس بقحطٍ في المدينة، وقتها وصلت قوافل سيدنا عثمان ﵁ المؤلفة من مائة ناقة محملة بالقمح قادمة من الشام، هرع الناس لشراء القمح، وعرضوا عليه مقابل كل درهم من القمح سبعة دراهم، لكن سيدنا عثمان قال لهم:

«كلا! هناك من يدفع أكثر سأبيع له»

انصرف الصحابة الكرام بأسىً إلى الخليفة أبي بكر﵁ شاكين أمرهم له، قال سيدنا أبو بكر﵁ وقد انتبه إلى المزحة:

«لا تُسيؤُا الظن بعثمان! .... إنه صهر رسول الله ﷺ، وصاحبه في جنة المقام، يبدو أنكم أسأتم فهمه»

بعد ذلك اتجهوا معاً إلى سيدنا عثمان ﵁.

قال له سيدنا أبو بكر:

«يا عثمان! قد حزن الصحابة الكرام على قولك»

قال سيدنا عثمان ﵁:

«أجل يا خليفة رسول الله! إنهم دفعوا سبعة دراهم لقاء درهم واحد من القمح، بينما هناك من يدفع سبعمائة درهم لقاء درهم واحد، ونحن أعطيناه له»

بعدها وزّع حمولة المائة ناقة على فقراء المدينة في سبيل الله، وأُضحي الجمال المائة قرباناً. قَبَّلَ أبو بكر جبين سيدنا عثمان وقال فرحاً: «أحسست منذ البداية أن الصحابة لم يفهموا مغزى كلامك»[1]

---

١ انظر: عثمان ذو النورين، محمود سامي رمضان أوغلو، ص ١٤٠.

عاشق القرآن

ومما لاشكّ فيه بأن أساس سمو الأخلاق عند سيدنا عثمان رضي الله عنه يكمن في فوزه بما ناله من سنة رسول الله ﷺ والقرآن الذي أُنزل عليه، حقيقة أن سيدنا عثمان كان عاشقاً للقرآن.

«أحببت من الدنيا ثلاثاً: إطعام الجائعين، وكساء العراة، وقراءة القرآن»

لقد جُمع القرآن في عهد أبي بكر رضي الله عنه، أما في عهد خلافة عثمان رضي الله عنه فقد شكّل هيئة من الصحابة المؤهلين لتنظيم القرآن حسب ترتيب السور ونسخه بدقة تامة. وأرسل هذه النسخ إلى المراكز الهامة (في الدولة الإسلامية) في السنة الثلاثين للهجرة. وبذلك قطع دابر الاختلافات التي يمكن أن تظهر حول نصوص القرآن.

سيدنا عثمان رضي الله عنه، جعل من تقبيل المصحف في الصباح عادةً له، وقال في ذلك:

«ما أحب أن يأتي علي يوم ولا ليلة إلا أنظر في كتاب الله، يعني القراءة في المصحف» (علي المتقي، الكنز، جـ٢، ٣١٦، ٤١١٠)

من كثرة تلاوة القرآن: «أَنَّهُ كَانَ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ فِي رَكْعَةٍ يُوتِرُ بِهَا»

(الترمذي، القراءات، ١١، ٢٩٤٦)

كان كثير من الصحابة يقرؤون في المصحف ويستحبون أن لا يخرج يوم إلا وقد نظروا فيه، وخرق عثمان مصحفين من كثرة درسه فيهما (الكتاني، التراتيب الإدارية، ٢، ١٩٧)



الزهد والتواضع

هكذا كانت التعاليم الحياتية الاستثنائية للصحابة المباركين والتي جعلت منهم نجوماً في الفضاءات المعنوية. وبالرغم من إمكاناتهم الكبيرة كانوا يعيشون حياة متواضعة وراضية تيمناً برسول اللهﷺ.

كان سيدنا عثمان رضي الله عنه، يرتدي رداءً نظيفاً بسيطاً مصنوعاً من قماش خشن ورخيص وينام في المسجد على التراب عند الظهيرة وعندً الاستيقاظ كانت آثار الحصاة على جسده.

يكتفي بالخل وزيت الزيتون في بيته بينما يطعم الناس ألذّ الأطعمة وأثمنها ويتجنب إزعاج خدمه وقت راحتهم جالباً ماء الوضوء بنفسه، وهو الذي أمضى نهاره بالصيام وليلته بالصلاة.

وجاء في رواية لأبي الفرات تعبر عن حساسية سيدنا عثمان وخصوصيته وحرصه على حقوق العباد،كان لعثمان عبد فقال له:

«إني كنت عركت أذنك فاقتص مني»

فأخذ الخادم بأذنه ثم قال له عثمان: اشدد، يا حبذا قصاص في الدنيا لا قصاص في الآخرة» (محب الدين الطبري، الرياض النضرة في مناقب العشرة، جـ٣، ص ٤٥)

الشهيد المظلوم

توسعت الفتوحات الميمونة في عهد خلافة سيدنا عثمان رضي الله عنه، نصير الحق والتواضع، حيث تم فَتْحُ كل من قبرص وطرابلس وطبرستان وأرمينيا، ونظمت الرحلات إلى اسطنبول ورودُس

وجزر مالطا وانتعشت التجارة البحرية، ودُمّرَ الأسطول البيزنطي في البحر المتوسط، وبنتيجة هذه التطورات فاضت خزينة الدولة واغتنى الناس. مع ازدياد الرفاه ظهرت نوايا التملك والطمع في نفوس بعض المنافقين من أمثال عبد الله بن سبأ اليهودي الأصل الذين أشعلوا نار الفتنة في شتى أنحاء العالم الإسلامي.

وحُوصر سيدنا عثمان ﵁ من قبل العصاة القادمين من مختلف البلدان، في داره الكائنة بالمدينة لدرجة أنه حُرِمَ من شرب مياه البئر الذي اشتراه من ماله الخاص وقدمه للمؤمنين لينتفعوا بها.

قال أمير المؤمنين عثمان ﵁ موضحاً حالة اليأس الذي يعيشه من عصيان تابعيه، والظروف الصعبة التي يمرُّ بها مشيراً بفراسته إلى الفتن التي ستقع من بعده: «مثلي كمثل أب لولدٍ عاق أمضى حياته بعدم طاعة أبيه، وحين مات حمل عبء همه أيضاً»

قال سيدنا عثمان ﵁ للصحابة الذين عرضوا عليه استعمال القوة تجاه العصاة لإخماد نار الفتنة رافضاً سفك الدماء:

«أختار الموت (مظلوماً) من غير سفك دماء، على الموت مع سفك الدماء»

على أية حال لم يستطع إيصال نصيحة للعصاة السفهاء برغم تكرار محاولاته. واستشهد مظلوماً وهو قابع في بيته صائماً يتعبّد بتلاوة القرآن على يد العصاة وهو في الثمانين من عمره، وتلوَّنت الآية الكريمة من المصحف الذي كان يَقْرؤُهُ بقطرات من دمه

الزكي: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (البقرة، ١٣٧)

قال رسول الله ﷺ:

"وَالله ليشفعن عُثْمَان فِي سبعين ألفا من أمتِي من أهل الْكَبَائِر مِمَّن قد استوجبوا النَّار حَتَّى يدخلهم الله الْجنَّة" (الديلمي، الفردوس، ٤/ ٣٦٠)

أخيراً نلقي نظرة على الأقوال الحكيمة والعميقة لسيدنا عثمان، الصحابي الجليل على أمل الأخذ من مناخ قلبه الحسي المملوء بنور المعرفة والحكمة والعلم:

حِكم من سيدنا عثمان رضي الله عنه

-«أعقل الناس من يحاسب نفسه ويديرها جيداً، ويعمل لآخرته، ويستفيد من نور الله من أجل ظلام القبر»

-«فليخشَ العبد من الحشر كفيفاً بعدما كان مبصراً! من يفهم الحكمة تكفيه دلالة المعنى، الأصمُّ معنوياً لن يسمع الحق أبداً»

-«علامات المتقين (الصالحين) خمس:

١- من يساند العاملين في سبيل الدين.

٢- من يحفظ لسانه ويصلح نفسه.

٣- من يميّز أضرار ومخاطر النفس عند انشغاله بالملذات الدنيوية (التي تنسيه محبة الله) واعتبار كل نصيب من الدين غنيمة مهما قَلْ.

٤- العيش برضا، والخشية من الحرام .

٥- من يشعر بهلاكه وحده وخلاص الجميع»



أن المؤمن في ستة أنواع من الخوف

أحدها من قبل الله تعالى أن يأخذ منه الإيمان

قال الله تعالى:

﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ (آل عمران، ٨)

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران، ١٠٢)

والثاني من قبل الحفظة أن يكتبوا عليه ما يفتضح به يوم القيامة

قال الله تعالى:

﴿يومئذٍ تحدِّث أخبارها. بأن ربك أوحى لها﴾ (الزلزلة، ٤-٥)

والثالث من قبل الشيطان أن يبطل عمله.

قال الله تعالى:

﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ. إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ (الحجر، ٣٩-٤٠)

والرابع من قبل ملك الموت أن يأخذه في غـفـلـة بغـتة.

قال الله تعالى: **﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾** (الحجر، ٩٩)

وجاء في الحديث الشريف:

"يُبْعَثُ كُلُّ عَبْدٍ عَلَى مَا مَاتَ عَلَيْهِ" (مسلم، الجنة، ٨٣/ ٢٨٧٨)

لأجل ذلك عاش سيدنا عثمان مع القرآن، واستشهد وهو يقرأ القرآن وانتقل إلى رحمته تعالى

والخامس من قبل الدنيا أن يغتر بها وتـشغله عن الآخرة.

قال الله تعالى:

﴿... وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ (آل عمران، ١٨٥)

والسادس من قبل الأهل والعيال أن يشتغل بهم فيشغلونه عن ذكر الله تعالي.(ابن حجر العسقلاني، المنبهات، ص. ٥٢)

قال الله تعالى:

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (الأنفال، ٢٨)

فِي آخِرِ خُطْبَةٍ خَطَبَهَا عُثْمَانُ فِي جَمَاعَةٍ قالَ: إِنَّ اللَّهَ إِنَّمَا أَعْطَاكُمُ الدُّنْيَا لِتَطْلُبُوا بِهَا الْآخِرَةَ، وَلَمْ يُعْطِكُمُوهَا لِتَرْكَنُوا إِلَيْهَا، إِنَّ الدُّنْيَا تَفْنَى، وَالْآخِرَةَ تَبْقَى، لَا تَبْطَرَنَّكُمُ الْفَانِيَةُ، وَلَا تُشْغِلَنَّكُمْ عَنِ الْبَاقِيَةِ، آثِرُوا مَا يَبْقَى عَلَى مَا يَفْنَى، فَإِنَّ الدُّنْيَا مُنْقَطِعَةٌ، وَإِنَّ الْمَصِيرَ إِلَى اللَّهِ ﷻ، اتَّقُوا اللَّهَ، وَالْزَمُوا جَمَاعَتَكُمْ، وَلَا تَصِيرُوا أَحْزَابًا، (**وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا**) (آل عمران، ١٠٣) إِلَى آخِرِ الْآيَتَيْنِ" (ابن أبي الدنيا، الزهد، ص ١٠٣)

-«أحسنوا العمل، قبل أن يحلّ الأجل»

اللهمّ اجعل هذه الكلمات الحكيمة من نصيبنا وأن نعمل بمقتضاها وأن ننال شفاعة الصحابي الجليل. واجعلنا من أصحابه وجيرانه في الآخرة، وزيّن قلوبنا بمحبته. آمين ..



دساتير الحياة من الخلفاء الراشدين -٤

سيدنا علي رضي الله عنه

(٦٥٦- ٦٦١ م)



ولد إمام أهل البيت السامي في الكعبة، وتوفي في الكوفة، نال الشهادة عند صلاة الفجر، رمز الحكمة والفضائل، واحدة من نصائحه الحكيمة التي لا تحصى هي: ما دامت أربعة، سيبقى الدين والدنيا، والسلامة والطمأنينة:

١ ــ الأغنياء الذين لا يبخلون من الأموال التي تعطى لهم.

٢ــ العلماء الذين يعملون بما تعلموه وعرفوه.

٣ ــ الجاهلون الذين لا يتكبرون بما لا يعرفون.

٤ــ الفقراء طالما لم يبيعوا آخرتهم من أجل دنياهم.




سيدنا علي ﵁

(٦٥٦– ٦٦١ م)

ولد سيدنا علي ابن أبي طالب ﵁، داخل الكعبة المعظمة، بمكَّة المكرَّمة[١]، دخل في كنف رسول الله ﷺ، بسبب ازدحام عائلته، منذ سن الخامسة. عاش وترعرع في تربية رسول الله، لذلك لم يتأثر بالعادات الجاهلية السيئة، فكان أول من آمن من الأولاد.

كان رسول الله ﷺ بعد التبليغ، يرافق سيدنا أبا بكر أو سيدنا عليّاً إلى السوق التي يقام كل عام بجوار الكعبة، فتجتمع القبائل من أجل الحج، للتبليغ بالإسلام. وفي الأوقات التي لا يرافق سيدنا علي الرسول ﷺ كان يذهب إلى الكعبة لخلوها من الناس، فيقوم بتكسير بعض الأصنام ثم يعود.

قَدَّم سيدنا علي ﵁ خدمات هامة أثناء الهجرة لرسول الله ﷺ، فعند محاصرة المشركين لبيت رسول الله ﷺ لبس رداءه الأخضر، وتمدد في فراشه بدون خوف، كي يخطئ المشركون هدف الإغتيال.

١ الحاكم، المستدرك، جـ٣، ٥٥٠/ ٦٠٤٤.



بعد أن أوصل سيدنا علي ﵁ الودائع المتروكة لرسول الله ﷺ لأصحابها في مكة، اتجه بشوق نحو المدينة في رحلة شاقة، فكان يمشي ليلاً ويرتاح نهاراً. التقى برسول الله ﷺ في المدينة وقدماه تدميان لكثرة المشي.

في السنة الثانية للهجرة، نال شرف الزواج من أمنا فاطمة بأمر من الله ﷻ، وسعادة أن يكون من أهل البيت وصهراً لرسول الله ﷺ.

كان الحادي عشر من بين الذوات في الطرق العلية. وبهذه الوسيلة حصل على نسب سيدنا فخر الكائنات.

وصل أسلوب معيشة أمنا المحترمة فاطمة مع زوجها بالزهد والتَّضحية، إلى آفاق أسطورية، ولهذا الأمر أصبح أهل البيت من الأسماء الخالدة في التصوف الإسلامي.

سيد الكرماء

لم يكن سيدنا علي ﵁، نتيجة تربيته النبوية ميالاً للدنيا، لذلك كانت حياته مسرحاً لا مثيل لها لتجليات الغيرية والأخوة الإسلامية.

قال سيدنا رسول الله ﷺ:

"...إِذَا أَرَادَ اللهُ بِعَبْدٍ خَيْرًا اسْتَعْمَلَهُ عَلَى قَضَاءِ حَوَائِجِ النَّاسِ"

(البيهقي، شعب الايمان، جـ١٠، ١١٦/ ٧٢٥٣)

قال سيدنا علي ﵁، في غمرة حماسته لنيله هذه البشرى النبوية:

«ما أدري أي النعمتين أعظم علي منة من ربي رجل بذل مصاص[1] وجهه إلي فرآني موضعا لحاجته وأجرى الله قضاءها أو يسره على يدي ولأن أقضي لامرئ مسلم حاجة أحب إلي من ملء الأرض ذهبا وفضة» (علي المتقي، كنز العمال، جـ٦، ١٧٠٤٩\٥٩٨)

ومن الأمثلة العملية على أخلاقه السامية:

وقف سائل على أمير المؤمنين علي فقال للحسن أو الحسين: اذهب إلى أمك فقل لها: تركت عندك ستة دراهم فهات منها درهما، فذهب ثم رجع ف

قال: قالت إنما تركت ستة دراهم للدقيق،

فقال علي: لا يصدق إيمان عبد حتى يكون بما في يد الله أوثق منه بما في يده قل لها ابعثي بالستة دراهم فبعثت بها إليه فدفعها إلى السائل قال: فما حل حبوته حتى مر به رجل معه جمل يبيعه،

فقال عليٌّ: بكم الجمل قال بمائة وأربعين درهما، فقال علي اعقله على أنا نؤخرك بثمنه شيئا فعقله الرجل ومضى، ثم أقبل رجل فقال: لمن هذا البعير؟ فقال علي: لي فقال: أتبيعه؟ قال: نعم، قال: بكم؟ قال بمائتي درهم، قال: قد ابتعته، قال: فأخذ البعير وأعطاه

١ مصاص: خالص كل شيء



المائتين فأعطى الرجل الذي أراد أن يؤخره مائة وأربعين درهما وجاء بستين درهما إلى فاطمة فقالت: ماهذا؟ قال: هذا ما وعدنا الله على لسان نبيه ﷺ **{مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا}**" (علي المتقي، كنز العمال،جـ٦، ص ٥٧٣، ١٦٩٧٦)

وفي رواية منسوبة إلى ابن عباس رضي الله عنهما، يقول عطاء رحمه الله:

«أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، أجر نفسه يسقي نخلًا بشيء من شعير ليله حتى أصبح، فلما أصبح وقبض الشعير، طحن ثلثه، فجعلوا منه شيئًا ليأكلوه، يقال له: الحريرة، فلما تم إنضاجه أتى مسكين، فأخرجوا إليه الطعام، ثم عمل الثلث الثاني، فلما تم انضاجه أتى يتيم، فسأل فأطعموه، ثم عمل الثالث الباقي، فلما تم إنضاجه أتى أسير من المشركين، فسأل فأطعموه، وطووا يومهم ذلك.. وهذا قول الحسن، وقتادة: أن الاسير كان من أهل الشرك.

وفي رواية أخرى، أعطيا طعام إفطارهما، لثلاثة أيام على التوالي، لفقير ويتيم وأسير، وأفطرا على الماء. فنزلت الآية الكريمة في ذلك:

﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا. إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا. إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا. فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ (الإنسان، ٨ ــ ١١) (الواحدي، أسباب النزول، ص ٤٧٠؛ الزمخشري، الكشاف، جـ٦، ١٩١ ــ ١٩٢؛ الرازي، جـ٣٠، ٢٤٤)

فقال عنه رسول الله ﷺ لأخلاقه الحسنة، سلطان الأسخياء أي (سلطان الكرماء). فتميز سيدنا علي رضي الله عنه من بين الصحابة الكرام بالتضحية والإيثار، والعلم الواسع والعرفان وصواب القرارات والشجاعة والشهامة.

أسد الله الغالب

شارك سيدنا علي رضي الله عنه في كل الغزوات، وأبدى شجاعة كبيرة، إلّا أنّه لم يشارك في غزوة تبوك فقط، فرسول الله ﷺ تركه خلفه، من أجل حماية أهل البيت والمسلمين في المدينة. فشجاعته وجسارته كانتا معروفتين، فقال هذا الصحابي باندفاع الشباب:

«يا رسول الله، تخلفني في النساء والصبيان؟»

فقال رسول الله ﷺ ملاطفاً ومسلياً:

"أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون، من موسى" (البخاري، أصحاب النبي، ٩)

بحسب العادات العربية في الحروب، أبرز فارس في الجيش يدعو فارساً شجاعاً ذا نسب من الخصوم للمبارزة في ميدان المعركة، فكان رسول الله ﷺ، يخرج سيدنا علياً للميدان في أغلب الأحيان، فكان بلطف الله عز وجل يتغلب على كل الفرسان، ولنيله هذه

العناية الإلهية، لقبه رسول الله ﷺ بـ (أسد الله الغالب) للتعبير عن هذه الصفة.

ومما لا شك فيه، بأن القيم المعنوية العليا لتربيته النبوية، أساسُ شجاعته الظاهرة، قال رسول الله ﷺ:

"لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرَعَةِ إِنَّمَا الشَّدِيدُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ" (مسلم، البر، ١٠٧/ ٢٦٠٩)

فهذا الحديث مثال حي على معايشة سيدنا علي رضي الله عنه هذا الفارس الشجاع الأصيل لهذا الشعور، وتعلقه بغلبة جهاد النفس.

سيدنا علي رضي الله عنه في إحدى الغزوات، حيث كان على وشك قتل أحد الأعداء، وهو جاثم فوقه، فتصرف الشخص تصرفاً بشعاً، وهو في قبضة الموت، فبصق على وجهه المبارك، سيدنا علي أسد الله الغالب توقف فجأة، ورمى سيفه، ولم يقتله، خشية من غلبة النفس في تلك اللحظة.

وبهذه الحالة، أصبح الكافر الذي كاد يُقتل حراً، في غموض كبير، سأل سيدَنا علياً رضي الله عنه ناسياً القتال والحرب لماذا لم تقتلني؟ فقال له عاشق الحق:

«جهادنا نوعان: الأول الجهاد في سبيل الله ضد الكفار من أمثالك، والثاني جهاد النفس بكبح رغباتها. فقتالي ضدك في سبيل



الله، ولكني لو قتلتك لأنك بصقت في وجهي، أكون قتلتك تسكيناً لغضب نفسي، فتتغلب نفسي عليّ، وبتملك النفس قمت بالجهاد الأكبر، لأن المؤمن الذي يكون أسير رغبات نفسه، أكثر خسارة من كافر مثلك»[1]

أمام هذا الرد الحكيم من قلب شجاع، رُفعتْ ستار الغفلة عن عين الكافر، فتنور قلبه بنور الإيمان، وبعدها شارك مع سيدنا علي في عدة غزوات، بدون الخلط بين غضب الحق وغضب النفس، بالقتال مع النفس ثم مع الأعداء بشجاعة.

كان سيدنا علي رضي الله عنه يقدم شجاعة لا مثيل لها في ميدان المعارك، إلى جانب عيشه لحياة عبادة استثنائية بخشوع وهدوء. في إحدى المعارك أصيب بسهم في قدمه، ومن شدة الألم لم يستطيعوا إخراج السهم، فقال سيدنا علي رضي الله عنه:

«أخرجوه وأنا أقوم للصلاة»

ففعلوا ما أمر به، فأخرجوا السهم بسهولة وبدون عناء، فسأل سيدنا علي بعدما الإنتهاء من الصلاة وقراءته السلام:

«ماذا فعلتم؟» فقال الموجودون: «أخرجناه»

---

١ انظر: محمود سامي رمضان أوغلو، عليّ المرتضى، ص ١١٧.



فقد كان جسد سيدنا علي ﵁، يتجرد من الدنيا وكأنه غائب عن الوعي، بسعادة معنوية عند الخشوع للصلاة .

من الكعبة إلى مسجد الكوفة

ساعد سيدنا علي ﵁ بقدر المستطاع، الخلفاء بعد رحيل رسول الله ﷺ إلى الآخرة، فحضر مجالس الشورى، وساعدهم في إصدار القرارات الصائبة، بآرائه المفعمة بالبصيرة والفراسة.

قَـبِـلَ الخلافة، نتيجة إصرار الصحابة، بعد استشهاد سيدنا عثمان ﵁ في المدينة على يد العصاة. ومن الإجراءات الأولى لسيدنا علي ﵁ هي نقل مركز الحكم من المدينة المنورة إلى الكوفة، فقلوب كل المؤمنين تتأذى على المدينة المباركة المملوءة بالذكريات العزيزة لرسول الله ﷺ، حيث أصبحت مسرحاً للخلافات السياسية للمحافظة عليها كمدينة للعلم والمعرفة بشكل تليق بمكانتها، ولكنه قضى بقية عمره في الكوفة، محارباً الفوضى والفتنة والفساد.

مرة قيل له: «يا أمير المؤمنين ائذن لنا لنقوم بحراستك»

فقال: «حارسُ المرء أجَلهُ»

انقطع عن الطعام والشراب، قبل استشهاده بأيام، وكأنه أحس بقرب المنية. وعندما سُئل عن سبب الإنقطاع قال:

«أريد أن يتحقق الأمر الإلهي وأنا جائع»

ولم يمضِ وقت طويل حتى استشهِد على يد ابن الملجم في مسجد الكوفة عند صلاة الفجر، في **الثالثة والستين** من عمره.

قال جندب بن عبد الله لسيدنا علي وجروحه بالغة:

«يا أمير المؤمنين لا أرانا الله فراقك، فإذا تم، سنبايع ابنك الحسن»

فأظهر سيدنا علي ﵁، فراسة سيدنا عمر ﵁ بهذا الخصوص قائلاً:

«لا آمركم في هذا الخصوص ولا أنهاكم، أنتم أدرى بأموركم»

بعدها أوصى الحسن والحسين هذه الوصايا:

«أوصيكم بالتقوى وعدم الرغبة بالدنيا. لا تبكوا من أجل خسارتكم، قولوا الحق دائماً، واعملوا بكتاب الله. كونوا خصماً للظالم وسنداً للمظلوم ولا تهتموا بلومة لائم بخصوص أحكام الدين»[1]

ثم لفظ علي﵁، كلمة التوحيد، وختم بنفسه الأخير كتاب الحياة. وبشرف فتح عينيه في الكعبة الشريفة، وأغمضها في مسجد. وبكلمة الشهادة بلغ مقامه السامي.

١ انظر: محمود سامي رمضان أوغلو، عليّ المرتضى، ص ٧٤.



إن كلام معاوية في آخر أيامه تعبر بشكل واضح عن ندمه الكبير على معاركه مع سيدنا علي رضي الله عنه:

قال موسى بْنُ عُقْبَةَ: لَمَّا نَزَلَ بِمُعَاوِيَةَ الْمَوْتَ قَالَ: «يَا لَيْتَنِي كُنْتُ رَجُلًا مِنْ قُرَيْشٍ بِذِي طُوًى، وَلَمْ أَلِ مِنْ هَذَا الْأَمْرِ شَيْئًا» (ابن الأثير، البداية، جـ ٨، ١٣٥)

يقول سيدنا جنيد البغدادي –قدس سره–:

«لو فرغ سيدنا علي عن القتال قليلاً، لعلـّمنا من علوم القرآن الكثير الكثير، فهو سيد العارفين. قال كلاماً لم يقله أحد ولن يقول مثله أحد»[1]

وإليكم بعض أقوال سيدنا علي رضي الله عنه والتي كل واحدة منها تعتبر دستوراً للحياة، وكنزاً للحكمة والعلم والمعرفة.

حِكَم من سيدنا علي رضي الله عنه

–«أريحوا أرواحكم بكلمات حكيمة تدعو للتأمل. فكما أنَّ الأبدان تتعب وتضعف، الأرواح تتعب كذلك»

–«لا خير في صلاة بلا خشوع، وصيام لا يتجنب آفات اللسان والتفاهات، وقراءة القرآن الكريم بلا تفكير،وعلمٍ لم ينقـّش في

١ انظر: محمود سامي رمضان أوغلو، عليّ المرتضى، ص ١١٣.

القلب، ومالٍ لم ينفق، وأخوةٍ لم تظهر وقت الضيق، ونعمةٍ بلا شكر، ودعاءٍ غير مخلص من القلب»

-«الناس أعداء ما يجهلون»

-«الجنة مكان الكرماء، وجهنم مكان الجاهلين»

-«**لن يسأل الجاهل لماذا لم تتعلم، قبل سؤال العالم لماذا لم يُعَلِّم؟**»

-«من يرغب في الجنة يسعى إلى الخير، ومن يخشى النار يكبح شهواته، والمؤمن بالموت يُفني اللذات والشهوات النفسية، والعارف بالدنيا تتجلى له المصائب».

-«العِرض صداقُ الجمال»

-«المروءة والأدب في الدين ثمار العقل السليم» .

-«من كان كامل العقل قلَّ كلامه».

-«العارفُ بأن الكلام من الأعمال قلَّ كلامه، فلا يقول إلا ما يعنيه».

-«السكوت حتى السؤال، خير من الكلام حتى الإسكات».

-«لا ترد على قبيح الكلام، لأن صاحب هذا الكلام لديه كلمات قبيحة كثيرة، فيكون رده بها».

-«لا تمزح مع الجاهل، فيجرح قلبك، لسلاطة لسانه».

-«تحدث إلى الناس بالشكل الذي يفهمونه».

-«ظلُّ الأعوج يكون أعوجَ مثله».

-«كن حسن الظن مع العباد، فتتخلص من متاعب كثيرة».

-«من لا يملك بين يديه كتاب الله وسنة رسوله وسنن الأولياء، لا يملك شيئاً، فحفظ السر من كتاب الله، وإدارة الناس بالأخلاق الحسنة من سنة رسول الله، وتحمل أذى الناس من سنن الأولياء»

-«إذا أردت أن تصاحب إنساناً اجعلْ بينك وبينه مسافة، فإذا تعامل معك بشكل عادي فاستمر، وإلا فاترك».

-«من انشغل قلبه بالعداء لا يرتجى منه صالح، فالقلب لا يجتمع فيه ضدان».

-«ابتسامة المؤمن في وجهه، وحزنه في القلب».

-«تمام النعمة الموت على الإسلام».

-«لِمَ التكبُّر يا ابن آدم؟ فأوله نطفة وآخره عذاب! فحتى رزقك لست بقادر على خلقه، وكذا الخلاص من الهلاك»

-«الدهرُ يومان، يوم لكَ (يعني يبتسم لك)، ويوم عليك (يعني ما يحزنك)، لا تتكبر عندما يكون لك، ولا تضق ذرعاً وتشكو عندما يكون عليك»

-«اليومُ يومُ العمل لا الحساب، وغداً يوم الحساب لا العمل»

-«الأنفاسُ خطواتٌ تخطو نحو الأجلِ»



-«الدين والدنيا ستظلان راسختين بسلامٍ وأمان، باستمرار أربعة أشياء:

١ــ الأغنياء، ما لم يبخلوا بأموالهم.

٢- العلماء، حتى يعملوا بعلمهم بما يعلمون.

٣- الجاهلون، ما لم يتكبروا بما لا يعلمون.

٤- الفقراء، ما لم يبيعوا آخرتهم من أجل دنياهم»

-«ما أجمل إظهار الأغنياء تواضعهم طمعاً بمكافأة الله، والأجمل من ذلك توكُّل الفقراء على الله باستغناء»

-«الحرمان خير من البقاء تحت المنة».

-«العفة زينة الفقر، والشكر زينة الغنى»

-«البخل يجمع الأخلاق السيئة عنده».

(وبمفهوم المخالفة، الرحمة تجلب الكرم، والكرم يجلب التواضع، والتواضع يجلب الخدمة)

-«عندما تقع في الضيق، فتاجر مع الله بمنح الصدقات، وعندما تحصل على النعم فاشكر، لا تقلل من الشكر حتى لا تزول النعم».

-«أفضل الميراث العلم، وأفضل الحلل الأدب، وأفضل الزاد التقوى، والعبادة أفضل رأسمال، وأفضل دليل العملُ الصالح، وأفضل صديق الأخلاقُ الحسنة، وأفضل مساعد الحلم، وأفضل الغنى القناعة، وأفضل الهدوء التفكير بالموت».

-«لا تجارة كالعمل الصالح، ولا ربح كالثواب، ولا فائدة كالتوفيق من الله، ولا حسبٌ كالتواضع ولا شرف كالعلم ولا ورع كالوقوف عند الشبهة، الأخلاق الحسنة تقرِّب من الله ولا عبادة كأداء الفرائض ولا عقل بلا تدبير ولا حصيلة أكثر من الوحدة والتعاضد تبعد الناس عن التكبر»

-«الحصول على أربعة من أصعب الأعمال:

١- العفو عند الغضب.

٢- الكرم عند الحاجة.

٣- اتقاء شر النفس في الأماكن المغلقة والمعزولة.

٤- قول الحقيقة أمام من تخشى، ومن تأمل منه منفعة»

-«من يرى المصائب الصغيرة كبيرة، يبتليه الله بالمصائب»

-«المالُ مادة خام لشهوات النفس، ومفتاح الضيق الرغبات الدنيوية والنفسية، والحسد رحلة مهلكة»

-«الرغبات والآمال الدنيوية، تفقد البصيرة»

-«قيمة المرء بقيمة رغباته»

-« من كان أسير رغباته وطلباته ساءت أفعاله»

-«نصيب المرء يصله حتى لو لم يسعَ وراءه»



-«لا بدل لأبدانكم ولا قيمة لها سوى الجنة، لذلك لا تبيعوا أبدانكم إلا مقابل الجنة»

-«أصحاب الله أناسٌ يرون حقيقة الدنيا حين يرى الآخرون مظاهرها»

-«لا يكتمل إيمان العبد ما لم يثق بأصحاب الله أكثر من ثقته بما في يده»

ربنا، اجعل من نصيبنا إدراك هذه الأقوال الحكيمة بشكل لائق، والعمل بمقتضاه، وأن لا تنقص من قلوبنا محبة رسول الله ﷺ، وأصحابه الخلفاء الأربعة الكبار، واجمعنا في يوم الحشر بهم! ...

ومما لا شك فيه، فإن لقاء الصحابة في الآخرة يبدأ من الدنيا، إذا كانت نيتنا اليوم صحبتهم، إن شاء الله غداً في الآخرة ننال التقرُّب منهم.

ربنا، اجعل أخلاق الخلفاء الراشدين الحسنة من نصيبنا أجمعين، ولا تحرمنا من شفاعتهم! آمــين...



المجتمع والإداريون



إن الإداريون والشعب المدار مثل مرآة تعكس أحدهما الآخر، وعلى هذا الأساس تتشكل المجتمعات من أصغر خلية لها وهي العائلة والجماعة وصولاً إلى الأمة بالمستوى المادي والمعنوي للإداريين، مقابل ذلك يتشكل الإداريون من مكتسبات ونصيب المجتمع المادي والمعنوي. مثل حساسية كفَّتَيْ الميزان في المحافظة على التوازن.

المجتمع والإداريون

إن الله سبحانه وتعالى وهب الكائنات طرازاً اجتماعياً، ونظاماً رائعاً للحياة على غرار خصوصية نظامهم الحياتي. ربنا يريد أن يعيش الإنسان بمتانة قلب كي يُظهر عظمة التجليات الإلهية وأبهة صيرورة القدرات في الكائنات، لأنه خـُلق على أكمل وجه بجماليات مادية ومعنوية ومتطلباتها.

قال الله ﷻ في الآية الكريمة:

﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ. أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ﴾

(الرحمن، ٧ـ٨)

فربُنا خلق الإنسان مميزاً عن الكائنات الأخرى، في جبْرية العيش بشكل جماعي، ولهذا السبب كان الإنسان عبر تطوره التاريخي من مرحلة القبيلة إلى تكوين الدولة ميّالاً للعيش بشكل جماعي لا فردي. فوجود الإداريين وتحقيق التوازن شرط بينهم وبين المجتمع، كي تلقى هذه الميول الحياةَ في نظام منسجم.

وبالنظر بعين الحكمة نجد بأن الإداريين والشعب المدار مثل مرآة تعكس بعضها البعض، وعلى هذا الأساس تتشكل المجتمعات من أصغر خلية لها وهي العائلة والجماعة وصولاً إلى



الأمة بالمستوى المادي والمعنوي للإداريين، وبالمقابل يتشكل الإداريُّونَ بنصيب ومكتسبات المجتمع المادي والمعنوي.

لذا عدالة وكفاءة القادة تمنح الصلح والسلم للمجتمع، وعلى العكس عدم جدارة القادة و نقص أهليتهم تسبب إفقار المجتمع.

ومن جانب آخر نرى بأن الإداريين حصيلة المجتمع ومنه خرجوا، فالمجتمع الذي ينظم نفسه يحظى بإدارة صالحة، أما المجتمع الذي يتخلى عن المزايا الحسنة غارقاً في النزوات تتسلط عليه إدارة ذات مصالح.

فمن هذا المنطلق يتوجب على المجتمع والإداريين البحث عن التقصير في أنفسهم والعمل على إصلاحه. ولزوم المحافظة على الصلح والسلامة في الحياة الإجتماعية لا الحياة القلبية لتطبيق الأخلاق التصوفية القائل:

"اللوم على النفس، والمسامحة للغير" قال تعالى في الآية الكريمة:

﴿...إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ...﴾ (الرعد، ١١)

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (الأنفال، ٥٣)

الآيات الكريمة تبين بأن نيل المجتمع للتجليات الإلهية في الكرم والرحمة والإحسان مرتبط بأحوالهم الحسنة، وعند تركهم



لما يرضي الله من الجماليات تُرفع الرحمة والنعم عنهم، وتدبُّ الفوضى. فيكون الحال على الوجه الذي بيَّنه الحديث الشريف:

"مَا تَحْتَ الْأَرْضِ خَيْرٌ مِمَّا فَوْقَهَا" (الطبراني، المعجم الأوسط، جـ٥، ٣٣٤)

ومن هذا المنطلق، فالمجتمع الذي يرغب بإدارة صالحة من أجل العيش بأمان، عليه أن يحرص على أحواله وتصرفاته فيما إذا كانت متوافقة مع رضا الله أم لا. قال رسول الله ﷺ في حديث شريف بقصد إيقاظ المجتمع:

"كما تكونون يولى عليكم" (السيوطي، الجامع الصغير، جـ٢، ٨٢)

ولعل الحادثة التالية تعبر عن هذه الحقيقة بدلالة عميقة:

عَنْ صَعْصَعَةَ بْنِ صُوحَانَ، قَالَ: خَطَبَنَا عَلِيٌّ رضي الله عنه حِينَ ضَرَبَهُ ابْنُ مُلْجَم، فَقُلْنَا:

يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، اسْتَخْلِفْ عَلَيْنَا، فَقَالَ:

أَتْرُكُكُمْ كَمَا تَرَكْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، اسْتَخْلِفْ عَلَيْنَا، فَقَالَ:

"إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِيكُمْ خَيْرًا يُوَلِّ عَلَيْكُمْ خِيَارَكُمْ"

قَالَ عَلِيٌّ:

«فَعَلِمَ اللَّهُ فِينَا خَيْرًا فَوَلَّى عَلَيْنَا أَبَا بَكْرٍ رضي الله عنه» (الحاكم، جـ٣، ١٥٦/٤٦٩٨)



وفي حادثة أخرى، أثناء خلافة سيدنا علي ﷺ حين ظهرت الخلافات والفتن، سُئل مرة:

«لماذا لم تحصل الخلافات في عهد الخلفاء السابقين، كما حصلت في عهدك» فرد مدينة العلم والمعرفة هذه الذات العظيمة بالقول:

«هم أداروا أناساً مثلي، وأنا أدير أناساً مثلكم».

معبراً بذلك أن تصرفات الإداريين تكون وليدة أقسومة واستحقاقات الناس المُدارين. ومن وجهة نظر الإداريين نجد الموضوع نفسه.

قال سيدنا عمر ﷺ في هذا الخصوص:

«الناس على سلوك ملوكهم»

«إن الناس لن يزالوا مستقيمين ما استقامت بهم أئمتهم وهداتهم» (ابن الجوزي، المناقب، ص ٢٢٣)

في الحقيقة إن عموم الناس يقلدون رؤساءهم ويقتدون بهم، ولعل هذه الأمثلة التاريخية توضح بشكل جيد محاولة المجتمعات التمثل بأحوال الإداريين المعنوية:

كان الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك من هواة الأبنية الفخمة فانصرف الناس في عهده إلى هواية الأبنية الفخمة والحديث عن العمارة في المجالس.



وسليمان بن عبد الملك كان حاكماً يهوى الطعام والشراب، فانصرف الناس إلى إسراف وقتهم في الحديث عن الطعام والشراب.

والخليفة عمر بن عبد العزيز كان متعبداً وزاهداً، فانصرف الناس إلى طرق العبادة والطاعة. فتتناقل الأسئلة التي تـملأ الأفئدة بالروحانية بين الناس» كم آية حفظت من القرآن الكريم؟ كم يوماً صمت هذا الشهر؟ كم من المساكين والمرضى واليتامى أحسنت إليهم؟[1]

في الحقيقة فإن أفعال وتصرفات الإداريين تنتقل بالعدوى إلى المجتمع عاجلاً أم آجلاً، فينعم المجتمع بمناخ عام من الخير والجمال فيما إذا كانت الإدارة خيرة، وعلى العكس فأخطاء الإدارة وعدم كفاءتها تؤدي إلى انتشار الفساد في المجتمع.

لذلك قال أجدادنا «نتانة السمكة من رأسها» وبناء عليه يتوجب على كل الإداريين توخي الحرص والحساسية ومحاسبة أنفسهم بمسؤولية رب الأسرة وقادة الجماعات إلى كبار القادة في المجتمع. جلالة الشيخ أَدَب عالي في توصيته للغازي عثمان (مؤسس الدولة العثمانية) عبر عن حساسية هذا الموضوع:

«لا تنس أن من وجد مكاناً في الأعلى ليس بأمان مثل الناس في الأسفل»

---

١ انظر: أحمد جودت باشا، قصص الأنبياء وتواريخ الخلفاء، اسطنبول ١٩٧٦، جـ١، ص ٧١٧؛ الطبري، تاريخ الأمم والملوك، القاهرة ١٩٣٩، جـ٥، ص ٢٦٦-٢٦٧.



كان سيدنا عمر ﷺ يجمع أفراد عائلته أولاً عندما يصدر قراراً بالأمر أو النهي قائلاً لهم:

كَانَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ إِذَا نَهَى النَّاسَ عَنْ شَيْءٍ دَخَلَ إِلَى أَهْلِهِ، أَوْ قَالَ: جَمَعَ، فَقَالَ:

«إِنِّي نَهَيْتُ عَنْ كَذَا وَكَذَا ، وَالنَّاسُ إِنَّمَا يَنْظُرُونَ إِلَيْكُمْ نَظَرَ الطَّيْرِ إِلَى اللَّحْمِ، فَإِنْ وَقَعْتُمْ وَقَعُوا، وَإِنْ هِبْتُمْ هَابُوا، وَإِنِّي وَاللَّهِ لا أُوتَى بِرَجُلٍ مِنْكُمْ وَقَعَ فِي شَيْءٍ مِمَّا نَهَيْتُ عَنْهُ النَّاسَ، إلا أَضْعَفْتُ لَهُ الْعُقُوبَةَ لِمَكَانِهِ مِنِّي، فَمَنْ شَاءَ فَلْيَتَقَدَّمْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَتَأَخَّرْ» (ابن الجوزي، المناقب، ٢٦٦)

إن ما يلفت النظر في الفترات التي تكون زمام السلطة في يد القائمين بوظائفهم بحساسية ودراية، يرتفع مستوى رفاه المجتمع. والسلطان العثماني سليمان القانوني يعبر عن هذا الحرص بشكل جميل في تعليماته التي أرسلها إلى الغازي بالي بك:

«كن حريصاً على العامة، فصلاح حال المجتمع قائم على صلاح القادة والولاة، فالتابعون يعكسون حال الرؤساء. هناك من يقوم الليل متعبداً والنهار صائماً، ولكن منهم من تعلق بالمال إلى درجة العبادة، فلا تكن ميالاً للأشياء الفانية لأن أكثر ما يحرّض الناس هو حب المال، فأسرف النعم التي بين يديك على عباد الله بسخاء فاتحاً يد الكرم، وابتعد عن الحسد»



كان رسول الله ﷺ يقف مع الصحابة في أوقاتهم الصعبة، ويهتم بالذات بمشاكلهم كلها، فأفعاله وتصرفاته أصبحت مثالاً للإداريين يقتدون بها، الفرسان الشجعان أمثال سيدنا علي رضي الله عنه، كانوا يقولون في أخطر أوقاتهم: «نحن نحتمي خلف رسول الله».

ونظراً لذلك يجب على القادة أن يعلموا بأنه لا فائدة من خدمات تقدم بالتّحكم عن بُعد، ويجبُ أن تكون التضحيات بالنفس من أولوياتهم دائماً.

فرسول الله ﷺ في كل أسفاره، كان يمشي في المؤخرة كي يصبح عوناً للضعفاء في الخلف، لأجل ذلك فالراعي الرحيم لا يتخلى عن نعجة سقيمة في القطيع بل يحملها ولا يتركها خلفه.

ومن جانب آخر فعلى قادة المجتمع أن يتصرفوا كموظفي الصيرفة على ملك الله، وأن لا يتكبروا بسبب مواقع وظائفهم، وأن لا ينسوا بأنهم سوف يتعرضون للمساءلة يوماً ما في المحكمة الإلهية. تماماً كما كتب الإمام مالك رسالة لأحد خلفاء زمانه مذكراً النصائح التالية:

«...وحج عمر عشرة سنين وبلغني أنه كان ما ينفق في حجة إلا اثني عشر ديناراً. وكان ينزل في ظل الشجرة ويحمل على عنقه الدرة ويدور في الأسواق يسأل عن أحوال من حضره وغاب عنه. وبلغني أنه وقت أصيب حضر أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فأثنوا

عليه، فقال المغرور من غررتموه، لو أن ما على وجه الأرض ذهبا لا افتديت به من أهوال المطلع. فعمر رحمه الله تعالى كان مسدداً موفقاً مع ما قد شهد له النبي صلى الله عليه وسلم بالجنة، ثم مع هذا خائف لما تقلد من أمور المسلمين فكيف من قد علمت..." (القاضي عياض، ترتيب المدارك، جـ. ٢، ص. ١٠٧).

وفي هذا الخصوص كانت حساسية الإيمان وحالة التواضع عند فاتح الأندلس طارق بن زياد مثالاً رائعاً:

استطاع طارق بن زياد أن يدحر جيوش الأسبان المؤلفة من مائة ألف جندي، بجيش مؤلف من خمسة آلاف جندي. وعندما وضع طارق قدمه على كنوز الملك قال في نفسه:

«يا طارق! كنت البارحة عبداً مكبلاً بالأغلال، فأصبحت قائداً بعد أن حررك الله، واليوم أنت في قصر الملك وفاتحُ الأندلس، فلا تنس أبداً أنك ستكون غداً أمام الله!».



يتوجب على الذين استلموا مواقع الإدارة وقيادة المجتمعات، أن يدركوا وظائفهم على أنها لقضاء احتياجات الشعب في نوع من الخدمة. فالأب المرحوم موسى طوبَّاش -قدس سره- عبّر عن وجوب أن يرى قادة المجتمع أنفسهم خَدماً للشعب، والابتعاد



عن التكبر والعجرفة بسبب مواقعهم، وخدمة الناس دائماً بعواطف الرأفة والرحمة والعرفان وبالأخص التواضع قائلاً:

«أهل الخدمة، عليهم أن يكونوا على الإدراك التالي: فرصة الخدمة لطف من الله، ولكن هذا اللطف لا يكون من نصيب الجميع. فهناك أناس على الرغم من قابليتهم للخدمة في كل الخصوص، إلا أنهم لا يحظون بنصيبهم لعدم مساعدة الزمان والمكان. فعلى القائمين بالخدمة أن يروها نعمة باحثين عن التواضع وأن يقدموا الشكر والعرفان للذين كانوا وسيلة لهذه الخدمة»

ففي العهود التي كان فيها الإداريون بمثل هذه الحساسية المعنوية، كانت المجتمعات في رفاه وإحياء مادي ومعنوي. لكن أحد فضائل إداريي تلك الأزمنة هي الرضوخ وبكل أدب لإرشادات العلماء والعارفين من الشعب. فقد كانوا يؤلفون حولهم هيئة استشارية جديرة.

من هذا المنظور، يجب على الإداريين أن يستشيروا بمن هم أهلٌ للشورى من أصحاب العلم والمعرفة الذين ينقلون لهم مشاكل الشعب بصورة حقيقية ويبحثون عن حلول لها، وأن لا يسمحوا للانتهازيين بالتحلق حولهم. لذلك فالأخذ بالشورى سنة من السنن الهامة.

فرسول الله ﷺ كان يستشير في كل أموره، ليكون مثالاً لنا على الرغم من نيله التأييد الإلهي.

ومن جانب آخر فعلى المجتمع أن يتصرف بالاحترام والطاعة أمام الإدارة العادلة، لضمان السلم والسلامة. ومع ذلك عليهم مراقبة الإداريين دائماً، وتنبيههم بكل لباقة وأدب للمحافظة على استقامتهم.

عَنْ حُذَيْفَةَ، قَالَ: دَخَلْتُ عَلَى عُمَرَ وَهُوَ قَاعِدٌ عَلَى جِذْعٍ فِي دَارِهِ وَهُوَ يُحَدِّثُ نَفْسَهُ فَدَنَوْتُ مِنْهُ فَقُلْتُ: مَا الَّذِي أَهَمَّكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فَقَالَ: هَكَذَا بِيَدِهِ وَأَشَارَ بِهَا قَالَ: قُلْتُ: الَّذِي يُهِمُّكَ وَاللَّهِ لَوْ رَأَيْنَا مِنْكَ أَمْرًا نُنْكِرُهُ لَقَوَّمْنَاكَ قَالَ: «اللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَوْ رَأَيْتُمْ مِنِّي أَمْرًا تُنْكِرُونَهُ لَقَوَّمْتُمُوهُ»فَقُلْتُ: اللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَوْ رَأَيْنَا مِنْكَ أَمْرًا نُنْكِرُهُ لَقَوَّمْنَاكَ قَالَ: فَفَرِحَ بِذَلِكَ فَرَحًا شَدِيدًا وَقَالَ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَ فِيكُمْ أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ مَنِ الَّذِي إِذَا رَأَى مِنِّي أَمْرًا يُنْكِرُهُ قَوَّمَنِي» (ابن أبي شيبة، المصنف، جـ. ٧، ص. ٩٩، رقم: ٣٤٤٨٨)

وقال سيدنا عمر رضي الله عنه أيضاً:

«أحبُ الناس إلىّ من رفع إلىّ عيوبي» (السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ١٣٠)

من هذا المنظور، يتوجب على الإداريين أن يصلحوا أنفسهم ويكونوا منفتحين لنقد الناس لهم وتنبيههم لأخطائهم وتقصيرهم وأن يفرحوا لذلك.



وعلى المجتمع من أجل إرضاء الله ﷻ أن يقوم بإيقاظهم بأمانة وفي هذا الخصوص عليه تقديم التضحيات وترك المنافع الشخصية جانباً. ففي خصوص المسؤولية فهي لا تقع على عاتق الإداريين فقط، وإنما على عاتق الشعب فرداً فرداً من أجل سعادة وسلامة المجتمع. إن مساندة الإداريين في جورهم وحتى في ظلمهم وعدم تنبيههم من أجل المنافع الدنيوية وإدارة المصالح الشخصية، لضَياع كبير للآخرة. فمن يمشي خلف القيادة السيئة في الدنيا يمشي خلفها في الآخرة إلى النار.

ونظراً لذلك فواجب الحذر مطلوب من الجميع لمعرفة خلف من يسيرون. قال الله تعالى في الآية الكريمة:

﴿يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ (الإسراء، ٧١)

﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ﴾

(هود، ٩٨)

ومن هذا المنطلق فتوجيه إداريّي المجتمع إلى الحق والخير، واحدة من أهم وظائف المؤمنين. في كتاب أرسله الإمام أبو يوسف للخليفة هارون الرشيد بعنوان كتاب الخراج يورد فيه الوصايا التالية:

«فَأَقِمِ الْحَقَّ فِيمَا وَلاكَ اللَّهُ وَقَلَّدَكَ وَلَوْ سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ؛ فَإِنَّ

أَسْعَدَ الرُّعَاةِ عِنْدَ الله يَوْم الْقِيَامَةِ رَاعٍ سَعِدَتْ بِهِ رَعِيَّتُهُ، وَلا تَزِغْ فَتَزِيغَ رَعِيَّتُكَ، وَإِيَّاكَ الْأَمر بِالْهَوَى وَالأَخْذَ بِالْغَضَب.

وَإِذَا نَظَرْتَ إِلَى أَمْرَيْنِ أَحَدُهُمَا لِلآخِرَةِ وَالآخَرُ لِلدُّنْيَا، فَاخْتَرْ أَمْرَ الآخِرَةِ عَلَى أَمْرِ الدُّنْيَا، فَإِنَّ الآخِرَةَ تَبْقَى وَالدُّنْيَا تَفْنَى.»[1]

الخلاصة أن تصرفات الناس وتدابيرهم، مرتبطة بتصرفات القادة وتدابيرهم. وعلى العكس طبعاً فإن تصرفات وتدبير القادة مرتبط عن قرب بسلوك وأحوال الناس. وبالنتيجة كل هذا الكلام يؤدي إلى الباب نفسه، بالتنبيه في تنظيم الأحوال والسلوك.

ففي الأولى الإداريون وفي الثانية المدَارون، وبناء عليه يتوجب على الإداريين والمدارين أن يصلحوا أنفسهم أولاً، عند رغبتهم في تغيير مكتسباتهم المادية والمعنوية نحو الأفضل.

تظهر مهارة من يقوم بمهنة الإصلاح في الأشياء التي يقوم بتصليحها، وتظهر عدم مهارته في الأشياء التي لا يصلحها. ومثل ذلك فعلى الرؤساء أن يروا أنفسهم مَسْؤلين عن الأخطاء التي تحدث حولهم، وأن يركزوا على الأخطاء والعيوب التي تهمهم.

في أيامنا وكأنه لا يوجد أحد لا يشكو من أمره، والكل تقريباً يبحث عن النقائص والعيوب في الآخرين، ولكن على الإداريين

١ أبو يوسف، كتاب الخراج، مطبعة بولاق، القاهرة ١٣٠٢، ص ٣-٤.



والـمُدارين أن يشكوا من عيوبهم أولاً، وبهذا التفكير هناك حقيقة لا شك فيها، فلكي نحصل على إداريين ممتازين ونسيّر المكتسبات المادية والمعنوية لشعبنا نحو الخير وننال اللطف الإلهي، علينا أن نقوم بإصلاح أنفسنا وإصلاح أكبر عدد ممكن من الناس في المجتمع، وكذلك عندما يشكو الإداريون من المجتمع، فعليهم محاولة إصلاح الذات ومحاسبة النفس.

إن حديث السلطان العثماني مراد الأول شهيد كوسوفو(دولة مسلمة في البلقان) صاحب الهداية لمثالٌ جميل في عرض أخلاق محاسبة النفس والبحث عن العيوب في الذات:

عندما دخل الخان مراد الأول سهول كوسوفو، هبت رياح عاتية مخلفة غباراً ملأت المكان لدرجة انعدام الرؤية، فصلى الخان مراد ركعتين وهو الذي مزج سلطان الدنيا بسلطان الآخرة، فالتجأ إلى ربه وعيونه تدمع قائلاً:

«يا ربّ! إذا كانت العاصفة بسبب خطايا عبدك العاجز مراد، فلا تعاقب الجنود الأبرياء بسببها! يا إلهي! لا تجعلني سبباً لهلاك كل هؤلاء الجنود المسلمين!..»

بعد دعاء الخان مراد هدأت العاصفة، وتكبد العدو خسارة فادحة في الحرب، وشرب الخان مراد شراب الشهادة حين كان يتجول بعد الحرب في ساحة المعركة، بخنجر جندي صربي متظاهر بالجروح.

هنا نأمل أن تتغير مكتسباتكم المعنوية إذا قمتم بالمثابرة على إصلاح الحال ومحاسبة الذات، ويتحقق النيل الموازي في حياة المجتمع.

ولكن هناك أحداث تنافي هذا التفكير العمومي عبر التاريخ البشري. مثلاً لقد أرسل الله جلّ جلاله رُسلاً مبعوثين لتغيير الحال وإصلاح المجتمع،عند تفسخ القيم بصورة عظمية.

لذلك فرسول الله ﷺ مثال واضح على رفع المجتمع الجاهلي إلى ذروة سماء الفضيلة بعد أن أخرجها من مستنقع الجهل والظلم، هذا المجتمع نصف البدائي حيث كانت البنت تدفن حية بلا رحمة، وخلص الناس من عبادة الأوثان.

فإذا كان من غير الممكن تفسير هذا اللطف الإلهي كمكسب أو ربطه بالمستوى المعنوي للمجتمع، ولكن يوجد قانون إلهي آخر يستند عليه ويتجلى من موجبات صفات الله وهو أن الله «لطيف».

ومع هذا فمن غير الممكن أن ننتظر تجليات كهذه، لأن هذه الأبواب أغلقت إلى الأبد ببعث الرسول إلى يوم القيامة، وبهذه الحالة فمهمتنا عبارة عن إصلاح الحال من أجل رفع مكتسباتنا المعنوية.

إن فرص وإمكانيات رفع المكتسبات المعنوية لا متناهية. ولكن علينا في أيامنا هذه إحياء مؤسسات تقوم بتربية الناس للقيام



برئاسة الأعمال بكفاءة، حيث قال أحد المفكرين:

«أهم فرق بين الأمة الحاكمة والأمة المحكومة، حفنة من الناس المؤهلين جيداً»

هنا فتوزيع الحق والعدالة وإيقاف الإرهاب، وإرواء العطش المعنوي للمجتمع، يتوقف على هذه الحفنة من الناس.

كل مثاليٍّ يسمو ويتشكل مرتبطاً بشخصية وصفات ممثليه. فأصحاب الشخصية الرفيعة من الناس يجمعون الكتل من حولهم. فللشخصيات الرمزية دور مهم في رفاه المجتمعات. ولهذا فإن المثابرة والعمل الدؤب على تربية هذه الحفنة من الناس من أهم وظائفنا.

إن الشاعر المرحوم نجيب فاضل في تعبيره يحثنا جميعاً في هذه النقطة على المسئولية:

«إن الشجرة التي لا تهتم ببرعمها حطب»

وكذا قال أحد أولياء الحق ﷻ معبراً عن المثابرة في هذا الخصوص:

«عليك أن تنجب بنفسك الإنسان الذي تحتاجه»

هذا يعني أنه علينا أن نربي جيلاً محباً للوطن، يخدم الشعب بكل تضحية، صاحب شعور تاريخي وإيمان ديني سليم. وعكس ذلك فالقانون الإلهي وسنته يقضيان باسترداد النعم التي أنعمها الله ﷻ. وصفحات التاريخ مملوءة بمظاهر القانون الإلهي.



وعلى هذا الإعتبار إذا أردنا أن نربي أناساً يحملون الكفاءة في قيادة المجتمع ويضحُّون بأنفسهم من أجل الأمة ويحبون الله ورسوله، علينا أولاً أن ننقش في أعماق أرواحنا محبة الله ورسوله، ونستعرض شخصية مملوءة بالفضائل مؤمنة بمحتويات القرآن والسنة. فعلى المجتمع أن يرى كيف تكون شخصية المسلم الحق.

ربنا أحسن وتفضَّلْ على كل المؤمنين الشعور بالمسئولية، القائمين على وظائف الإدارة من أدنى مستوياتها إلى أعلى مستوياتها! وأصلح حالنا بلطفك أفراداً وجماعات! وأن نحصل على المثابرات الجدية لنيل المكتسبات المادية والمعنوية،وأن نقدم خدمات جليلة للأمة المحمدية وأمتنا ووطننا في قدرنا المستقبلي، واجعل من نصيبنا تربية جيل مؤمن! آمـــين...



الحق والعدل ١



جدير بالذكر، أن الله تعالى مع المظلومين دائماً، فأمر عباده بالحق والعدالة. فالمعتقدون من الذين خرقوا الحــق والحـــــقوق والعدالة في الدنيا، بأنهم أُفلتوا من الحساب، ذات يوم سيحاسبون ورؤوسهم محنية أمام الله تعالى «فهو أحكم الحاكمين».

الحق والعدل ١

الأخلاق الإسلامية رفعت روح الإنسان إلى ذروة الفضيلة بما تحويه من جماليات وكماليات للبشرية جمعاء. بامتلاكها أساساً لا يتزحزح في جوهر الحق والعدل الاستثنائي، لأنه لا يمكن تأمين السعادة البشرية إلا بتحقيق التوازن في الحق والعدل.

إذاً ما هو الحق والعدالة؟

بتعريف عام:

التعامل مع الأشخاص والأشياء كما يستحقون، إعطاء الحكم الصحيح، التصرف بتعقّلٍ وتوازن.

كما أن إعطاء الناس أكثر مما يستحقون يعتبر اِنتهاكاً لحقوق الآخرين، فالإنقاص من حقوقهم يعتبر اغتصاباً للحق وإخلالاً بالعدل. المؤمنون الحقيقيون يحجمون عن مثل هذه الآثام، يعني على المؤمن إعطاء كل ذي حقٍ حقه.

حيث نجد أن الإسلام أمر بالعدل في كل مناحي وأوجه الحياة، ولا يمكن تحقيق الحق والعدل إلا من خلال مراعاة التوازن بينهما، يعني مفهوم العدل هو في مركز الأمر والنهي الإلهيين.

على هذا النحو يتوجب على المؤمن أن يتصرف بعدالة تجاه خالقه أولاً، ثم تجاه المخلوقات، بعدها مع نفسه.



في هذه الحالة يتوجب على المؤمن أن يتصرف بعدالة، عند الإدلاء بالشهادة، وفي الكلام والحكم بين الناس والكتابة والكيل بالميزان. إلى جانب ذلك على المؤمن إبداء الاهتمام اللازم بالعبادات والحقائق الإلهية ورعاية حقوقها. لأنه دين وواجب على العباد، وحق لله جل جلاله.

إذا عاش المؤمن حياته ضمن الشعور بمقاييس الحق والعدالة، لأن الحق والعدالة من صفات الله، إن الله تعالى يعبر بأنه بالذات الصاحب المطلق للحق والعدالة فمن أسمائه الحسنى «العدل».

هذا الاسم السامي لله تعالى، في حالة تجلٍ دائم، خصوصاً سيتجلى بكل عظمته عند الحساب الإلهي في الآخرة، قال الله في الآية الكريمة:

﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ (الأنبياء، ٤٧)

جدير بالذكر، أن الله تعالى مع المظلومين دائماً، فأمر عباده بالحق والعدالة. فالمعتقدون من الذين خرقوا الحق والحقوق والعدالة في الدنيا بأنهم أُفلتوا من الحساب ، ذات يوم سيحاسبون ورؤوسهم محنية أمام الله تعالى «فهو أحكم الحاكمين».

يمكننا القول، بأنه سيتعرض الإنسان للحساب الكبير من بين جميع المخلوقات في موضوع الحق والعدالة، ووضع على عاتق الإنسان تحمّل مسؤولية حق وحقوق جميع الكائنات كونه أشرف المخلوقات.



من هذا الإعتبار فمهمة حماية حقوق كل الكائنات تقع على عاتق الإنسان إلى جانب الحقوق العائدة له، يعني مسؤولية المحافظة على حقوق النباتات والحيوانات والأشياء عائدة للإنسان.

من النظرة هولاء أولياء الحق ﷻ، أصبحوا نموذجاً بإبدائهم حساسية قصوى بخصوص رعاية حقوق الكائنات الأخرى. هذا المثال فيه دلالة عميقة: من أولياء الحق ﷻ، سيدنا أبي يزيدالبسطامي، أثناء ترحاله ارتاح تحت شجرة لتناول طعامه، بعدها تابع طريقه. بعد مدة لاحظ نملة على جعبته. عاد أدراجه قائلاً:

«أبعدت مخلوق الله عن موطنه» فتركها تحت تلك الشجرة.

جميلٌ قول الشاعر:

لا تؤذ حتى نملة تجر حبة!

لأنها تملك روحاً والروح حلوة وبهيجة

يوم القيامة سوف تُبعث المخلوقات الأخرى مع البشر ويستوفون حقوقهم الدنيوية المنتـَهكة. لذلك من محظورات الدين إيذاء الحيوان وإرهاقه أكثر من طاقته، حتى قطع غصنٍ أخضر بدون سبب، حتى لم يجزْ ظلم حيوان ضار أو قتله بحكم الضرورة. مثلاً أمر عند التخلـّص من الأفعى قتله بضربة واحدة دون إيذاء.

وأخيراً واجب على كل مؤمن أن يستخدم ميزان العدالة باستقامة طوال حياته،وأن يدرك بشكل جميل المعنى العميق للحق



والحقوق. من كبرى فضائل المؤمن لذلك يجب عليه أن يراعي الحق والعدالة في حياته وأن يسعى لنشرها. هناك فضيلة عليا للعباد الذين مضوا قدماً في طريق النضوج والإدراك وهي:

فضيلة العفو في العدالة...

المؤمنون الكاملون الذين وصلوا إلى أفق رؤية عالية في الأخلاق والإيمان، ، يفضلون مواجهة الأخطاء التي ترتكب بحقهم، بالرحمة والعفو، بدلاً من العدالة.

من أجل ذلك يأملون بأن يقابلهم الله تعالى بالإحسان واللطف والرحمة والعفو، لا بالعدالة والحق في الميزان الإلهي يوم القيامة. أثنى الله تعالى على هذه الأخلاق الجميلة في الآية الكريمة:

﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ (النحل، ١٢٦)

والخلاصة، أليس الحق مقابلة كرم لطف الله تعالى في الآخرة؟ لأجل هذا، العباد الصالحون والعارفون، لا يميلون إلى القصاص والمقابلة بالمثل على الإيذاء والجفاء المرتكب بحقهم، ويتغلبون على غضبهم بصبر من أجل الله و يسلكون طريق العفو والمسامحة دائماً. هكذا بإعفاء عباد الله مراراً، يحاولون كسب العفو الإلهي.

وبهذا الدستور عفا سيدنا أبو بكر رضي الله عنه عن الشخص الذي افترى على ابنته وأمنا عائشة رضي الله عنها، واستمر في إعطائه الصدقات.(من أجل تفاصيل الحادثة أنظر إلى الصفحة ٦٠-٦١)

الآية الكريمة التالية تحمل دلالة عميقة في تشجيع هذه الأخلاق السامية:

﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (النور، ٢٢)

بهذا المعنى يعمل العباد العارفون بمقتضى الآية الكريمة:

﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (فصلت، ٣٤)

من الأمثلة الأخرى الجميلة لهذه الأخلاق في القرآن الكريم، تعرُّضُ يوسف عليه السلام لظلم كبير على يد إخوته. هذا النبي الكبير الذي قام بإكرام وإحسان إخوتهٍ طالبي العون منه دون أن يعرّف عن نفسه.

واستسلموا للحق بعد أن علموا بهوية يوسف عليه السلام أمام فضيلته العليا بشهادتهم عليها وإكرامه لهم بسخاء وجود:

﴿قالوا تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين﴾ (يوسف، ٩١)

وقدم سيدنا يوسف عليه السلام، مثالاً كبيراً للعفو وقال:

﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾ (يوسف، ٩٢)

وبقوله هذا أفاض من فضائله.

أيضاً وبقوله هذا برّأ إخوته وحمّل إبليساً الذنب:

﴿... نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي...﴾ (يوسف،١٠٠)

بعدها استعرض فضيلة تلو الأخرى وأثنى على إخوته قائلاً:

«ابتاعوني عبداً. بفضلكم عُلمَ في مصر أنني ابن النبي»

هكذا سامح إخوته على ما وقع منهم من ظلم واضعاً ستار العفو على أفعالهم. ونتيجة لذلك جعلهم ينتشون بفضل استعراضه للأخلاق والفضائل العالية. انطلاقاً من هذه الأخلاق العالية، يمكننا القول إن الصفح عن المذنبين وإبدال العدالة بالرحمة، لأسلوب فريد للإصلاح والإرشاد. طبعاً شريطة إحساس المذنب بالأسف والندم...

علينا ألاّ ننسى بأن العفو عن المذنب أفضل من معاقبته حينما يكون صادقاً في ندمه على أن لا يرتكب الجرم مرة أخرى، فيتحول العفو إلى عجز وضعف حائد عن الفضيلة عندما لا يبدي المجرم ندماً كهذا، وتكون النتيجة وفق أسلوبه وحاله.

مثلاً العفو عن المذنب المصرّ على فسقه وظلمه، لا يفيد سوى تشجيعه على الخطأ، وحفزه على الظلم والتعسّف، وعندما يتم ذلك حق طبيعي للمتضرر طلب العقاب للمذنب لانعدام احتمال الإصلاح عند العفو عن أخطائه.

من جانب آخر في المسائل الشخصية والفردية، العفو عن الشخص المذنب لأجل إصلاحه يتناسب مع الفضيلة والتقوى معا. أما المسائل التي تخص العموم والآخرين، فيتوجب إحقاق العدالة بشكل تام. وعلى العكس الجرائم التي تبقى بلا عقاب، تتسبب في تمادي المذنبين، ومن ذلك يتضرر المجتمع بأكمله ويُظلم الجميع.



سيدنا رسول الله ﷺ مرشد حياتنا، كان يعفو عن الأخطاء المرتكبة بحقه، لكنه لم يكن يحتمل الأخطاء المرتكبة بحق الآخرين. بذلك كان يؤمن العدالة المطلقة. هذا هو أحد مقاييس صاحب الحق والعدالة. القادرون على العدالة بهذا الشكل، بذات الشكل يفوزون بالتصرفات العادلة. لترقُّب العدالة من الآخرين، علينا أولاً أن نكون عادلين فيما يتعلق بأمور الناس. لأن سعادة وسلامة الحياة البشرية وقفٌ على مدى تماسك ميزان الحق والعدالة بتوازن.

أخيراً مفهوم العدالة حول كل هذه الحقائق، حاجة حيوية لا يمكن الاستغناء عنها للسعادة والانسجام والنظام في المجتمعات.

بهذا المفهوم، يبغي الإنسان فحوى مختلفاً جداً في شعوره وأحاسيسه اللازمة لامتلاكها تجاه ربه.

في أيامنا هذه من المسائل المهمة وقوع الناس في الخطأ حول مفهوم العدالة الإلهية. لأن جميع الناس لا يملكون إمكانات متساوية في هذه الدنيا. منهم قصير العمر، ومنهم المعمر، منهم سليم الصحة ومنهم السقيم، ومنهم معاق بالولادة، منهم الغني، ومنهم الفقير. ولكون الله تعالى هو الذي قدّر ذلك؛ وهذا الأمر إذا نُظر إليه عن بُعد بقلب جاهل وعقل جاف، تبدو العدالة الإلهية متناقضة. هذه الإدعاءات التي تبدو في صورة الحق قولاً نجد أن المسألة واضحة أمام الأعين إذا نظرنا إليها من نافذة الإيمان والحكمة، لأن:



العدالة قائمة بالإستحقاق!...

لا يوجد شخص خـُلقَ لأنه استحق ذلك، خلقُ الإنسان من العدم، والخروج من العدم إلى عالم الوجود لطفٌ إلهي عظيم لدرجة يعجز عنه الشكر. ما أعظم الكرم الإلهي! خلقـُه كـ «إنسان» ليس عشباً وأوراق شجر أو حجراً أو تراباً أو أفعىً، بل أشرف الكائنات.

هذا ومكاسب أخرى عديدة مماثلة، أوليس عطاءٌ مجاني ولـطفٌ إلهي تام؟ ما المقابل الذي دفعناه كي ننال هذه النعم؟

بمثل هذا الحال، سيفنى كل طالبي العدالة وهم في ضلال وحاشا لله تعالى أن يُحاسب بسبب الحرمان المتقلب في حياتهم! لأن العبد لا يملك حقاً أو رأسَمالٍ مقابل خَلقهِ، كي يكون له الحق في مطالبة الله بالعدالة! من أجل هذا العدالة قائمة على أساس دفع الثمن وكسبها بالعمل، يعني استحقاقها.

علينا أن نفكر: أيّ بدلٍ دفعناه كي نُخلقَ بشراً؟ بأي عمل وبأي كسب أصبحنا بشراً؟

رد الجميع معروف: "لا شيء! لا شيء بتاتاً..."

إذاً يجب أن ندرك جيداً:

أراد الله ﷻ أن تكون الحياة بصفحتين، الدنيا والآخرة وتجلّت بشكل بارز في صفته الثانية «العادل» والأولى «اللطيف». يعني خلق الله العالم والإنسان بصفة «اللطيف» لا بصفة «العادل» فكل ثمار الخليقة لطف من الله ﷻ.



حاشا لله ﷻ أن يكون ملزماً بتوزيع النعم بالتساوي، أصلاً لو كان بين المخلوقات اثنان متساويان بالمعنى المطلق لكان وجود أحدهم عبثاً، يعني بدون حكمة، إن الإنشغال بالعبث إنقاص من صفة الله تعالى «المتعالي» يعني أبعد من الخيال الذي خلق الكائنات ونظّمهم باتزان وحساسية قصوى. والله منزه عن كل عيب.

من هذا المنظور، لا يمكن لأحد القول: «قامتي قصيرة ماذا كان إثمي؟» أو «لماذا وُلدت طفلاً لجاهلٍ ولم أولد لعالِم؟» أو «لماذا جئت طفلاً لأب فقير ولم أكن لغنيٍ؟» لأن كل ذلك عبارة عن تجليات الفروق في قسمة لطف الله.

الحادثة التي وقعت في عصر السعادة تجسد هذه الحقيقة:

طلب ثعلبة من رسول الله ﷺ أن يدعو له كي يصبح غنياً، فردّ رسول الله ﷺ قائلاً:

"ويحك يا ثعلبة، قليل تؤدِّي شكره، خير من كثير لا تطيقه"

بعدها سأله من أجل إقناعه:

"أما ترضى أن تكون مثل نبيِّ الله؟"

أما ثعلبة فقد أعمى بصره عن هذه الإشارات النبوية، وطلب الغنى بإصرار، فدعا له رسول الله ﷺ كي يصبح غنياً. ثعلبة الذي أصرّ بعناد لدرجة الغفلة عن إدراك تنبيهات سيدنا رسول الله ﷺ، وفي النتيجة أصبح ثرياً لكنه لم يتفاد حفرة نكران الجميل التي وقع

فيها قارون. ثم ندم فَجَعَلَ يَحْثُو عَلَى رَأْسِهِ التُّرَابَ وعاش متأثراً بعدم تمثله لنصائح رسول الله ﷺ في أخريات أيامه، وقال على فراش الموت:

«آه ليتني أصغيتُ إلى نصح سيدنا الرسول» مقهوراً في ندم طمعه الذي سمم حياته الأبدية.[1]

لذلك علينا ألا ننسى أبداً الآية الكريمة:

﴿**ثم لتسألنَّ يومئذٍ عن النعيم**﴾ (التكاثر، ٨)

إن رضاء العبد بما وهبه الله له، مسؤوليةٌ ومن موجبات النضج معاً.

لذلك فإن عدم المساواة في النعم الموهوبة لا يعني غياب العدل. يمكن لرب العالمين أن يخلق أحد عباده سليماً والآخر بعاهة. ويمكنه خلق أحدهما في غاية الذكاء والآخر منخفض الذكاء. فهو يخلق الثعبان فيزحف والطير فيطير. لا حق للمخلوقات في الاعتراض على هذه القسمة أبداً.

الواقع أن الحيوانات تملك من الذكاء والإدراك والإحساس فقط بقدر ما تحتاجه منها لإدامة حياتها، لذلك تراها راضية بحالها، لا هم لها غير إشباع جوعها ورغباتها الفطرية الطبيعية. لذلك ليس وارداً أن تحس بالشقاء لأنها لم تخلق من البشر.

وكما لا يحق لحيوان أو نبات أن يتظلما لأنهما لم يخلقا من

١ انظر الطبري: جامع البيان، جـ ١٤، ص ٣٧٠-٣٧٢.



البشر، كذلك لا يحق لذوي العاهات أو المرضى أو الفقراء أو المحرومين اتهام الله تعالى – وحاشَ لله – بعدم الإنصاف، فهذا مما يتناقض مع العقل والمنطق والضمير قبل كل شيء.

بقي القول إن في ميزان الآخرة سيتبين، أيهما أفضل كثرة النعم أم قلتها الممنوحة للعباد بكرم ولطف من الله. لذلك فالديون التي تخلفها قلة النعم قليلة، أما ديون النعم الكثيرة فتكون كبيرة.

والتسليم لتقدير الله أفضل طريق لإدراك الإنسان العاجز لأسرار وحكمة القدر بالشكل اللائق.

وفي هذا الخصوص، حال الصحابي أبو طلحة وزوجته أجمل مثال في الرضاء والقناعة. الحادثة باختصار جرت كما يلي:

كَانَ ابْنٌ لأَبِي طَلْحَةَ يَشْتَكِي، فَخَرَجَ أَبُو طَلْحَةَ، فَقُبِضَ الصَّبِيُّ، فَلَمَّا رَجَعَ أَبُو طَلْحَةَ،

قَالَ: مَا فَعَلَ ابْنِي؟

قَالَتْ أُمُّ سُلَيْم: هُوَ أَسْكَنُ مِمَّا كَانَ، فَقَرَّبَتْ إِلَيْهِ الْعَشَاءَ فَتَعَشَّى، ثُمَّ أَصَابَ مِنْهَا، فَلَمَّا فَرَغَ قَالَتْ:

يَا أَبَا طَلْحَةَ أَرَأَيْتَ لَوْ أَنَّ قَوْمًا أَعَارُوا عَارِيَتَهُمْ أَهْلَ بَيْتٍ، فَطَلَبُوا عَارِيَتَهُمْ، أَلَهُمْ أَنْ يَمْنَعُوهُمْ؟،

قَالَ: لَا، قَالَتْ: فَاحْتَسِبِ ابْنَكَ وَارُوا الصَّبِيَّ، قالَ:

«إنا لله وإنا إليه راجعون» (البقرة، ١٥٦)



فَلَمَّا أَصْبَحَ أَبُو طَلْحَةَ أَتَى رَسُولَ اللهِ ﷺ فَأَخْبَرَهُ،

فَقَالَ ﷺ: "أَعْرَسْتُمُ اللَّيْلَةَ؟" قَالَ: نَعَمْ،

قَالَ ﷺ: "اللهُمَّ بَارِكْ لَهُمَا"

فَوَلَدَتْ غُلَامًا، فَقَالَ لِي أَبُو طَلْحَةَ:

احْمِلْهُ حَتَّى تَأْتِيَ بِهِ النَّبِيَّ ﷺ، فَأَتَى بِهِ النَّبِيَّ ﷺ، وَبَعَثَتْ مَعَهُ بِتَمَرَاتٍ، فَأَخَذَهُ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: "أَمَعَهُ شَيْءٌ؟"

قَالُوا: نَعَمْ، تَمَرَاتٌ، فَأَخَذَهَا النَّبِيُّ ﷺ فَمَضَغَهَا، ثُمَّ أَخَذَهَا مِنْ فِيهِ، فَجَعَلَهَا فِي فِي الصَّبِيِّ ثُمَّ حَنَّكَهُ، وَسَمَّاهُ عَبْدَ اللهِ (مسلم، الأدب ٢٣، فضائل الصحابة، ١٠٧)

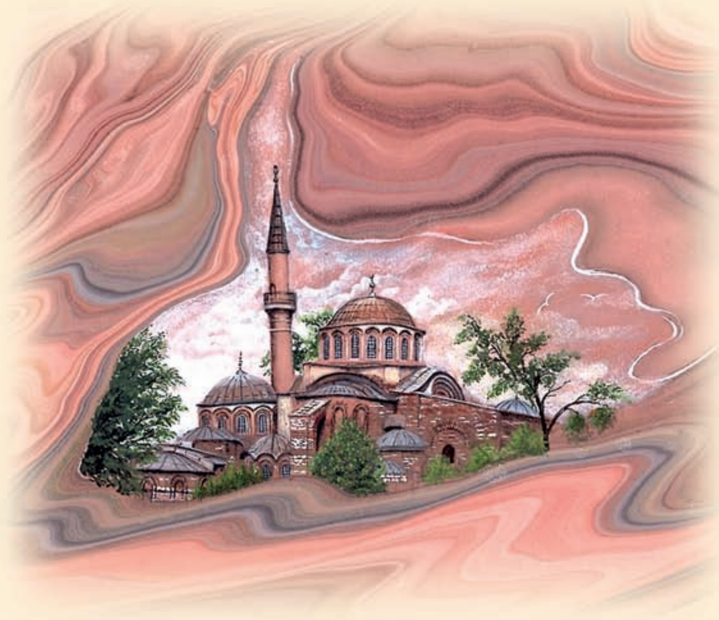
إذا فهذا الشعور بالأمانة هو المطلوب تجاه نعم الله ﷻ، في هذه الدنيا دار الامتحان...وهذا الرضاء والقناعة المطلوبتين للنعم الممنوحة من الله تعالى والمعادة له. لذلك من أهم شروط العباد المؤمنين للتقرب من الله ﷻ أن يكونوا على الحال الذي كان عليه سيدنا إبراهيم عليه السلام وقوله دائماً على الرغم من تغير شروط امتحانه:

«أسلمت لرب العالمين»[1]

ربنا!اجعل من نصيبنا العيش في رضاء وقناعة بمعان سامية وحقة!و لا تضللنا عن الحق والعدالة! وعاملنا بعفوك يوم الحشر وتوّجنا برحمتك وعفوك جميعاً بالحق والعدالة معاً! آمين....

١ انظر: سورة البقرة، ١٣١

الحق والعدل ٢



الدنيا ليست مسرحاً للمنافع ورغبات النفس،ولسنا فيها للتشرد، ولم نأت إلى هذا العالم بلا غاية، يكون الإنسان ظالماً بلا دراية عندما يكون أسير رغبات النفس الدنيوية. وبذلك يخسر الحياة الأبدية.

الحق و العدل ـ ٢

لم يأتِ هذا الكم الهائل من الكائنات التي نعيش معها عن طريق الصدفة، فلم تخلق الرغبات النفسية كي تكون مسرحاً للمنافع، ففي هذا الإطار كان مكاناً لامتحان البشر الذي خلق من أجل غاية سامية. لذلك فخلق الكون والبشر ليس عبثاً، يعني ليس بلا سبب أو بلا غاية وبلا هدف أي عبثاً.

إن ربنا منزهٌ من كل أنواع اللا غائية واللا سببية واللا حكمية والعبثية، فكل شيء فيه حق لأن من أسماء الله الحسنى «الحق»

قال تعالى في الآية الكريمة:

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ...﴾ (الأنعام، ٧٣)

فكل الكائنات والبشر و الكون إبداع رائع وعظيم! خلقت في توازن وبمقاييس حساسة فوق العادة، وبِعبَر وحكم لا تحصى. فكل إنسان يمتلك عقلاً سليماً ملزم بالتفكير عميقاً في عظمة التجليات والقدرات الإلهية. إن الله تعالى في الآية الكريمة حـذّر ونبّه إلى هذه الحقيقة قائلاً:

﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ. أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ﴾

(الرحمن، ٧ـ٨)



﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ. مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (الدخان،٣٨-٣٩)

﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾ (القيامة، ٣٦)

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾ (المؤمنين، ١٥)

كما أفادت الآيات الكريمة بصراحة بأننا لم نأت إلى الكون مكان الإمتحان بـــلا غاية، ولا أن نترك تائهين، فلقد أمرنا الله ﷻ برعاية الحدود الموضوعة على بعض الممنوعات، عند توجيه إرادتنا في اختيار الخير والشر. وبناء عليه من السهل أن يصبح ظالماً من أغواه فساد النفس، ولم يحرص في الحياة على الحدود الإلهية بالقدر المطلوب، وبذلك يخسر الحياة الأبدية.

فرعاية الحدود الإلهية تتناسب في الأصل مع نجاة الناس من العذاب الإلهي. وعلى العكس من يتسبب بعذاب لنفسه يكون قد ظلم نفسه بالذات. فعلينا أن لا ننسى أن:

الظلم نقيض العدالة...

إن الحق تعالى يلفت الانتباه إلى هذا الوصف للإنسان في الآية الكريمة:

﴿...وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ (الأحزاب،٧٢)

الجهل من الأسباب الواضحة في دفع الإنسان إلى الظلم. الجهل الوارد في الآية الكريمة عكس العلم.

العلم الحقيقي، هو الذي يدفع الناس إلى المعرفة القلبية للحق تعالى، يعني معرفة الله ﷻ. لذلك فكما أن الجهل يسوق الإنسان إلى الظلم، فالعلم يدفع الإنسان نحو الخير والحق والعدالة.إن الله تعالى هو مركز الحقيقة والحقِ ومنبعُهما. كل ما يبلغنا خالق الكائنات من حق وحقيقة، هو الحق والحقيقة. قال تعالى في الآية الكريمة:

﴿ ... قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

(الأنعام، ٧١)

ولذلك فالناس يظلمون أنفسهم بالجور على الحقائق الإلهية السامية بعدم الاكتراث لأوامر ونواهي السعادة الأبدية لله ورسوله. والعمى عن الحقائق الإلهية من أفجع أنواع الظلم. فلكل ظلم عقاب معين. إلا أن الجريمة المرتكبة ضد الحقائق الإلهية فعقابها «العذاب الأبدي». وهذا يظهر بأن كفر الناس وظلمهم وجورهم يؤدي إلى جهنم أبدي.

يُرى في الظاهر بأن الظلم يضر بالآخرين، ولكنه في النتيجة يقود مرتكب الجرم إلى عذاب أليم. يعني أكبر خسارة للظالم هي نفسه. لذلك تتكرر تعابير «ظلموا أنفسهم» في القرآن الكريم.

مولانا جلال الدين الرومي، تقدس سره، يوضح الظلم والحق بتشبيه لافت للنظر: «ما العدالة إلا إرواء أشجار الفاكهة. وما الظلم إلا إرواء الشوك؟»

«من لا يعرف العدالة يشبه معزة ترضّع جرو الذئب»

هذا يعني بأن الظلم الذي ترعرع في كنفه نذير هلاكه، فسيأتي يوم يقطّعه ويرسله إلى حتفه.فالتاريخ شاهد على الذين أخلوا بالحق من أجل المنافع الفانية، بأنهم حفروا قبورهم فقط.

لذلك من الواجب الشعور بالحق والبقاء على العدالة، مهما كانت أعباؤها ثقيلةً على النفس.

الخلاصة أن الظلم هو العذاب بغير وجه حق.

خُلق الإنسان غنياً في منزلة شريفة بين المخلوقات، فمن سيدفع فاتورة العذاب في انسياقه إلى مستنقع العصيان والخطيئة ضارباً عرض الحائط قيَمِهِ السامية وكرامته الدفينة في جوهره من أجل الأهواء المتقلبة والرغبات النفسية والسعادة الفانية؟

لذلك فالمرء ملزم بأن يكون عادلاً ورحيماً مع نفسه أولاً، وعادلاً مع الآخرين. ورسول الله ﷺ لَمِثال سْام ٍ في خصوص تحقيق ذلك.

القدوة الحسنة في العدل

وهب ربنا رسولَ الله ﷺ شخصية مثالية لكل البشرية، ووهب الأمة قسطاساً فعلياً متمثلاً بحياة رسول الله ﷺالنزيهة، في كل أمر ونهي.

لذلك فالإسلام ديننا السامي، دين صيرورة الحياة في أفضل شكل، هذا يعني أن الإسلام مبادئ سامية، وليست أفكاراً بشرية



دنيوية أوعبارة عن نظريات صرفة لا ترى النور للتطبيق. لأن الحق تعالى قدم للبشرية الأمثلة العملية لكل أحكام الإسلام.

كذلك فرسول الله ﷺ عندما كان يأمر الأمة بشيء ما، كان يطبقها على نفسه ومقربيه أولاً، وعندما ينهاهم عن شيء ما، كان ينهى نفسه ومقربيه أولاً.فكما أنه لم يكن يقبل امتيازا لنفسه أمام العدالة، لم يسمح قط بالتفريق في المعاملة بين وجهاء وأغنياء المجتمع والناس الآخرين. كانت شخصية رسول الله ﷺ المثالية مثالاً لقيم الفضائل العالية لدرجة الإعجاب في كل الخصوص كما هيَ في الحق والعدالة. وهذه بعضٌ منها:

حتى لو كانت فاطمة بنت محمد

في إحدى أيام عصر السعادة، قامت امرأة ذات نسب من بني مخزوم بالسرقة، فصار أهل المرأة يفكرون بالشخص الذي سيرسلونه إلى رسول الله ﷺ للتوسط من أجل العفو عنها، وأخيراً قرروا إرسال أسامة بن زيد حيث كان حِبَّ رسول الله ﷺ.

فتوجه أسامة إلى رسول الله ﷺ طالباً العفو، فتغيرت ملامح رسول الله ﷺ المباركة على هذا الطلب، فسأل أسامة حيث كان يحبه كثيراً بنظرات كلها عتب: "**أتشفع في حد من حدود الله؟**"

فندم أسامة رضي الله عنه عندما رأى أن رسول الله ﷺ قد حزن كثيراً، واعتذر على الفور قائلاً: «يا رسول الله!ادعُ لي كي يعفى عني»



(البخاري، المغازي، ٥٣؛ النسائي، قطع السارق، ٦، ٨، ٧٢-٧٣) فقام رسول الله ﷺ مخاطباً الناس:

" أَيُّهَا النَّاسُ، إنما أهلك الذين قبلكم، أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وايم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها" (البخاري، الأنبياء، ٥٤/ ٣٤٧٥؛ مسلم، الحدود، ٨ـ٩/ ١٦٨٨)

قال الله ﷻ في الآية الكريمة:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى ....﴾ (النساء، ١٣٥)

وهكذا بيّن رسول الله ﷺ بلسان قطعي وأسلوب واضح جداً معارضته لأي امتياز للأقوياء في المجتمع أمام العدالة ، حتى لو كان هذا الإمتياز لأي فرد من أفراد عائلته.

إعلاء الحق

كان رسول الله ﷺ يهدف إلى تحقيق العدالة في الحياة التجارية والإجتماعية باشتراكه في «حلف الفضول» قبل نزول الوحي، فهذه الجماعة كانت تسعى لإحقاق الحق والعدل في الحياة الاجتماعية

والتجارية. كانت تساعد الضعفاء والغرباء ممن اغتصبت حقوقهم ولم يستطيعوا المطالبة بها، على استعادة حقوقهم من الأقوياء االقادرين.

تتجلى كل خصوصيات الحق والعدالة في حياة رسول الله ﷺ. ففي أحاديثه الشريفة التالية تظهر هذه الحالة:

"... إِنَّهُ لَا قُدِّسَتْ أُمَّةٌ لَا يَأْخُذُ الضَّعِيفُ فِيهَا حَقَّهُ غَيْرَ مُتَعْتَعٍ"

(ابن ماجة، الصدقات،١٧)

"كيف يُقَدِّسُ اللَّهُ أُمَّةً لَا يُؤْخَذُ لِضَعِيفِهِمْ مِنْ شَدِيدِهِمْ" (ابن ماجة، الفتن، ٢٠)

"إِنَّ أَحَبَّ النَّاسِ إِلَى اللَّهِ يَوْمَ القِيَامَةِ وَأَدْنَاهُمْ مِنْهُ مَجْلِسًا إِمَامٌ عَادِلٌ، وَأَبْغَضَ النَّاسِ إِلَى اللَّهِ وَأَبْعَدَهُمْ مِنْهُ مَجْلِسًا إِمَامٌ جَائِرٌ"

(الترمذي، أحكام، ٤/ ١٣٢٩؛ النسائي، زكاة، ٧٧)

كان آخر كلام رسول الله ﷺ:

"الصَّلَاةَ الصَّلَاةَ، اتَّقُوا اللَّهَ فِيمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ" (أبو داود، الأدب، ١٢٣ـ١٢٤/ ٥١٥٦)

تضليل العدالة نصيب في جهنم

قال سيدنا فخر الكائنات ﷺ:

"إنكم تختصمون إلي، ولعل بعضكم ألحن بحجته من بعض، فمن قضيت له بحق أخيه شيئا، بقوله: فإنما أقطع له قطعة من النار فلا يأخذها" (مسلم، الأقضية، ٤/ ٢٦٨٠)

في الحقيقة إن تستر بعض الناس على ظلمهم ومآربهم الدنيوية وإظهار أنفسهم محقين وهم ظالمون، بفضل حدة ذكائهم ولباقة كلامهم. ولكن عليهم أن لا يحسبوا أنهم سينجون.

ففي محكمة القيامة الإلهية سَيُؤْخَذُ حق المظلوم من الظالم ويبسط كل شيء على الأرض على الرغم من اعتقادهم بأنهم نجوا، لتضليلهم للعدالة البشرية الدنيوية. والرذيلة التي سيقع فيها في الآخرة أكبر من رذائل مآربه الدنيوية.

وعلى هذا الإعتبار، يتوجب على القاضي أن يحاسب وجدانه جيداً، قبل أن يصدر حكمه بتبرئة أو تجريم الشخص عند طلب الخصوم.

لا تنحصر أهمية مسائل العدالة في زاوية حياتية معينة، بل في كل جوانبها من التجارة إلى التعليم، ومن البيئة إلى العائلة... وداخل العائلة أيضاً:

العدل بين الأولاد

إن التمييز بين الأولاد بسبب الجنس، عجز للرضاء والقناعة وعدم احترام لتقدير الله تعالى.

وإنها لحقيقة معروفة تعرض البنت للظلم وحرمانها من حقوق كثيرة بسبب الجنس فقط. فاتخاذ مسألة الجنس سبباً للتمييز، ظلم



وإجحاف للحقائق الإلهية، لأن الله تعالى بيّن أن المقياس الأمثل للتفضيل هو «التقوى».

عَنْ أَنَس، أَنَّ رَجُلًا كَانَ جَالِسًا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ، فَجَاءَ بُنَيٌّ لَهُ، فَأَخَذَهُ فَقَبَّلَهُ وَأَجْلَسَهُ فِي حَجْرِهِ، ثُمَّ جَاءَتْ بُنَيَّةٌ لَهُ، فَأَخَذَهَا وَأَجْلَسَهَا إِلَى جَنْبِهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "**فَمَا عَدَلْتَ بَيْنَهُمَا**"[١]

فعبّر بذلك عن وجوب عدم التفريق بين هذا وذاك والتمييز في المعاملة ـ بسبب الجنس فقط ـ بين البنات والبنين.

عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ، أَنَّ أَبَاهُ أَتَى بِهِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: إِنِّي نَحَلْتُ ابْنِي هَذَا غُلَامًا، فَقَالَ: «**أَكُلَّ وَلَدِكَ نَحَلْتَ مِثْلَهُ**» ، قَالَ: لَا، قَالَ: «**فَارْجِعْهُ**» (البخاري، الهبة، ١٢،الشهادات، ٩؛ مسلم، الهبات، ٩ــ ١٨)

القدرة على توزيع الحقوق بدقة

أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَبْعَثُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ رَوَاحَةَ إِلَى خَيْبَرَ فَيَخْرُصُ بَيْنَهُ، وَبَيْنَ يَهُودِ خَيْبَرَ، قَالَ: فَجَمَعُوا لَهُ حَلْيًا مِنْ حَلْيِ نِسَائِهِمْ، فَقَالُوا لَهُ: هَذَا لَكَ، وَخَفِّفْ عَنَّا، وَتَجَاوَزْ فِي الْقَسْمِ، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ ﷺ: يَا مَعْشَرَ الْيَهُودِ، وَاللَّهِ إِنَّكُمْ لَمِنْ أَبْغَضِ خَلْقِ

١ الطحاوي، شرح معاني الآثار، بيروت ١٩٨٧، جـ٤، ص ٨٩؛ البيهقي، الشعب، جـ٧، ص ٤٦٨؛ الهيثمي، جـ٨، ص ١٥٦.

اللَّه إِلَيَّ، وَمَا ذَاكَ بِحَامِلِي عَلَى أَنْ أَحِيفَ عَلَيْكُمْ، فَأَمَّا مَا عَرَضْتُمْ مِنَ الرَّشْوَةِ، فَإِنَّهَا سُحْتٌ، وَإِنَّا لَا نَأْكُلُهَا، فَقَالُوا: بِهَذَا قَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ " (الموطأ، المساقاة، ٢)

قال الله ﷻ في الآية الكريمة:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى...﴾
(المائدة، ٨)

كم هو سام ديننا، حتى تجاه أعدائه يأمر بالعدل بحرص عظيم! يتصرف بالعدل ويرعى الحق دائماً وهو يفكر بأن الظالم سيطلب للحساب، حتى لو ظلم مسلم كافراً. لذلك قال الرسول الكريم:

"اتق دعوة المظلوم، فإنه ليس بينه وبين الله حجاب" (البخاري، الزكاة، ٤١-٦٣؛ المغازي ٦٠، التوحيد، ١؛ مسلم، الإيمان، ٢٩-٣١)

ومن الأمثلة النمطية في التاريخ الإسلامي على الحرص الكبير في تحقيق الحق والعدل مع غير المسلمين هي:

حَدَّثَنَا سَعِيد بْن عَبْد الْعَزِيز، قَالَ: بلغني أنه لما جمع هرقل للمسلمين الجموع وبلغ المسلمين إقبالهم إليهم لوقعة اليرموك ردوا عَلَى أهل حمص ما كانوا أخذوا منهم منَ الخراج وقالوا: قَدْ شغلنا عن نصرتكم والدفع عنكم فأنتم عَلَى أمركم، فقال أهل حمص: لولايتكم وعدلكم أحب إلينا مما كنا فيه منَ الظلم والغشم ولندفعن



جند هرقل عن المدينة مع عملكم ونهض اليهود فقالوا. والتوراة لا يدخل عامل هرقل مدينة حمص إلا أن نغلب ونجهد، فأغلقوا الأبواب وحرسوها وكذلك فعل أهل المدن الَّتِي صولحت منَ النصارى واليهود، وقالوا: إن ظهر الروم وأتباعهم عَلَى المسلمين صرنا إلَى ما كنا عَلَيْهِ وإلا فإنا عَلَى أمرنا ما بقي للمسلمين عدد، فلما هزم اَللَّه الكفرة وأظهر المسلمين فتحوا مدنهم وأخرجوا المقلسين فلعبوا وأدوا الخراج، وسار أَبُو عُبَيْدة إِلَى جند قنسرين وأنطاكية ففتحها.[1]

أجبر معظم المفكرين غير المسلمين من أهل الإنصاف عبر التاريخ بسبب هذه المقاييس الحساسة وأمثالها في موضوع العدل والحق بالاعتراف بسمو العدالة الإسلامية.

عندما طُلب من الثوار الفرنسيين إعداد «بيان حقوق الإنسان» في عام ١٧٨٩. فشُكلت لهذه الغاية هيئة تدرس كافة النظم القانونية في العالم، وعندما رأى عضو الهيئة الفرنسي لافاييت (La Fayette) تفوق الحقوق الإسلامية، لم يتمالك نفسه فقال قاصداً الرسول الكريم:

«أيها العربي الشريف! أنت من وجد العدالة ذاتها!»

العدل أساس قيام الدول، لذلك فهذا القول مشهورٌ:

«بالكفر تتجزأ، وبالظلم لا تقوم!»، وللتعبير عن أن الإدارة قائمة بالعدالة قالوا: «العدل أساس الملك»

١ البلاذري، فتوح البلدان، بيروت ١٩٨٧، ص ١٨٧.



حقيقة إن الأمم والدول، تظل قائمة بإدارتها القوية والحاكمة. ولكن هذا الحكم والقوة يقابله نسبة مراعاة مقاييس العدالة والحق. أما القوة المحرومة من العدالة والحق فتولد الظلم. لأجل ذلك قال أبو بكر ﵁: «عدالة لا تعتمد على القوة عاجزة، وقوة لا تعتمد على العدالة، ظالمة»

جميل ما قاله يوسف خاص حاجب في مؤلفه **Kutadgu Bilig**:

"الظلم نار مضرمة، تحرق من يقترب منها. والعدالة ماء بتدفقه تنبت النعم"

هذا يعني عدم مساندة ماء العدالة للنجدة واستمرار نار الظلم في المجتمع. إن هذا الماء فقدَ جوهر قيمته ونقائه وصفائه. ونظام العدل الذي لا يسمع نداءات المظلومين يشبه المياه الراكدة النتنة.

بعد أن بايع الناس الخليفة أبا بكرٍ ﵁ فصعد على المنبر مخاطباً الناس بكل تواضع:

«أيها الناس! فإني قد وُليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني» (ابن سعد، جـ٣، ١٨٢ـ١٨٣؛ السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ٦٩، ٧١-٧٢)

ولذلك فأهم وظائف المؤمنين،الوقوف إلى جانب العادلين، وتنبيههم بلا تردد عند الخطأ.



الوقوف في وجه الظلم والتعسف

جاء في الحديث الشريف:

"إِنَّ مِنْ أَعْظَمِ الجِهَادِ كَلِمَةَ عَدْلٍ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ" (الترمذي، الفتن، ١٣/ ٢١٧٤)

يقوى الباطل حين يسكت الحق. فالساكت عن الحق شيطان أخرس. والساكت عن الظلم يصبح صنماً. فأتباع فرعون أمثال هامان الذين جعلوه يقول:«أنا ربكم الأعلى» كانوا شياطين في صورة بشر. ولهم باع في ظلم فرعون، فسينالون العقاب نفسه في عاقبتهم يوم القيامة. لذلك التملق للظلم طلباً للمنافع الدنيوية سببُ ذلةٍ وحسرة أبدية. ينصر بقوة الحق من تعلق قلبه بالحق. فيقف في وجه الظالم،ويكون مع المحِق دائماً مستنداً بعزة على الحق.

لذلك قام سيدنا الحسن البصري بتوزيع العدالة وتبليغها بكل ما أوتيَ من قوة، ولم يسكت على ظلم الحجاج الذي كان معروفاً بظلمه. جلالة إمام الزمان رفض أن يكون وسيلة للإجراءات التعسفية للخليفة جعفر بن المنصور، رفض تولي قضاء بغداد على الرغم من ضربه بالسوط في الزنزانة...

فشعار المؤمن الكامل هو التواضع وقول الحق، بصوت الإيمان ولسان الحق. تُغلق الأبواب المؤدية إلى الظلم بوجود قائلي الحق وخادميه. وعلى هذا الاعتبار فليعلم جيداً كل من ساند الظالم وانحرف للظلم لانسياقه للنفس: بأن للظلم والباطل غلبة



مؤقتة. ولا نصر أبدي و باقٍ. فالظلم زائل لا محالة. إن الإخلال بقواعد العدالة وتجاهل الحق يعني مخالفة الله جَلَّ جَلَالُهُ والعصيان عليه: من المقدر والمحقق ينتظر الظالمون عذاب القدرة الإلية الأليم عاجلاً أم آجلاً. إنَّ تاريخ الظلم والتعسّف، مملوء بتجليات الانتقام الإلهي المرعبة، قال الله تعالى:

﴿... وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ (القصص، ٥٩)

وأخيراً، مهما بدا سطوع بداية الظلم بنظر ممتهني استخدام العنف، نهايتهم ظلام حالك دائماً، وصفحات التاريخ تشهد على ذلك مراراً. ومن جانبٍ آخر العدالة مهما كانت صعبة فنهايتها نور واستقرار. وعلى هذا الاعتبار، المسلم الذي يكون عادلاً تجاه الآخرين في كل مكان وزمان يسعد ويُعزّ في العالمين ويحظى بمحبة الله عَزَّ وَجَلَّ والعباد.

لا يمكن أن يحوز أيّ شيء من زاغ عن الحق واستسلم لنفسه، لو أنهم حظوا ببعض المنافع المؤقتة والمغرية، فلا يجلب لهم ذلك سوى الندم والحسرة في النهاية.

ربنا، حافظ على قلوبنا من الانسياق خلف المنافع الفانية! واجعلنا جميعاً من عبادك السعداء والمسرورين للوصول إلى العالم الإلهي بوجدانٍ مطمئن والعيش بموجب الحق والعدالة! آمين ...



المسؤولية



حساسية المسؤولية التي تولد من الأخوة في الإيمان هامة جداً. المؤمنون ملزمون باعتبار العيش كأعضاء جسد واحد بقلب واحد على الرغم مــن كــونهم يــحملون أجساداً مختلفة. فكما أنَّ الجسد إذا تداعى منه عضو تأثر له سائر الجسد. فالإحساس بمصائب الإخوة في الدين،امتحان لوجدان كل المؤمنين.

المسؤولية

الإنسان، زينة الحياة الدنيا وأشرف الكائنات. وهب الله الإنسان نعماً لا تحصى فميزه عن المخلوقات الأخرى. ومقابل هذا الكرم والإحسان الاستثنائيين، جعله كائناً صاحب مسؤولية.

إن الله تعالى مَنَحَنا حرية الخيار بين الأساسين الموضوعين للنفس «التقوى» و«الفجور»،لإمتحاننا نحن العباد. ونتيجة لذلك بشرط الرضاء، منحنا خصوصية حرية الخيار بين الخير والشر.

ولموجبات الإمتحان الدنيوي، قدّر الظروف الحياتية لكل عبد على حدة. يعني خُلق الإنسان في حياة اجتماعية بمستويات مختلفة من الناحية المادية والمعنوية، بناءً على حكمة دائمة في انسجام واستقرار ونظام.

لو منح كل البشر الخواص ذاتها المادية والمعنوية، والقابلية المهنية، والموجبات نفسها. لما كان الخير والشر في المجتمع. ولا الحديث عن نظام الحياة أو الاستقرار. لذلك فلقد عُين الإنسان كي يستمر على حياته بفوارق تكمل بعضها كجزء من الكل بضرورة الحاجة للبعض ـ مثل اليد عند الغسيل للأخرى - في الحياة الإجتماعية.



هذا الحال يجلب معه بعض المسؤوليات والحقوق الوجدانية والعقائدية بين المؤمنين. أمر الله سبحانه وتعالى عباده المحرومين والعاجزين والضعفاء، التحلي بالصبر في الإمتحان للفوز بالأجر. ومقابل ذلك أمر عباده الأقوياء والأغنياء والمتفوقين بالشكر وعدم التكبر.

وفي الأصل يتحقق الشكر الحقيقي بصورة الكرم في النعم على المحرومين، وليس الكلام فقط. ومن أجمل مدلولات الشكر، محاولة كسب دعاء الضعفاء وتلافي حرمانهم، والوقوف معهم دائماً في سبيل رضاء الله ﷻ.

حقيقة علينا أن نسأل أنفسنا بين الفينة والأخرى «لماذا أنا سليم ومعافى، وفلان عاجز ومريض؟، لماذا أنا غني، وفلان فقير ومحروم؟» وعلينا القول عند الرد على أنفسنا: إن الله جعلني مسئولاً عنها وتركها أمانة لي. فواجب عليّ المثابرة في توزيعها على المحرومين!..»

لذلك قال رسول الله ﷺ :

"ومَنْ لَم يَهْتَمُّ للْمُسْلِمينَ عامة فَلَيْسَ مِنْهُمْ" (الحاكم، جـ ٤، ٢٩٤)

حساسية المسؤولية التي تولد من الأخوة في الإيمان هامةٌ جداً. المؤمنون ملزمون بتلقي العيش كأعضاء جسد واحد بقلب واحد، على الرغم من كونهم يحملون أجساداً مختلفة. فكما أنَّ الجسد



إذا اشتكى منه عضو تأثر به سائر الجسد. فالإحساس بمصائب الإخوة في الدين، امتحان لوجدان كل المؤمنين.

هذا المثال في تاريخنا يستعرض مدى رقة قلب هذا المؤمن:

من السلاطين العثمانيين الخان عبد الحميد الأول، بعد أن سقطت قلعة أوزي وأبيد سكانها الأبرياء قال:

«يا إلهي! أبنائي الجنود وأهاليَّ البريئين تشتتوا!» ومن شدة تأثره أصيب بالشلل وتوفي على أثره. هذه الحالة من تجليات إحساس عميق بالمسؤولية! سلطان عالـَمٍ كبير، لرائعة جداً خصوصية إيمانه الذي أذاب قلبه بألم ودفع حياته ثمناً له لدرجة قول «آه!».

إذاً تــُخل المسؤولية و لن تراعى حقوق أخوة الدين ،عندما تـُفقد حساسية الإيمان هذه.

فليعلم المؤمنون الذين يحملون هذا الشعور، أن من مهامهم الالتزام بالمحبة والتعاون والحرص وتتبع أمور بعضهم، نيلاً لرضا الله ﷻ.

وأيضاً المؤمنون بحاجة لبعضهم في الدعاء والخير دائماً. فالمؤمنون الضعفاء والمحتاجون بحاجة إلى عطف المؤمنين الأقوياء والأغنياء،والمؤمنون المقتدرون بحاجة إلى أدعية خيرة من المؤمنين الضعفاء.

عبّر مولانا جلال الدين الرومي عن هذه الحقيقة بكلام جميل:

«كما أن الأشخاص الذين أنعم الله عليهم بصفة الجمال يبحثون عن مرآة براقة وصافية، فالسخاء يطلب أناساً فقراء وعاجزين. المرآة تظهر مفاتن جَمالهم، وجمال الكرم والإحسان يرى الحياة بوجود الفقراء والمساكين»

ومن جانب آخر، يتوجب على الذين يعانون متاعب حياتية مختلفة من الأذى والعنف أن لا يتلقوها كجزاء. وليعلموا أنها من مقتضيات الامتحان الإلهي. وعلى أية حال يجب طلب الأجر بالحمد والصبر.

ولهذا السبب يتساوى الأغنياء الشاكرون والفقراء الصابرون، من حيث نيل رضا الله ﷻ. الفارق الوحيد هو امتحان الأول بالثراء والثاني بالفقر. إن الله تعالى يرينا مثالاً على ذلك حال سيدنا سليمان وسيدنا أيوب عليهما السلام:

كان سليمان عليه السلام ــ صاحب ثراء لا متناه ــ في حالة شكر دائم لله تعالى صاحب النعم، ولم يُشغل قلبه بالنعم الدنيوية قط، ولم يكن مغروراً أبداً. وبسبب سلوكه الجميل فاز بثناء الله «نِعمَ العبد»[1]

ومن جانب آخر أُمتحِن أيوب عليه السلام بالأمراض والحرمان، فلم يشك أبداً، وكان في حالة رِضىً دائم، مفكراً بأن ذلك تقدير من الله

١ سورة ص،٣٠



تعالى وامتحان له. نال رِضىً وقناعة ـ أيوب عليه السلام مثل سليمان عليه السلام ـ الثناء من الله «نِعمّ العبد»[1]. فليس مهماً بأية صورة يمتحن العبد، ولكن المهم كيف يستجيب لهذا الإمتحان.

لهذا السبب وقبل كل شيء يتوجب على كل مؤمن حقيقي أن يوجّه إرادته باستقامة رضاء الله عز وجل. ولتعميق هذا الحس عليه أن ينظر إلى من هم أكثر فضيلة منه في المسائل المعنوية ويتخذهم قدوة له. ومقابل ذلك عليه أن يكثر الشكر عندما ينظر إلى من هم دونه في المسائل المادية. وأن لا يشكو من حرمانه الذي قدره الله سبحانه وتعالى بالذات. وأن يفكر بكمال الدنيا والآخرة، معزياً نفسه بالتفكير في تخفيف مسؤوليته في العالم الأبدي.

لأجل ذلك فالله تعالى سيحاسب العباد الذين نالوا نعماً قليلة حساباً أقل من العباد الذين نالوا نعماً كثيرة. يعني ذلك أن حساب الآخرة يكون بمقدار النعم الممنوحة في الدنيا، فتتجلى العدالة الإلهية بهذا لشكل.

وعلى هذا الإعتبار لا يمكن مقارنة المسؤولية في خصوص قبول الحقائق الدينية، الشخص الذي يعيش في دولة متمدنة ومتدينة بظروف مواتية لدرجة لا يمكن القياس مع شخص يعيش في مجتمع ضال أو شخص ينتسب إلى أقوام بدائية فتح عينيه للدنيا مثلاً في أفريقيا. لذلك فالعناصر التي تُبَين نصاب التكليف وتحدد حدود

1 سورة ص، ٤٤



المسؤولية هي كل النعم الممنوحة للعبد.

قال الله تعالى في الآية الكريمة:

﴿لا يكلف الله نفساً إلا وسعها﴾ (البقرة، ٢٨٦)

هذا يعني المسؤولية تُقدر بنسبة القوة والإمكانات الممنوحة من الله ﷻ. والمفهوم المخالف للآية الكريمة، اعتبار العبد مسؤولاً عن الإجراء الذي لم يقم به وهو قادر على فعله.

يعني يتوجب علينا الإنتباه بأننا سنُحاسب يوم الآخرة على الخدمات الناجمة عن ابتعادنا عن الشر والظلم والتوصية بالخير والحق مثلاً والحسنات التي قمنا بها ونحن قادرون عليها.

في هذه النقطة تظهر مسألة في غاية الأهمية لنا نحن المؤمنين، وهي أنه من السهل علينا تثبيت التخلص من المسؤولية في المقدار المدفوع أي النِصاب المادي لفريضة مثل الزكاة، ولكن من الصعب تعيين المقدار التي تستجلب نصاب مسؤولية العبد،على كل النعم المادية والمعنوية الممنوحة من الله ﷻ تعالى للعبد. فمثلاً المثابرة في سبيل الله ﷻ، فريضة ودين على كل البشر بتكليف من الله تعالى، ولكن بخلاف الزكاة، لا نصاب ولا نسبة له.

بعض الناس، يكون حجم نصاب ــ الفرض ــ مسؤوليته بحجم «الكأس»، لقلة النعم الممنوحة له. مع العلم أن البعض الآخر حجم نصاب ـــ الفرض ـ مسؤوليته واسعة مثل «القِدر». ذلك يعني أنه فُرض علينا التكليف بنسَبٍ مختلفة،يعود تقديرها لله تعالى. فكما



أن المكلف بزكاة مقدارها ألف ليرة، بدفعه مائة ليرة لا يوفي دينه، فحامل القِدر، عندما يأخذها وفي أسفلها كأس من الماء، تكون بمثابة الفارغة، فالمسؤولية التي تولدها النعم الأخرى هي نفسها.

ولهذه الرؤية، يتوجب علينا أن لا نعتمد أصلاً على قيامنا بالخير ــ الحسنات والصلاة ــ التضرع، لعدم إمكانية معرفتنا لنصاب المسؤولية بشكل تام التي تتولد من النعم الممنوحة لنا. لذلك ربما تضيع أعمالنا الصالحة داخل الوعاء، لكون سعة وعاء مسؤوليتنا كبيرة.

في عصر السعادة أمثلة كثيرة تتعلق بالموضوع. جاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ، قائلاً إنه سيؤدي الفرائض فقط. فقال عنه رسول الله ﷺ:

"**أفلح إن صدق**"[1] لأن وعاءه مؤلف من الكأس.

مقابل ذلك، فرسول الله ﷺ كان يقول في كل مرة، لمعاذ بن جبل رضي الله عنه الذي كان من الصحابة المختارين وأهل للفضيلة: «وهذا لا يكفي!» وبعد تقديم النصائح المتعددة قال له:

"**أَلَا أُخْبِرُكَ بِمَلَاكِ ذَلِكَ كُلِّه**"

قُلْتُ: بَلَى يَا نَبِيَّ اللَّهِ، فَأَخَذَ بِلِسَانِهِ

قَالَ: "**كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا**"

١ انظر من أجل تفصيلات الحديث: البخاري، الإيمان، ٣٤، الصوم، ١، الشهادات، ٢٦؛ مسلم، الإيمان، ٨-٩.

فَقُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، وَإِنَّا لَمُؤَاخَذُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ؟ فَقَالَ:

"ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا مُعَاذُ، وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ أَوْ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ"[1]

وأخيراً من ناحية حجم المسؤولية، لا يمكننا معرفة ماهية ما نحمله بشكل قطعي، فيما إذا كان كأساً أم وعاءاً كبيراً. أصلاً أنفسنا لا تريد أن نعرف ذلك. لأنه ربما لدينا وعاء كبير، ولكننا نخفف عن أنفسنا بالقول «ستنقذني أعمالي الصالحة، ويكفيني كل هذا الخير و الحسنات، يعني هذا يكفيني، فأنا أملك كأساً». يظن أغلب أصحاب الأوعية الكبيرة، وهم يقيسون أنفسهم بأصحاب الكؤوس: «أنا ملأت وعائي». وأغلب الناس يخففون عن وجدانهم بمقارنة أحوال المجتمع بأحوالهم، وهم في غفلة كمن يريد أن يقيس البحرالأبيض المتوسط بِبَحر مَرْمَرَة (بحر صغير بتركيا).

طبعاً، النعم الممنوحة من الله للأشخاص تختلف عن النعم الممنوحة للمجتمع. لذلك علينا أن لا ننظر للخدمات الذي نقوم بها في سبيل الله كافية، وأن لا نفكر بوصولنا لنهاية الخدمات التي نقوم بها. وأن نثابر بكل ما أوتينا من قوة وحتى آخر نفس فينا، للقيام باللازم من أجل المسؤولية التي ولـّدتها النعم الممنوحة لنا.

١ انظر تفصيلات الحديث: الترمذي، الإيمان، ٨؛ ابن ماجة، الفتن، ١٢/ ٣٩٧٣.



وأيضاً علينا تجنب رؤية أنفسنا معفيين من المثابرة في سبيل الله بسبب الحرمان. في هذا الخصوص تضحيات الصحابة مثال رائع:

شارك الصحابي عبد الله بن أم مكتوم ﷺ، في حملة القادسية قائلاً: «وأنا أحمل الراية» قَالَ أَنَسٌ: فَرَأَيْتُهُ يَوْمَ الْقَادِسِيَّةِ رَاكِبًا وَعَلَيْهِ دِرْعٌ وَمَعَهُ رَايَةٌ سَوْدَاءُ. (تفسير القرطبي، سورة عبس، ١-٤)

على الرغم من إعفائه من الحملة لكونه كفيفاً. أعفي صحابي فقير من الحملة أثناء غزوة تبوك، لعدم تأمينه مركوباً له، وعلى الرغم من ذلك لم يتوانَ عن السفر، مشاركاً أحد الفرسان في المركوب، مقابل الغنائم التي سيهبها له عند الحصول عليها في حال النصر (أبو داود، الجهاد، ١١٣، رقم: ٢٦٧٦). لذلك فهؤلاء الصحابة المباركون، كانوا يعلمون جيداً بأن قيامهم بالتضحيات وتحمُّلهم الأذى عند فعل الخير، وسيلة لتضاعف أجرهم.

إن وسيلة التقرب من الله ﷻ بلوغ النضج القلبي، هي في كل الخدمات المخلصة من أجل البحث عن رضا الله ﷻ.

وبهذه الحالة؛ علينا أن نقوم بالخير بالقدر المستطاع ونخدم دين الله ﷻ، بالتغلب على العقبات الفانية، وأن لا نجلس جانباً قائلين: «أنا معذور» بسبب حرمانات مختلفة مثل الفقر والعجز والمرض.

قال الله تعالى في الآية الكريمة:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾

(محمد، ٧)



لا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة!..

في عصر الأمويين، وصلت الجيوش الإسلامية التي تريد نيلَ بشرى رسول الله بالفتح، إلى مشارف اسطنبول. عَنْ أَسْلَمَ أَبِي عِمْرَانَ قَالَ: غَزَوْنَا مِنَ الْمَدِينَةِ نُرِيدُ الْقُسْطَنْطِينِيَّةَ، وَعَلَى الْجَمَاعَةِ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ، وَالرُّومُ مُلْصِقُو ظُهُورِهِمْ بِحَائِطِ الْمَدِينَةِ، فَحَمَلَ رَجُلٌ عَلَى الْعَدُوِّ، فَقَالَ النَّاسُ: مَهْ مَهْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، يُلْقِي بِيَدَيْهِ إِلَى التَّهْلُكَةِ، فَقَالَ أَبُو أَيُّوبَ:

" إِنَّمَا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِينَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ لَمَّا نَصَرَ اللَّهُ نَبِيَّهُ، وَأَظْهَرَ الْإِسْلَامَ قُلْنَا: هَلُمَّ نُقِيمُ فِي أَمْوَالِنَا وَنُصْلِحُهَا "، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى:

{وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ} (البقرة، ١٩٥) فَالْإِلْقَاءُ بِالْأَيْدِي إِلَى التَّهْلُكَةِ أَنْ نُقِيمَ فِي أَمْوَالِنَا وَنُصْلِحَهَا وَنَدَعَ الْجِهَادَ "، قَالَ أَبُو عِمْرَانَ: «فَلَمْ يَزَلْ أَبُو أَيُّوبَ يُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ حَتَّى دُفِنَ بِالْقُسْطَنْطِينِيَّةِ». (أنظر: أبو داود، الجهاد،٢٢/ ٢٥١٢؛ الترمذي، التفسير،٢/ ٢٩٧٢)

كان عمر بن عبد العزيز في حالة محاسبة وجدان دائمة، حيث قام بأعمال كبيرة خلال فترة خلافته القصيرة التي دامت سنتين ونصف السنة في التاريخ الإسلامي. حيث قال عمر بصوت حزين لزوجته التي كانت تخفف عنه: «يا فاطمة، غداً في يوم الحساب،

إذا سألني ربي عن الناس الذين أحمل مسؤوليتهم في عنقي، وإذا عاتبني رسول الله ﷺ، ولامني، فماذا أقول؟» فتتغير ملامحه كطائر جريح سقط في الماء يتراقص ألماً.

قال الله تعالى في الآيات الكريمة:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران، ١٠٢)

﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ (الحجر، ٩٩)

﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ. وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ (الانشراح، ٧ــ٨).

بموجب الآيات الكريمة هذه، علينا المثابرة على زيادة عشقنا للخدمة دائماً، وإلى آخر نفس فينا. وفي هذا الخصوص أن نتخذ رسول الله ﷺ قدوة لنا. هو الذي كان يصلي الليل حتى الصباح مستغفراً وباكياً، على الرغم من مغفرة كل ذنوبه الماضية والمستقبلية. كان يحمل الحجارة على ظهره المبارك أثناء بناء المسجد. ويجمع الحطب من أجل الطهي عند خروجهم للخلاء.

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه، قَالَ: كُنَّا يَوْمَ بَدْرٍ نَتَعَاقَبُ ثَلَاثَةٌ عَلَى بَعِيرٍ، فَكَانَ عَلِيٌّ وَأَبُو لُبَابَةَ زَمِيلَيْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَكَانَ إِذَا كَانَتْ عُقْبَةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَقُولَانِ لَهُ: ارْكَبْ حَتَّى نَمْشِيَ فَيَقُولُ:

"إِنِّي لَسْتُ بِأَغْنَى عَنِ الْأَجْرِ مِنْكُمَا، وَلَا أَنْتُمَا بِأَقْوَى عَلَى الْمَشْيِ مِنِّي" (الحاكم، المستدرك، جـ٢، ص ١٠٠، رقم ٢٤٥٣)



الخلاصة أنه يتوجب علينا أن نضحي بأنفسنا في سبيل خدمة الحق بقدر طاقاتنا، ولآخر نفس فينا، لعدم إمكانية تعيين نصاب إمكاناتنا وقابليتنا الممنوحة من الله تعالى لنا نحن العباد.

ومن جانب آخر، إن قيامنا بإرشاد وتبليغ الناس المخطئين والمحرومين من الإيمان بوجه إسلامي بشوش ولسان حسن، من أجمل أشكال إيفاء ديون الشكر التي ولدتها نعم الإيمان. ولكن علينا الإنتباه إلى أن الغضب لا يفيد المذنبين بل الرحمة تفيدهم لأنهم مثل الطيور الجريحة. ذلك يعني يجب أن لا يظهر شعور كره الخطيئة إلى المخطئ. فلا يقوم ذلك إلا في مناخ ومحيط تسامحي مستوعباً التصوف بجدارة والأبعد من ذلك بإحساس عميق ونزيه.

أغلب الناس في أيامنا هذه، يعانون من علل عجز إرادة الدين لديهم، علينا أن نكون في حس طبيب يتجـوَّل في ممرات المشفى داخل المجتمع، كما أن مسؤولية الطبيب الإنساني والوجداني تقتضي إيجاد الحلول لمعالجة المريض، يتوجب علينا تحمُّل مسؤولية إرشاد الناس المبتلين بأمراض معنوية.

لأجل ذلك قال رسول الله ﷺ:

"الدين النصيحة" (البخاري، الإيمان،٤٢)

وكرر قوله ثلاث مرات للإشارة إلى لزوم تكرار النصائح.



لا تثقْ بعملك!...

لا يمكن إيفاء ديون شكر النعم الممنوحة بشكل تام بأي عمل يقوم به العبد. ولهذا السبب يرجو كل العباد الصالحين والعارفين وحتى الأنبياء أن يُحاسبوا بالرحمة و عفو الله ﷻ، ليس مقابل أعمالهم فقط.

لذلك قال رسول الله ﷺ داعياً أصحابه أن يعيشوا حياة عبدٍ متوازنة، بعيدة عن الإفراط والتفريط:

"قاربوا وسددوا واعلموا أنه لن ينجو أحد منكم بعمله"

فسأله الصحابة بدهشة:

«يا رسول الله ولا أنت؟». فقال رسول الله ﷺ:

"ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل" (مسلم، المنافقين، ٧٦، ٧٨)

يقول رسول الله ﷺ في حديث شريف آخر:

" لَوْ أَنَّ رَجُلًا يَخِرُّ عَلَى وَجْهِهِ، مِنْ يَوْمِ وُلِدَ إِلَى يَوْمِ يَمُوتُ، هَرَمًا فِي مَرْضَاةِ اللهِ، لَحَقَّرَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ " (أحمد، جـ ٤، ص ١٨٥)

عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي عُمَيْرَةَ، وَكَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:

"لَوْ أَنَّ عَبْدًا خَرَّ عَلَى وَجْهِهِ مِنْ يَوْمِ وُلِدَ، إِلَى أَنْ يَمُوتَ هَرَمًا فِي طَاعَةِ اللهِ، لَحَقَّرَهُ ذَلِكَ الْيَوْمَ، وَلَوَدَّ أَنَّهُ رُدَّ إِلَى الدُّنْيَا كَيْمَا يَزْدَادَ مِنَ الْأَجْرِ وَالثَّوَابِ " (أحمد، جـ ٤، ص ١٨٥)



يعني ذلك أن العابد المؤمن يدرك بأن أعماله ليست كافية لخلاصه. على الرغم من قيام رسول الله ﷺ للصلاة في الليالي إلى درجة تورم قدميه، إلا أنه كان يتوسل لله ﷻ دائماً مبيناً عجز الإنسان في هذا الخصوص:

"اللهُمَّ أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ، وَبِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ"

(مسلم، الصلاة، ٢٢٢)

لذلك يتوجب علينا أن نرجو العفو والكرم من الله ﷻ وأن لا نخفف عن أنفسنا نتيجة أعمالنا، وإلى جانب ذلك أن لا نتخلى عن المثابرة والمواظبة على عبادة الله ﷻ.



الخلاصة، من المحقق أن أعباء المسؤولية الإلهية ستثقل أكثر فأكثر علينا في أيامنا هذه التي هلكت في سراديب الأزمات الروحية وحصار النزوات النفسية واللذات الفانية.

ربنا! اجعل من نصيبنا المثابرة والمواظبة بالقدر المطلوب للقيام بمسؤولياتنا! واعف عن أخطائنا ونواقصنا وشرِّفنا بجنتك وجمالك أجمعين! آمــين...



شعور الأمانة



بلـَّغ رسولُ الله ﷺ بأن للمؤمنين مسؤوليات جسام تجاه بعضهم البعض كمثل البنيان المرصوص والجسد الذي إذا اشتكى منه عضوٌ تداعت له سائر الأعضاء بالسَهَر والحُمّى، ولا يتواءم ولا ينسجم مع أخلاق الإسلام أن يبيتَ المؤمن متخماً وجاره جائع.

شعور الأمانة

تعبير «مؤمن» اسم عام للذين يؤمنون بالله ﷻ، وفي الوقت نفسه كونه منبع أمان وأحدُ أسماء الله الحسنى، ويعبر عن جعل عباده أمينينَ وعن منحهم الِأمان. هو الذي نعتَ أنبياءه بصفة «الأمانة»،وهو الذي جعلهم أهلاً للثقة.بهذا الإعتبار الشخص المؤمن،هو أهلٌ للثقة، ويوحي بالأمان والإيمان.

شعور رعاية الأمانة، عنصر يُحْيي أركان الإيمان. هذا الحديث الشريف تنبيهٌ نبوي باهر وفي نفس الوقت يعبِّر عن هذه الحقيقة:

"إِنَّ اللَّهَ ﷻ إِذَا أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ عَبْدًا، نَزَعَ مِنْهُ الْحَيَاءَ، فَإِذَا نَزَعَ مِنْهُ الْحَيَاءَ، لَمْ تَلْقَهُ إِلَّا مَقِيتًا مُمَقَّتًا، فَإِذَا لَمْ تَلْقَهُ إِلَّا مَقِيتًا مُمَقَّتًا، نُزِعَتْ مِنْهُ الْأَمَانَةُ، فَإِذَا نُزِعَتْ مِنْهُ الْأَمَانَةُ، لَمْ تَلْقَهُ إِلَّا خَائِنًا مُخَوَّنًا، فَإِذَا لَمْ تَلْقَهُ إِلَّا خَائِنًا مُخَوَّنًا، نُزِعَتْ مِنْهُ الرَّحْمَةُ، فَإِذَا نُزِعَتْ مِنْهُ الرَّحْمَةُ، لَمْ تَلْقَهُ إِلَّا رَجِيمًا مُلَعَّنًا، فَإِذَا لَمْ تَلْقَهُ إِلَّا رَجِيمًا مُلَعَّنًا، نُزِعَتْ مِنْهُ رِبْقَةُ الْإِسْلَامِ" (ابن ماجة، الفتن، ٢٧/ ٤٠٥٤)

واحد من شروط صحة الإيمان، شعور الأمانة الذي تمّ تبيانه في الحديث الشريف. لهذا السبب أورد ربنا ﷻ كثيراً من التنبيهات



الإلهية كي نحافظ عليها بحساسية. في بعضها يقول الله تعالى:

﴿...فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ ...﴾ (البقرة، ٢٨٣)

﴿... وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (آل عمران، ١٦١)

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (الأنفال، ٢٧)

﴿... وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ...﴾ (النساء، ٥٨)

الأمانة، واحدةٌ من الصفات الخمسة الفارقة للأنبياء. رسول الله ﷺ، نالَ حتى ثقةَ عرب الجاهلية، لدرجة أنهم وصفوه بصفات «الأمين» و«الصدّيق». حتى أبو جهل العدو الغادر لرسول الله قال ذات يوم: «يا محمد! أنا لا أقول بأنك كاذب. فقط لا أريد ما جئت به من دعوة» معترفاً بشكل ما على تقبُّلِ وجدانه صوابية رسول الله، لكنه مغلوبٌ على نفسه في تلبية الدعوة.

هكذا تبيّن الآية الكريمة هذا الحال، قال الله تعالى:

﴿... فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ (الأنعام، ٣٣)

لا يمكن لأحدٍ أن يطالَ وينال من مقام رسول الله ﷺ بخصوص رعاية العهد والأمانة. أجمل مثال لحاله هذه الحادثة التي رواها عَنْ



عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي الْحَمْسَاءِ رضي الله عنه: «بايعت النبي ﷺ ببيع قبل أن يبعث وبقيت له بقية فوعدته أن آتيه بها في مكانه فنسيت ثم ذكرت بعد ثلاث فجئت فإذا هو في مكانه فقال: «يا فتى شققت عليّ أنا ها هنا منذ ثلاث أنتظرك» (أبو داود، الأدب، ٨٢/ ٤٩٩٦)

عُرِفَ النبي ﷺ من قبل الجميع بأخلاقه السليمة التي تلقـّن الأمانة والعدل والصدق، لذلك أُمُّنَا خديجة من أشرف نساء مكة الأصيلات، عرضت عليه الزواج معجَبة بشمائلهِ هذه.

حتى اليهود أعداء الإسلام كانوا يأتون إليه لثقتهم بصدقه وعدالته حينما كانوا يختلفون فيما بينهم. وكان رسول الله ﷺ يفضُّ خلافاتِهم.

كان أبو سفيان، ألدُّ أعداء الإسلام، في الشام عندما وصلت رسالة الدعوة إلى الإسلام لهِرقل ملك البيزنطيين. سأل هِرقلُ أبا سفيان أسئلة كثيرة متعلقة بالنبي، وخاصة كان يهتمُّ بما وقعت منه أو لم تقع حالةُ عدم الإيفاء بوعده، أو سَبق أن أَتاهُمْ بالكذب أم لا. أما أبو سفيان – على الرغم من كونه عدواً للإسلام وقتذاك – اضطرّ إلى القول بأنه صادق لما وَعد ولم يقـلِ الكذب أبداً.

وهذا أيضاً يبيّن أنه حتى الذين لا يصدّقون بنبوّة رسول الله كانوا يقبلون باستقامته وصدقه. وعندما هاجرَ، كان في ذمته بعض الأمانات العائدة للمشركين، فترك رسول الله ﷺ سيدنا علِيّاً رضي الله عنه وكيلاً لإعطاء الأمانات لأصحابها.

أخيراً، كان كل الناس، المسلم وغير- المسلم، يثقون به. فتحوّل شعور الإستقامة لدى رسول الله ﷺ إلى ظاهرة رقة قلب لدرجة أنه عندما نادت امرأة طفلها: «تعال أعطك»

فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللَّه ﷺ :

"وَمَا أَرَدْتِ أَنْ تُعْطِيهِ؟"

قَالَتْ: «أُعْطِيه تَمْرًا»

فَقَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ:

"أَمَا إِنَّكِ لَوْ لَمْ تُعْطِهِ شَيْئًا كُتِبَتْ عَلَيْكِ كِذْبَةٌ". (أبو داود، الأدب، ٨٠ / ٤٩٩١؛ أحمد، جـ٣، ٤٤٧)

حساسية النبي هذه، كانت تشمل الحيوانات أيضاً، وليس فقط الإنسان. وذات مرة عندما كان عائداً من إحدى أسفاره. كان مجموعة من الصحابة يودّون ويُحبّون فرخين العصفورةٍ بعد أخذهم من العش. وفجأة جاءت العصفورة الأم، بدأت ترفرف بألم عندما لم تجدْ فراخها في العش. بعدما علِم رسول الله ﷺ بذلك أمر بعدم إيذاء العصفورة الأم ووضع الفراخ في أماكنها فوراً. (انظر: أبو داود، الجهاد، ١١٢، رقم ٢٦٧٥)

وهكذا يروي ابن العباس رضي الله عنه: كان أحدهم، يحدُّ سكينه أمام عين الشاة التي ألقاها أرضاً بغية ذبحها. قال رسول الله ﷺ لهذا الشخص: **"أَتُرِيدُ أَنْ تُمِيتَهَا مَوْتَاتٍ هَلَّا حَدَدْتَ شَفْرَتَكَ قَبْلَ أَنْ تُضْجِعَهَا"** (الحاكم، جـ٤، ٢٥٧/ ٧٥٦٣)



لإعتناء رسولُ الله عليه الصلاة والسلام بالمخلوقات من خلال نظرة رأفة الخالق أخبر، بأن امرأةً آثمة نالت تجلي الرحمة الإلهية لإروائها كلباً على وشك الموت من شدة العطش، ودخول امرأة متعبدة النَّارَ لأنها لم تطعم قطتها ومنعَ حتى قطعٍ أُفنُون أخضر. لأجل هذا كان يأمل أن يكون المؤمنون ممثلي السلم والأمن على وجه الأرض فهو يعلم بأن جميع المخلوقات هي أمانة" لله ﷻ.

من وجهة النظر هذه، يجب على كل مؤمن أن يكون ذاك الشخص الذي تكون أمانة الناس وحتى المخلوقات الأخرى في يده ولسانه، صادقاً في أفعاله وأقواله، بشعور انتمائه إلى أمة النبي الموصوف بالصادق والأمين. مستعرضاً الشخصية الإسلامية السليمة لمحيطه. لأجل هذا، الناس يُعجَبون بالوقار والسجية السليمة والشخصيات القدوة ويسيرون على خُطاهم.

قال النبي -عليه الصلاة والسلام- في حديث شريف راجياً تحوُّل شعور الأمانة لدى المؤمنين إلى هوية شخصية:

"أَدِّ الأمانة إلى من ائتمنك ولا تخن من خانك!" (أبو داود، البيوع، ٧٩/ ٣٥٣٤)

أي أن رسول الله ﷺ كان يرى أنَّ تَضْيِيعَ الأمانات هو السبب الأكبر للفساد لدرجة أنه يحوّل حياة الدنيا لمسارح القيامة.

سأل أحدهم رسولَ الله ﷺ ذات يوم أثناء حديثه مع الصحابة:

«متى الساعة؟» فرد رسول الله ﷺ قائلاً:



"فإذا ضُيِعت الأمانة فانتظر الساعة"

وعندما سُئِلَ «كيف إضاعتها؟» قال رسول الله ﷺ:

"إذا وسد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة" (البخاري، العلم، ٢)

الأمانة هي كل ما مُنِحَ للبشر من نِعم. قال الرسول الكريم ﷺ في خطبة الوداع:

"تَرَكْتُ فِيكُمْ أَمْرَيْنِ، لَنْ تَضِلُّوا مَا تَمَسَّكْتُمْ بِهِمَا: كِتَابَ اللهِ وَسُنَّةَ نَبِيِّهِ ﷺ." (الحاكم، جـ١، ص ١٧١، ٣١٨)

على هذا الأساس أقدس الأمانات التي أودعها لنا الله ﷻ ورسوله الكريم هي القرآن الكريم وسنة رسول الله ﷺ.

بلـَّغ رسول الله ﷺ بأن للمؤمنين مسؤوليات جسام تجاه بعضهم البعض، كمثل البنيان لمرصوص، والجسد الذي إذا اشتكى منه عضوٌ تداعت له سائر الجسد بالسهر والحمّى، ولا يتواءم ولا يَنْسجِمُ مع أخلاق الإسلام أن يبيتَ المؤمن متخماً وجاره طاو، وأخيراً بلـَّغ بأن المؤمنين أمانةٌ لبعضهم البعض.

أجدادنا المباركون،الذين هرعوا لنجدة المؤمنين في أقاصي الدنيا مستنفرين كل إمكاناتهم في ظروف تلك الأزمنة، لا يمكن أن يُفسَّر إلا بإدراك أمانة أخلاقِ الإسلام وكنتيجة لإعتبارهم جميع الكائنات أمانة إلهية، أوصلوا الخدمة إلى كل مكان وصلوا إليه،



للنباتات والحيوانات وخصوصاً الإنسان، لذلك أنشؤوا أوقافاً تتجاوز أعدادها ستة وعشرين ألف وقفٍ وفق دساتير الشفقة على الخلائق في سبيل خالقهم.

إخوتنا في الدين الموجودون في البلقان أمانة مراد خان شهيد كوسوفو، أولاد الفاتح في البوسنة التي فُتحت بعد عشرة أعوام من فتح اسطنبول على يد السلطان محمد الفاتح، الفلسطينيون، شعوب وسط آسيا، القفقاس، وأخيراً جميع إخوتنا في الجغرافيا الإسلامية هم أماناتُ أجدادنا. وهكذا أفدوا بحياتهم للغاية نفسها وحاربَ أجدادُنا -الذين جاؤوا من الأمكنة المذكورة - جنباً إلى جنب مع أجدادنا نحن في جنق قلعة. (موقع معركةٍ في حرب استقلال تركيا بُعيد حرب العالمية الأولى)

ومن ناحية أخرى، وطننا العزيز الذي ترفهنا بنعمه أمانةٌ مقدسة ومهمة جداً. فبحماية الوطن يمكن، رفرفة العلم والمحافظة على المُلكية والشرف والعِرض، وإحياء الدين.

هناك حِكم كثيرة في هجرة رسول الله ﷺ إلى المدينة. واحدة منها تأمين وطنٍ ليعيش فيه دِينُه.

في تاريخنا المجيد، تم بناءُ وطن عزيز بإرواء التراب الذي نعيش عليه على مدى العصور بدماء الشهداء الزكية، وبحماس حمل أمانة إعلاء - كلمة الله إلى القارات بدءً من «مالاذغرت» عام

١٠٧١م .أصبح «ألب أرسلان» قدوةً لجيشه عندما ابتغى الشهادة لنفسه قائلاً لجنوده: « اليوم أنا واحدٌ منكم» مكفناً نفسه بالأبيض في «مالاذغرت» متجلياً بشعور المحافظة على هذه الأمانة.

قولُ جنود الفاتح لبعضهم: «اليوم جاء دورُنا في الشهادة» أثناء تسلـُّقهم أسوار الروم بالرغم من النيران والزيت الحارق المصبوب عليهم لهو تعبير عظيم لإحياء أمانة الوطن والإيمان والدين، وحماسة حملها للأجيال المقبلة.

قولُ السلطان سليمان القانوني، وهو ينظر إلى أسطوله المظفر الذي حوّل البحر الأبيض المتوسط إلى بحيرةٍ تركية: «الآن أوان شكرِ الله ﷻ الذي تلطف علينا بهذه النعمة، وليس أوان الفخرِ والغرور».

وأيضاً تعليقُ جيوش العثمانيين خلال ترحالهم ثمنَ ما أُكِلَ من فاكهة أثناء عبورهم الكروم والبساتين على أفانين الأشجار وأغصانها لـَتعبيرٌ آخر عن أيّة مشاعر معنوية حَملتْ أمانةَ الوطن إلى أيامنا هذه.

بعد أن وقع غازي «پِلَوْنَا» عثمان باشا في الأسر أعاد الجزية (الضرائب) التي أُخِذت من غير المسلمين بسبب عدم استطاعته المحافظة على تابعيه، لظاهرة معبرة عن تلاقي العدالة مع الأمانة.

كان حرب الإستقلال ومعركة «جنق قلعة» بنفس وَجْدِ الروح، مملوءة بأوج العزم في المحافظة على أمانة العَلمِ والوطن والشرف



والعِرض والإيمان والدين. لهذا في جنق قلعة عكست صرخة الرائد لـُطفي بـيـِك شعورَ الأمانة الكبير قائلاً:

«مَدَدْ يا محمّد! سيضيع كتابك»

ما أعظم هذه الحادثة المملوءة بالِعبَر التي تعكِس الحالة الروحية لأجدادنا ومدى حملهم وجدَ الإيمان أثناء دفاعهم عن الوطن: كان أحد أيام معركة «جنق قلعة» وقفة عيد الفطر. طلب قائد الجبهة وهيب باشا، إمام السرية التاسعة الشاب و بتردد وحزن قال له:

«أيها الحافظ! غداً عيد الفطر. يريد العسكر بأكمله أداء صلاة العيد. لم أستطع ثنيهم مهما قلت. ولكن هذا الشيء خطيرٌ للغاية. يعني يمكن أن تكون فرصة إبادة جماعية يتقصَّى العدو عنها. فلتقلها أنت أيضاً للعسكر بلسانٍ مناسب!...»

السيد الإمام، بمجرد مغادرته مقرَّ الباشا، صادف شخصاً ذو وجه نوراني قائلاً: «يا بنيَّ! حذار أن تقول شيئاً للجنود! فالصباح رباح؛ لن يكون إلا ما كتبه الله»

في الصباح التالي، عاشوا تجلياً إلهياً ترك الجميع في حيرة. عندما غطّت السحب النازلة من السماء حزماً حزماً العساكر المؤمنين المشبعة قلوبهم بعشق عبودية الله ﷻ. وقوات العدو التي تراقبهم بالمنظار، لم تعد قادرة على رؤية شيء سوى الغيوم الناصعة البياض. في ذاك الصباح كانت تكبيرات صلاة العيد المقامة



بشعور معنوي مختلف، ترتفع إلى السماء موجةً موجة. عندما كان الشخصُ الكهل ذو الوجه النوراني يتلو قسماً من آيات سورة الفتح. كانت أصوات كلمة التوحيد تفور من قلوب الجنود. كانت تُسمَع حتى من بين صفوف العدو كصيحة إيمان.

في هذه الأثناء ظهر اضطراب كبير بين القوات الإنكليزية، لكون بعض جنودهم من المسلمين الذين تمّ جمعهم وجلبهم من المستعمرات الإنكليزية بعد إغرائهم، وبعد سماعهم صيحات التكبير، عرفوا أن الذين يحاربونهم جماعة ٌمسلمة مِثلهم قاموا بالعصيان على أساس ذلك. ارتبك الانكليز في حيرة من أمرهم، وأطلقوا الرصاص على قسم منهم، واضطروا لسحب الآخرين إلى خلف الجبهة على وجه السرعة.

هكذا أمانة الوطن، حملوها على أكتافهم بتجلياتُ النصرة الإلهية وبصدور مؤمِنة إلى يومنا هذا.جنود الأتراك نذروا أنفسهم فداءً للحق، جُبلت قلوبهم بمحبة الله ورسوله، كانوا يسرعون من جبهةٍ إلى جبهة بأمل أن يتحول إلى وصالٍ يُتوّج بالشهادة لحظة لقاء ربهم. لا يفارقون القرآن والأذكار والأوراد بالرغم من معمعة تلك الحرب العظيمة.

لذلك كانوا يعلمون جيداً سيكون الزوال عاقبةَ الذين ضلـّوا في ظلام غفلةٍ عمياء مديرين ظهورهم للقرآن، على عكس ذلك سيكون البقاء لتلك الشعوب التي جعلت من التوحيد عَلماً وأبدَت



الثبات في الدين ولا تحيدُ عن استقامة القرآن.

وهكذا بيّن الحديث الشريف هذا الموضوع:

"إِنَّ اللَّهَ يَرْفَعُ بِهَذَا الْكِتَابِ أَقْوَامًا وَيَضَعُ بِهِ آخَرِينَ" (مسلم، المسافرين، ٢٦٩)

إذاً يجب البحث في التجلّي الإلهي عن حكمة إتيان العثمانيين إلى الخارطة العالمية «كجيوش ينثرون القباب حبات حبات» وجعلهم دولة عالمية مترامية الأطراف تأسست بحرمةٍ أسطورة القرآن الكريم بعدما كانوا عشيرة مؤلفة من أربعمائة خيمة.

وأيضاً في زمن ياووز سليم خان تمّ جلب الأمانات المقدسة إلى اسطنبول وتخصيص غرف خاصة لها في قصر توبْ قابي وعلى رأس تلك الأمانات بدأ تقليدٌ سيستمر لعصور على شكل تلاوة القرآن الكريم وما زالت قراءة القرآن الكريم مستمرة إلى يومنا هذا، ولكون ياووز خان نفسه أول من قرأ القرآن، كان من أوائل المُثل لهذه الحرمة الأسطورية. ولهذا السبب ظلّ العثمانيون حاكمين بشرف ومجد يزيد عن ستمائة سنة نائلين لطفاً إلهياً استثنائياً.

يجب ألا ينسى، أن رعاية الحِكَم في عالم المعنوية، هي السر الكامن في أساس عظمة الساحة الظاهرية والمادية للشعوب. نَبعت عظمة الدولة العُثمانية من إعطاء الأهمية للمعنوية الأصيلة والتي استمرت لأكثر من ستمائة سنة بحيث لم تكن من نصيب أيَّة دولة إسلامية غيرها.



من وجهة النظر هذه واجبنا هو أن ننشئَ جيلاً محباً للوطن، متمسكاً بقيمه المعنوية، ذي إيمان. لأنه بالمحافظة على الوطن يمكنُ المحافظة على المال والروح والعِرض والشرف والإيمان. علينا أن ننقل العَلَمَ الحر وتكبيرات اِلأذان وصدى القرآن وهذا الوطن المبارك، بوضعٍ أكثرُ رفاهية، إلى الأجيال المقبلة، كما قام أجدادنا الذين عاشوا من قبلنا على هذه الأرض بإهدائها لنا باذلين في سبيل ذلك دماءهم وأرواحهم.

لأجل هذا قال الله تعالى:

﴿**ثم لتسألن يومئذ عن النعيم**﴾ (التكاثر، ٨)

من أكبر النعم أن نحيي ديننا وإيماننا في وطن حر. واليوم حالة ٔالاضطراب في فلسطين والمسجد الأقصى التي تئنُ تحت الأسر والظلم لمثالٌ أليم على عاقبة عدم الإنتباه لشعور الأمانة هذا. ويذكـِّر الشاعر المرحوم محمد عاكف أرصوي هذه الحقيقة الكبيرة للأجيال والتاريخ بقوله:

مصير وطنٍ لا صاحب له الانهيار

إن كنتَ صاحب هذا الوطن فلن ينهار!..

من ناحية أخرى، يمكن للشعوب أن تُديم حيويتَها عبر التاريخ بالقيم الثقافية الخاصة ببنيانهم.لذلك فالثقافة أمانة هامة أيضاً. ويشكّل شعور التاريخ واللغة والدين عادةً مرتكزات هذا الشعور.

الدين، غاية الوجود، فهو جملة القوانين الإلهية التي تحضّر العبدَ للسعادة الآخروية وهو الذي ينظم الحياة من المهد إلى اللحد. اللغة هي وسيلة التعبير عن الحقائق الموضوعة من قبله والتاريخ مشعلٌ يضيءُ مستقبل الشعوب بتحليل نتائج وأسباب الحوادث المعاشة التي تحيط بهذين العنصرين. ولهذا السبب لا يمكن التفكير في هذه العناصر الثلاثة كلاً على حدة.

أمانة أجدادنا المقدسة الدين واللغة وإرثُ التاريخ، يعني لا يمكن أن نكون مالكين جديرين بالأمانة الثقافية بإصلاح الآثار المادية التي تحولت إلى خراب فقط، بل بنقلها إلى الأجيال المقبلة وإحياء تلك المدنية والحماس والروح.

عُقمتْ لغتُنا بصورة لا يمكن التفكير الجدي فيها، وتعرّضت للتخريب بتدخّل بعض الجهلة بقصد فصلها عن الثقافة الإسلامية التي كوّنت أسسَ المدنية العثمانية لشعبنا.

وردت ٩٢ ألف كلمة تركية في معجم «رد هاوس» تركي - انكليزي المنشور في عام ١٨٩٠، بينما انخفض هذا العدد إلى ١٥ ألف في القاموس التركي الذي نشره مَجْمعُ اللغة التركية في عام ١٩٤٥ [١].

وفي يومنا هذا ليس من الصعب توقُّع ما بقي من هذا العدد. بهذا الحال، تدهورُ اللغة شاخص أمام الأعين لأية صورةٍ رهيبة

١ من محاضرة للدكتور محمد دوغان المعروف بدراساته حول اللغة التركية.



وصلت بأيدي بعض المفسدين. لذلك إن لم ننقذ لسانَنا، لا يمكن إنقاذ أنفسنا من آلاف المصائب المسلطة على رؤوسنا. فالناس يفكرون بالكلمات وليس من الممكن الإنفتاح بآفاق تأملية إسلامية عميقة بلغة حُرفت وأنقصت كلماتها ومدلولاتها. وإن لم يتمّ ذلك، فإن التفكر الذي يشكل أساس الحركات لن يصل مستوى جدياً.

ولا نستطيع أبداً المقاومة لدرجة كافية أمام تدفق الأفكار التي تهدف بنياننا المعنوي والقومي بأفق تأملي عقيم وسطحي لا يولد أفكاراً سليمة. لذلك يجب عدم الأخذ بالإعتبار اللغة المصطنعة التي تراد من إيرادها تخريب اللفظ والمعنى والتي تخالف شعورنا القومي وثقافتنا القومية.

ومن جانب آخر شرط علينا تعلُّم وتعليم الماهية الحقيقية لتاريخنا. وإلا لا يمكن إيضاح مدنية بشكل سليم – شمول الحياة – بتواريخ كتبها بعض الأجانب أعداء الأتراك و الإسلام والمؤرخون المحليون الدعاة لغاياتٍ مختلفة! لذلك مهمة قومية ودينية عكس إدراك وشعور شعبنا بشكل صحيح للإرث التاريخي الذي تركه لنا أجدادنا.

التاريخ شاهد بأن الشعوب والأفراد ينظمون حياتهم في ضوء التجارب التي مرّوا بها. التاريخ بوتقة الشعوب. لهذا السبب الشعوب بحاجة دائمة إلى الإرشادات والتنبيهات المنبثقة من



الحوادث التاريخية. أي شعبٍ لا يكون عظيماً ومتقدماً إلا بمدى تقديره المناسب لمعرفة تاريخه الحقيقي ومرشديه مادياً ومعنوياً.

لا خوف من مستقبل الأجيال الناشئة إذا اتعظوا بما يلزم من العبر الماضية وعرفوا تاريخهم أكثر من غيرهم! لن يكون في مستقبل آمن أبداً، من لا يستند على الماضي. وهكذا لنعمق جذورنا في الماضي، ولنمدّ فروعنا إلى المستقبل.

من الخطأ الفادح تصوّر علم التاريخ مجرّد تراكم أحداثٍ عادية. علم التاريخ علمٌ حكيم يبين أساس الخطأ والصواب، والباطل والحق في ماضي الشعوب المملوء بالأحداث المختلفة، واستنباطُ العبر والدروس اللازمة منها ومعرفة هذا الأساس الصحيح شرطٌ لإعطاء منظومة بصورة مثالية لمستقل الشعوب.

جميلٌ قول الشاعر المرحوم محمد عاكف أرصُوي:

يُعرّفون التاريخ بأنه تكرارٌ

لو اُعتبر منه هل كان تكرر!...

يعلمنا تاريخنا، بأنه لا يمكن وضع الأسد في الأسر. كما لا يرضى الأسد بالأسر، وهذا الشعب بمدى دفاعه عن خصائصه لن يرضخ للأسر.



أجدادنا كانوا مجتمعاً مترفعاً بأساس الإيمان. حافظوا على مشاعرهم المادية والمعنوية ببذل أرواحهم فداءً لذلك، ولم يُذلوا أبداً.

عندما ننصهر مع القيم المعنوية والقومية لأجدادنا، سنكون حاملين شرف الأمانات المقدسة التي تركوها لنا. وبعكس ذلك ضلالٌ يدعو إلى دهشة عندما نقف مكتوفي الأيدي أمام نهب قيمنا المعنوية والقومية، وضياع الأمانة نتيجة ذلك.

كي لا نضطرّ إلى دفع أثمان كبيرة غداً،علينا اليوم المثابرة بجدارة للمحافظة على الأمانات المكتسبة المبذولة في سبيلها أرواح عديدة. حقيقة تاريخية ستفقد الأمانات غير المحمية ولن نحوزها إلا بمدى جدارتنا بها

ربّنا، وفـِّقنا وذُرِّيَتَنا في المحافظة على أماناتنا المقدسة! وتفضّل بمحافظتنا من الوقوع في مستنقع الغفلة بأداء وارث غافل بهذه المواضيع! واجعل من نصيبنا جميعاً أن نمثلَ أمامك بقلبٍ مستريح مُوفين حق الواجبات المترتبة علينا من الأمانات الملقاة على عاتقنا! آمـين...



التفكر



عندما ننظر إلى الكون والكائنات بتمعن، فإننا نُواجه بأسئلة كثيرة أجوبتها دفينة في أعماق روحنا:

من أين أتينا إلى هذا العالم؟ ما هو هذا الكون؟ في مُلك من نعيش؟ وكيف نعيش؟ و كيف نفكر؟ ما وجهة السفر؟ ما هي حقيقة الحياة الفانية؟ متى يظهر سر حقيقة الموت؟ وكيف نتهيأ له؟..



الروح المتعمِّقة في التأمل يدرك أن:

«الكعبة قبلة الجسد في العبادة، وقبلة الروح في كل نفس، هي الحق تعالى»

التفـــكر

التفكر ملكة حياتية، لم تمنح للإنسان فقط، وإنما للكائنات كلها. هذه الملكة، تستخدم بشكل يلائم خليقة كل كائن وعالمه الخاص. مركز الثقل عائد أكثر إلى المخططات النفسية والجسمية. فأولوية الخطط تكون في خصوصيات مثلٍ القدرة على ديمومة النسل والعيش في رفاه، والمأكل والمشرب. لذلك فتأمل طائر جارح يتجه إلى الفريسة فقط في تقطيعها وإشباع غريزته. ولا يملك غير ذلك من الهموم مثل التفكير في المستقبل والكينونة والحياة. فقابلية التفكر الممنوحة كافية لهذا القدر فقط.

أما بخصوص الإنسان...فإن وضعه مختلف...

التفكر الروحي والنفسي

الإنسان فضائله ومسؤولياته كبيرة، لأنه خلق كقرة عين الكائنات وأشرف الخلق. لذلك مُنح ملكة تأملٍ واسعة.

لأن الإنسان حاز على الشرف الإنساني بالتفكر الروحي وبارتقاء نفسه فقط نال جمالَ الله والجنة، لا بالتفكر النفسي وصفات أخرى يشبه المخلوقات الأخرى من جهة استمرارية النسل والعيش والمأكل والمشرب.



ولكن الإنسان، إذا لم ينمِّ بنيته الروحية فإنه ومع الأسف يكون مهلكاً لاستعداده التفكري في دوامة النزوات النفسية. حياة ضالة كهذه، عبارة عن ندم وحسرة على ما فقد في أيام الشيخوخة وغفلة عند البلوغ، وشهوة عند الشباب، ولعب عند الطفولة. إن الوقوع في سراديب النزوات والأهواء النفسية في جمع المال والملك والمأكل والمشرب، إضرار لِنعم التفكر الممنوحة من الله.

قال أحد المتأملين الواصل إلى أعماق الروح، ملخصاً هذه الحقيقة: «هذا الكون للعقلاء تأمل وكشف المعجزات الإلهية بعبر. أما بالنسبة للحمقى فهو شهوة ومأكل!»

لذلك فالخاصية التي تجعل من الإنسان إنساناً، هو عمق تأمله الروحي الذي ينميه في مناخ الشعور. إن الله تعالى يريد من عباده أن يظهروا سواء في عبادتهم أو إيمانهم، شعوراً وإدراكاً كبيرين. هذا ويمكن بالتفكر فقط تدفق القدرة والعظمة الإلهية.

ارتقاء الروح

من أهم مسؤوليات العبد الارتقاء بالروح والتعمق في التفكر. لذلك لا يمكن الوصول إلى كمال الأخلاق، واللطف في المعاملة، والفوز برقة القلب، والخشوع في العبادة، إلا في ارتقاء الروح بالتفكر. حقيقة لو نظرنا إلى أسرار القدرة الإلهية بعين العبرة، نرى لوحات حِكمٍ لا تحصى. فمثلاً قيام طفل في العاشرة بسحب فيل



يزن الأطنان ..وقدرة فيروس(جُرْثومة) لا يرى بالعين المجردة على إيقاع مصارع لا يُغلب في فراش الموت... وبهذه الحالة من القوي ومن الضعيف؟ وما هو معيار القوة أو العجز، والثراء أو الحرمان؟

وعندما ننظر إلى الكائنات والحياة بعبرة، نجد أسئلة أخرى كثيرة أجوبتها دفينة في أعماق روحنا:

من أين أتينا إلى هذا الكون؟ لماذا خلقنا؟ ما هو هذا الكون؟ في ملك من نعيش؟ كيف نعيش؟ كيف نفكر؟ إلى أين السفر؟ ما هي حقيقة الحياة الفانية؟ كيف يُحل لغز حقيقة الموت؟ وكيف يُحضّر له؟ إذاً هكذا تأملات، تسوق العبد إلى إدراك عجزه وعدمه أمام تجليات العظمة والقدرة الإلهية مسترشداً بالسنة والقرآن.

ويُذكّر الإنسان الذي خـُلق من العدم كِبر خطئية عند الإدعاء بالشخصية والثراء.

في الحقيقة الإنسان بحاجة إلى ربه دائماً. وبما أن كل الكائنات بحاجة إلى قدرة كبيرة من أجل البقاء على الحياة والوجود، فإن الإنسان بحاجة إلى نفس القدرة. ولغفلة حزينة أن لا يدرك ذلك.

أما المؤمنون الذين وصلوا إلى قوام روح سام يحصلون بالتفكر على روحانية وفوز عالٍ في العبادات وحياة العبودية.

يدرك الروح المترقي بالتفكر أنّ:

«قبلة الجسد في العبادة الكعبة، أما قبلة الروح في كل نفس، فهي الحق تعالى»

من أجل ذلك قال سيدنا علي رضي الله عنه:

«...إِنَّهُ لاَ خَيْرَ فِى عِبَادَةٍ لاَ عِلْمَ فِيهَا وَلاَ عِلْمَ لاَ فَهْمَ فِيهِ وَلاَ قِرَاءَةَ لاَ تَدَبُّرَ فِيهَا» (سنن الدارمي، المقدمة، ٢٩)

لذلك فعبادة غافلة عن الحق تفقد قيمتها درجة درجة، وأحيانا تبقى عبارة عن تعب فقط.

ولهذا السبب أولياء الحق عز وجل أيضاً نَصَحُوا بلزوم أداء الرعاية لجانب التفكر في العبادات، يعني الصيام بتأمل معاناة المحتاجين واعتباره تقديراً للنعم، والصلاة بالتفكير على أنه آخر صلاة.

قال أبو الدرداء رضي الله عنه:

«تَفَكُّرُ سَاعَةٍ خَيْرٌ مِنْ قِيَامِ لَيْلَةٍ» (الديلمي، جـ ٢، ص ٧٠-٧١، رقم ٢٣٩٧، ٢٤٠٠)

لذلك تفكر كهذا يعمق الأحاسيس ويسهل العبادات، ويزيد حالة الخشوع والشكر.

كما أن الاعتقاد التام واجب في الدين، فإن العبادة ضرورة. ولكن ما يجعل العبادات مقبولة، هو إيفاؤها بظرافة ورقة ويقظة معنوية، في مناخ تأملي ينفذ إلى القلب. وبفضل ذلك يتقرب العبد من ربه. وأهم حصيلة للصحابة الكرام وتابعيهم المخلصين والمؤمنين الصالحين أن يكونوا من أصحاب هذا القوام القلبي.

لذلك كان يقول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه لأصحابه من أهل العبادة: «أنتم تجاهدون وتصلون أكثر من الصحابة، ولكنهم أكثر زهداً منكم تجاه العالم، وأكثر رغبة منكم تجاه الآخرة»



ربنا يطلب منا نحن العباد أن نكون متأملين بكرمه الذي لا يحصى لنا، وبحِكمه وسر نظامه الكبير في الكائنات، وعظمته وقدرته الإلهيتين لنا نحن العباد، وأن ندرك نتيجة هذا التفكر بأن الدنيا فانية، وبأن الحياة الحقيقية هي حياة الآخرة، وأن نكون في شعور التواضع والعدم، على التقوى وأن نكون عباداً صالحين.

التفكر في حياة رسول الله ﷺ

إن حياة رسول الله ﷺ المثالية، تضع أمامنا وبشكل واضح مدى لزوم التفكر في الارتقاء المعنوي رغبة من الله ﷻ لنا نحن العباد. فلم يبتعد رسول الله ﷺ ولو للحظة واحدة عن مراقبته وتأمله، وذكر الله، فقلبه يظل يقظاً دائماً حتى لو نامت عيناه، ويستمر في عبادته وتعبّده وعيونه تدمع لدرجة تورم قدميه في الليالي.

نقلت أمنا عائشة رضي الله عنها مثالاً عن آفاق تأمل رسول الله ﷺ ورقة قلبه على الشكل التالي: قال لي رسول الله ﷺ في إحدى الليالي:

"يَا عَائِشَةُ ذَرِينِي أَتَعَبَّدُ اللَّيْلَةَ لِرَبِّي"

قُلْتُ وَاللَّهِ إِنِّي لَأُحِبُّ قُرْبَكَ وَأُحِبُّ مَا سَرَّكَ قَالَتْ فَقَامَ فَتَطَهَّرَ ثُمَّ قَامَ يُصَلِّي قَالَتْ فَلَمْ يَزَلْ يَبْكِي حَتَّى بَلَّ حِجْرَهُ قَالَتْ ثُمَّ بَكَى فَلَمْ يَزَلْ يَبْكِي حَتَّى بَلَّ لِحْيَتَهُ قَالَتْ ثُمَّ بَكَى فَلَمْ يَزَلْ يَبْكِي حَتَّى بَلَّ الْأَرْضَ فَجَاءَ بِلَالٌ يُؤْذِنُهُ بِالصَّلَاةِ فَلَمَّا رَآهُ يَبْكِي قَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ لِمَ

تَبْكِي وَقَدْ غَفَرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ وَمَا تَأَخَّرَ قَالَ:

"أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا لَقَدْ نَزَلَتْ عَلَيَّ اللَّيْلَةَ آيَةٌ وَيْلٌ لِمَنْ قَرَأَهَا وَلَمْ يَتَفَكَّرْ فِيهَا" وتلا الآية الكريمة:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ. الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (آل عمران، ١٩٠ـ ١٩١) (ابن حبان، جـ٢، ٣٨٦)

إذاً لقد بكى رسول الله ﷺ تلك الليلة التي نزلت فيها الآية الكريمة حتى الصباح لدرجة غار ندى الورود من ذلك. فالدموع التي سيذرفها المؤمنون بتأمل تجليات العظمة والقدرة الإلهية، ستكون بلطف من الله، زينة الليالي الفانية، ونور ظلمات القبر، وندى بساتين الجنة.

كان رسول الله ﷺ حتى قبل التكليف بالرسالة في خصوص الحكم الإلهي في التفكر تابعاً لحياة التفكر والإنزواء الذي يقوم به في غار حِراء. كانت عبادة رسول الله ﷺ وتأمله في حراء على شكل مشاهدة الكعبة[1] وتلقي العبر من ملكوت السموات والأرض مثل جده إبراهيم عليه السلام. فكان رسول الله ﷺ في حال تأمل وحزن دائم في تلك الأيام و الأيام اللاحقة.فكان كلامه ذكر، وسكوته تأمل.

١ العيني، عمدة القارئ في شرح صحيح البخاري، بيروت، إدارة الطباعة المنيرية، جـ١، ٦١؛ جـ١٤، ١٢٨.



لأجل ذلك قال رسول الله ﷺ:

"أمرني ربي بتسعٍ...وأن يكون صمتي فِكراً..."[1] فأوصيكم بذلك

"تَفَكَّرُوا فِي آلَاءِ اللَّهِ، وَلَا تَفَكَّرُوا فِي اللَّهِ " (الديلمي، جـ٢، ٥٦، الهيثمي، جـ١، ٨١)

"لا عبادة كالتفكر" (علي المتقي، جـ ١٧، ١٢١)

قال أحمد الرفاعي ـ قدس سره- :

«التفكر، في عمل الرسول الله ﷺ، فعبادته قبل الفرائض، كانت عبارة عن تأمل في نعم ومخلوقات الله ﷻ، لذلك عليكم التمسك بالتفكر جيداً واجعلوه وسيلة للعبرة»

الخلاصة، يجب علينا أن نعيش في مناخ تأملي بقلب يستعرض الحياة والكائنات بحِكم عميقة كي نستحق نيل شرف كوننا من أمة فخر الكائنات.

عمق التفكر عند صحابي كفيف

الرائع رقة التفكر الذي يستعرضه الصحابة الكرام عند الوقوف على أحداثهم وحياتهم الذين نشؤوا على التربية المعنوية لرسول الله ﷺ، وهذه واحدة منها:

عند الخروج إلى حملة القادسية، أراد الصحابي الكفيف عبد الله بن أم مكتوم الإشتراك مع الجيش بحماس وإيمان كبيرين، إلا

١ انظر: الجزري، جامع الأصول، ١١، ص ٦٨٧، ٩٣١٧.



أن الصحابي المبارك غرق في حزن كبير،عندما قيل له بأنه معفى وعندما تأمل وضعه بشعور العبودية وأفق إيمانيّ عالٍ، كان رده رائعاً ـ بحسب الرواية ـ على قائلي إعفائه من الحرب، فقال:

«قد أفيدكم وأنا على هذا الحال. لن أرى سيوف الأعداء كوني كفيفاً، سأحمل الراية وأنا في المقدمة بلا خوف، مما يرفع حماس وشجاعة جنود المسلمين عندما يجدونني سباقاً في ملاقاة العدو»

انها نصيحة رائعة لكاملي القوى والمبصرين حال هذا الصحابي الكفيف عبد الله بن أم مكتوم.

قراءة الحياة والكائنات بالتفكر

لم يُخلق أي شيء في الكائنات عبثاً، تتبين غاية وحكمة الخليقة في لسان حال كل ذرة بلسان خاص بها جاذبة القلوب إلى الإيمان ومحبة الله. إذاً فالتفكر الحقيقي هو قراءة هذه البيانات كما ينبغي.

ليس كافياً لإدراك راشد متابعة أحداث وحياة الكائنات بطرف العين. المتابعة تستوجب إنضاجها بالتفكر الذي يعتبر من الفعاليات المشتركة القلبية والذهنية، وتحقيق ذلك بصورة المتابعة بعين العبرة.

ولكن بفضل تجليات القدرة الإلهية في الكائنات، يكتسب الروح نضجاً وقوة، وحركة مغايرة. أصلاً لا شيء، يطمئن إلى اشتياق التفكر لدى الإنسان إلا محبة خالق الكائنات والوقوف عند



وجوده. لذلك قال الله ﷻ في الآية الكريمة:

﴿...أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ (الرعد، ٢٨)

ربنا،جَعَلَ لكل شيء وكل حادثة في العالم، أسباباً واضحة وشاملة، وترك للعلوم الإنشغال في الكشف عن هذه الأسباب. ولكن الحق تعالى هو مسبب الأسباب، فتصبح كل أنواع الفكر والعلم عبارة عن تعب في دهاليز لا مخرج لها وناقصة فيما إذا لم يتوصل إدراك الإنسان إلى أن خالق الأسباب هو الحق تعالى.

للتخلص من التعب العبثي والمتاهات أولاً يجب الإدراك بتأمل معنوي معنى أمر ربنا بـأن «اقرأ». وبعدها تطبيق هذا الأمر على كل صفحات الأحداث في الحياة. لأن هذه الكيفية، تمنح الإنسان منبع «الحكمة» بالتوصل إلى سبب الأسباب. فيبدأ نضوج الشعور والإدراك، فيصل القلب والعقل إلى حالة معرفة مراد الحق تعالى من كل حادثة.

التصوف: طريق التعمق في الحكمة

كثير من الشخصيات المتعبدة الذين نشؤوا من جوهر التفكر هم حصيلة لمثل هذه البركة الروحانية. ومن وجهة النظر هذه فالتصوّف هو طريق قطع المسافات إلى الحق للتعمق بحكمه. وهو ليس اعتزال للدنيا قطعاً، وكما قال يونس أمرة: ليس الاكتفاء بأذكار وأوراد محددة أو ارتداء الجبة والتاج.

هذا يعني أن التصوف هو القدرة على قطع المسافة في الإذعان، والقدرة على قطع الطريق في الإدراك، وأن نكون في حالة محاسبة النفس، وقبل كل شيء تأمل مسؤولياتنا. واختصاراً هو الوصول بالتفكر إلى نهاية المعراج الأبدي بالترفع مرحلة مرحلة والتعمق في التفكر الروحاني للتخلص من الأفكار النفسية المختلفة. قال الإمام الغزالي ــ قدس سره ــ:

«إذا أردت أن تكون من العارفين، فليكن سكوتك تأملاً، ونظرتك عِبرة، ورغبتك طاعة. لذلك فعلامة العارفين هي هذه المكتسبات الثلاثة»

وللتأمل مكانة مهمة جداً في تحقيق النضوج الروحي للتصوف. لأنه مثلاً، يجب عرض الأعمال للحق ضمن مقاييس القلب السليم، أي بقلب رقيق، وليس القيام بها بلا هدف. وطبعاً هذا يحصل عند صاحب تأمل شعوري.

التفكر في الموت

إن ارتقاء الروح وانبعاث القلب، ممكنان فقط بالتخلص من النفسانية. قال رسول الله ﷺ بصدد تعبيره عن أصول ذلك:

"أكثروا ذكر هاذم اللذات" (الترمذي، القيامة، ٢٦)

حقيقة إن حياة الدنيا الفانية لحظة آنية قصيرة، مقارنة مع الحياة الأبدية في الآخرة. فأي عقل يعمل على تفضيل الآن على الأبدية،



ويخسر السعادة الأبدية من أجل النزوات الآنية؟. التراب الذي نطؤُهُ مملوء بأجساد الملايين من الناس الذين جاؤُا إلى يومنا هذا. وكأنها ظلال تكدست فوق بعضها البعض...فدخلوا إلى هذا الكون الذي يعتبر نزلاً مؤلفاً من بابين. من أحد بابيها عاشوا الحياة الدنيوية بممراتها الضيقة المملوءة بالأحاسيس والتصرفات الروحانية أو النفسانية، وانتقلوا أخيراً إلى العالم الأبدي من باب القبر. سيأتي يوم سنكون نحن أيضاً بهذا الوضع. سيأتي يوم لا غد فيه! ذلك اليوم سيكون يوماً مجهولاً لنا جميعاً!

إذاً تأمل الموت،هو تذكر الموت دائماً قبل أن يأتي ذلك اليوم المجهول. وجعل شعور التحضير للمثول أمام ربنا ﷻ حالة دائمة بالإبتعاد عن رغبات النفس وشهواتها. فالغاية هي القدرة على تجميل الموت، وحماية أنفسنا من مشاهد الموت المرعبة.

فبيان ربنا في ذلك واضح وصريح:

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ (العنكبوت، ٥٧)

وأخيراً الكائنات والحياة مدرسةُ عِبَر إلهية...فواجبٌ علينا أن نكون طلاباً مثابرين ومخلصين في هذه المدرسة...وأن لا نقع في غفلة المكوث في الدنيا المضيفة الفانية بداء البقاء....

إذا أدرك الإنسان عذاب الآخرة متغلباً على حواجز النفس نتيجة تأمله بالموت، فالموت يعد شرطاً واجباً للوصال الإلهي

العظيم والرائع الأبعد من الخيال. وبذلك يتحول شعور الموت الذي يسبب على الأغلب رعشة باردة لدى الناس، إلى وصال ممتع. وهكذا موت يعتبر ليلة زفاف، بتعبير جلال الدين الرومي الذي يعتبر من كبار طريق التصوف.



الخلاصة أن التفكر هو أحد أكثر الصفات التي نحتاج إليها. إن عيشنا خصوصية التفكر بجدارة، مرتبط بعدم حصر أفقنا القلبي بأمور الدنيا فقط، واستقامة معاملاتنا، وأداء عباداتنا بخشوع، وأن نفوز بقوة الإيمان، ونتعمق بروحنا.

ربنا،أحسن النضج لإدراكنا وشعورنا! وأكرم على قلوبنا أحاسيس المناخ التفكري لرسول الله ﷺ والصحابة الكرام وأولياء الله ﷻ! وأن تنال قلوبنا وأدمغتنا التي تقع أسيراً للأفكار النفسية والدنيوية الهدوءَ والسكونَ والحضور بأفكار ومشاعر سامية! واجعل من نصيبنا تطبيق التفكر في حياتنا لمعرفة الأمر الإلهي «اقرأ» ومشاهدة الأحداث والحياة بعين العبرة ونور الإيمان وسهِّلْ ذلك علينا! آمين...





اشعاعات الحكمة

من عالم

مولانا جلال الدين الرومي



لا يطوي الماضي مناصري الحق حتى بعدما يطوي التراب أبدانهم الفانية. لأن قلوب المؤمنين كامِلوا الإيمانِ لا تتفسخ تحت التراب وتفنى. لهذا السبب لا تفنى أيضاً أعمالهم التي هي ثمرات قلوبهم. كثير من أنصار الحق الذين يواصلون تقديم خدماتهم الدنيوية في البرزخ أيضاً، ما زالوا أحياء بيننا اليوم، ويهدوننا إلى السواء. وبعد وفاتنا سيواصلون الحياة في القلوب عن طريق إرشاداتهم.





اشعاعات الحكمة

من عالَم

مولانا جلال الدين الرومي

(بمناسبة العام الدولي لمولانا جلال الدين الرومي)

إن أنصار الحق هم ورثة الرسول ﷺ الذي عاش تجربة الإيمان بشغف. إنهم أولئك السعداء الذين بلغت قلوبهم الكمال في جمال الأخلاق والسلوك، بفيض النور الذي استمدوه من القرآن الكريم والسنة الشريفة. إنهم النماذج التي يجب أن يقتدى بهم بالنسبة لمن لم يعاصروا الرسول ﷺ، وصحابته المقربين.

لا يطوي الماضي مناصري الحق حتى بعدما يطوي التراب أبدانهم الفانية. لأن قلوب المؤمنين كاملي الإيمان لا تتفسخ تحت التراب وتفنى. لهذا السبب لا تفنى أيضاً أعمالهم التي هي ثمرات قلوبهم. كثير من أنصار الحق الذين يواصلون تقديم خدماتهم الدنيوية في البرزخ أيضاً، ما زالوا أحياء بيننا اليوم، ويهدوننا إلى السواء. وبعد وفاتنا سيواصلون الحياة في القلوب عن طريق إرشاداتهم. إن المدى الزمني لإرشادهم يتجاوز العصور والأمصار، بما يتناسب وقربهم من الحق. كذلك الحال مع كلامهم



الحكيم وأعمالهم المكتوبة الصادرة من قلوبهم المخلصة، فهي بمثابة رسائل موجهة إلى مجهولين في المستقبل. إن هذه الرسائل تصل حتى إلى أماكن تم اكتشافها بعد قرون على رحيلهم.

معلوم مثلاً أن كتاب المثنوي لمولانا جلال الدين الرومي، هو من بين الكتب التي تلقى اهتماماً كبيراً في القارة الأميركية اليوم، في ميدان الكتب المهتمة بالروح الإنسانية. أضف إلى ذلك أن إعلان منظمة اليونسكو لعام ٢٠٠٧، عاماً لإحياء ذكرى مولانا جلال الدين الرومي، بمناسبة مرور ثمانية قرون على ميلاده، هو حدث لافت يشير إلى مدى الإهتمام به.

معنى ذلك أن رسالة الإرشاد التي كتبها بإخلاص إلى البشرية قبل قرون، نصيرُ الحق الجليل هذا، تلقى اليوم التجاوب وتثير الحماسة في العالم أجمع. فكتاب المثنوي يساعد الإنسان على معرفة نفسه وحل مشكلاته المعنوية، من خلال تسليط الضوء على عالمه الداخلي. إنه يمنح الطمأنينة والهدوء لروح الإنسان التي تسحقها العقلية المادية لعصرنا، ويشكل وسيلةً للهداية.

جعل الله تعالى من نصيب عباده الأولياء تجليات متنوعة. لهذا السبب فإن أنصار الحق هم مشاعل إرشاد وهداية للبشرية، يختلفُ بعضهم عن بعض باختلاف التجليات التي خُصوا بها في عالم المعاني، وهي تجليات محبة الحق وإجلال الحق ومعرفة الحق بالقلوب.



لقد وقع بعض أنصار الحق، أمام العظمة الإلهية، في وديان الحيرة والعجب، فعاشوا حياتهم منزوين في الصمت، بلا صوت أو كلام أو لسان، وأمضوا أعمارهم الفانية في شعرية صمتٍ روحاني. يقول ابن عباس عن أمثال هؤلاء: «**ثمة من عباد الله من ذوي البلاغة من دفعتهم محبة الحق وإجلاله إلى الإعتصام بالصمت**»

وهناك قسم آخر من أهل الله ﷻ، يفضِّلون التقليل من الكلام، كبهاء الدين النقشبند، كلفتهم العناية الإلهية بإرشاد ذوي الإدراك العرفاني بواسطة لسان الحال أو منهج السلوك. مثلاً هذا البيت المفعم بالدلالات للنقشبندي، يلخِّصُ منهجه في التربية بأسلوبه السهل الممتنع:

العالم قمح وأنا تبن

العالم كامل، وأنا ذو نقص

لا شك أن العمل الأهم لسيدنا النقشبندي هو تلك الشخصيات المجازية التي أنبَتَها على مرآة ذاته. على مر العصور، قرأَتْ تلك الشخصيات الحكمَ المبثوثة في سطور قلبه، ونقلتها عن طريق المحاورات من القلوب إلى القلوب، وما زالت تنقلها إلى اليوم.

يكمن في أساس تفضيل سيدنا النقشبندي للصمت على الكلام، سلوك أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وتوصيته القائلة:

«**فكر ملياً بما تقول ومتى تقول ولمن تقول**»



بالمقابل جعل الله تعالى، في تجلٍ مختلف، بعض عباده الأولياء بلابل تشدو بالعشق الإلهي، كمثل يونس أمرة.

وجعل بعضاً آخر ينبوع معانٍ تتدفق الحكمة من قلوبهم وألسنتهم، كمثل مولانا جلال الدين الرومي.

مولانا جلال الدين الرومي بالأخص، كُلِّفَ بالبيان اللغوي، إضافةً إلى سيرته ومسلكه. لذلك يواصل عاشق الحق هذا، منذ قرون، إحياء القلوب العطشى للحق والباحثة عنه، بقلمه وكلامه وثمرات قلبه وأحاديثه المشرقة.

مولانا جلال الدين الحائز على التجليات الكثيفة لصفة الكلام الربانية، يكاد أن يكون، بهذا الجانب، الناطق باسم أنصار الحق. أي أنه عكسَ ما أنعم الله به عليه من علم وعرفان وسر وحكمة في مرآة الكلمات، بفضل ما وُهِبَ به من ملكة بيان وتعبير استثنائية. لكن هذا التعبير لا يتجاوز حدود ما أُذِنَ له به. من زاوية النظر هذه، ينبغي ألا نظن أن الأسرار والحِكَم الإلهيين اللذين امتلكهما مولانا جلال الدين، يقتصران على ما عكسه منهما في الكلمات. من يعلم كم من درر المعاني القيّمة ينطوي عليه قلب عاشق الحق الجليل هذا، الشاسع كالبحر، مما بقي مخبوءاً عن الأنظار.

لا شك أن مصدر إلهام مولانا جلال الدين هو القرآن والسنة، مثله في ذلك مثل جميع أنصار الحق، الأمر الذي يعلنه على الملأ



في إحدى رباعياته، بالقول:

«ما دام روحي موجوداً، فأنا عبد للقرآن، أنا التراب على درب محمد المختار ﷺ. إذا نقل أي شخص عني أدنى معنى غير هذا، فهذا الشخص وكلامه يجرحانني ويثيران اشمئزازي»

بهذا البيان، يقدم مولانا جلال الدين الرومي نفسه بوضوح بوصفه «عبداً للقرآن، وتراباً في درب رسول الله المنوّر».

هذا ما جعل منه عالماً هو ينبوع حكمة، وعارفاً هو مترجم الأسرار الإلهية، يوجِّهُ القلوب نحو الصراط المستقيم، بفيض الإلهام الذي استمده من القرآن والسنة.

يخبرنا سيدنا الرسول ﷺ في الحديث الشريف، عن وصايا النبي لقمان عليه السلام، إلى ابنه:

"إِنَّ لُقْمَانَ قَالَ لِابْنِهِ: يَا بُنَيَّ، عَلَيْكَ بِمُجَالَسَةِ الْعُلَمَاءِ، وَاسْمَعْ كَلَامَ الْحُكَمَاءِ، فَإِنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْقَلْبَ الْمَيِّتَ بِنُورِ الْحِكْمَةِ كَمَا يُحْيِي الْأَرْضَ الْمَيِّتَةَ بِوَابِلِ الْمَطَرِ" (الهيثمي، جـ١، ١٢٥)

إليكم من سلطان العارفين مولانا جلال الدين الرومي، ما قاله بصدد أخلاق الإسلام، في تعابير حكيمة هي بمثابة الشرح لمعايير القرآن والسنة.



الأدب في الصبر والتحمُّل

جاء في الآية الكريمة:

﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ (الفرقان، ٦٣)

بإلهام من هذه الآية الكريمة، قال مولانا جلال الدين -قدس سره-:

«كن صامتاً ككتاب، في محضر الجاهل»

«إذا نعبت الغربان، سكتت البلابل»

«لتعرف أن الأدب ليس إلا مواجهة سفاهة السفيه بالصبر والتحمل»

تحمل العذاب يُنضِجُ القلوب. فالتحمل هو أعظم آداب الإمتحان في عالم الشقاء، إلى حد أن هذه الخصلة هي مقياسٌ من مقاييس الإيمان. يقول مولانا جلال الدين، بهذا المعنى:

«سأل عقلي قلبي: ما الدين؟ فانحنى قلبي على أذن عقلي وهمس له قائلاً: الدين هو الأدب»

ومنبع الأدب هو الرسول، عليه الصلاة والسلام. وصَفَه الصحابة الكرام بأنه كان (أشد حياء من العذراء في خدرها) واذا كره شيئاً عرف في وجهه (البخاري، المناقب، ٢٣)

«سبب رائحة الورد الطيبة هو تحمُّلها للشوك، لأن الشوك هو صديق الورد»



العالم مملوء بآلاف الأمثلة بلا صوت أو كلام، من أجل القلوب المتعطشة للحق. فالوردة التي تتحمل الشوك أصبحت ملكة الأزهار. لأن السعادة هي نتيجة تحمل المشقات. مقاومة رغبات النفس الدنيئة وتحمل امتحان الحياة الشاق، هما الباب الذي ينفتح على سعادة العالمين.

ضروب المصائب والمشقات والعجز، توجِّهُ العبد نحو ربه، حين تدفعه دائماً إلى الإستغاثة بالله ﷻ. بخلاف هذه الحالة، تنتفخ أنفس أولئك الذين يجدون حلاً لجميع مشكلاتهم، أو هم أحرار من كل الهموم والمشكلات. الإنسان الذي لا يعرف مذاق العجز واليأس، تكاد نفسه أن تتحول إلى «حصان جامح».

يكتسب الناس من المناعة الروحية بقدر العقبات التي ذللوها. المشقات والضائقات هي الوسائل الأهم للإرتقاء الروحي. لهذا السبب إنما دفع الله ﷻ بأنبيائه لعبور دوائر الشقاء والعذاب، أكثر من جميع عباده الآخرين. كذلك سوف يتعرض الإنسان للإمتحان مقابل النعم التي وُهِبَها. سيمتحن الحق تعالى عباده، في الحياة الدنيا، كلاً بما أكرم عليه من نعم، وسوف يحاسبه في الآخرة

ويقول مولانا جلال الدين الرومي، مشيراً على الإنسان الباحث عن الطمأنينة، بوجوب إدراك توازن الحياة إدراكاً جيداً:

«لا تبع المرايا في سوق العميان، ولا تغنِّ الأغاني في سوق الصم»



إن علامة المؤمن الفارقة هي تمتعه بالبصيرة والفراسة. هي أن يعرف الشخص من سيمائه وسلوكه فيخاطبه وفقاً لمستواه. قال علي ابن أبي طالب ﵁، بهذا المعنى أيضاً:

«حدثوا الناس، بما يعرفون أتحبون أن يكذب الله ورسوله»

(البخاري، العلم، ٤٩)

هذا يعني أنه عليكم الكلام مع الناس، لا بما يتناسب ووعيكم، وإنما بما يتناسب ومستوى إدراكهم. ولفهم مستوى إدراك الناس، يكفينا اتخاذ الكلام التالي لمولانا الرومي دستوراً لنا:

«افهم تربية الشخص من طريقته في الضحك، وسوية عقله وذكائه مما أثار ضحكه»



ابحثوا عن الوسائل التي تقرِّبُكم من الله ﷻ

جاء في الآية الكريمة:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (المائدة، ٣٥)

يقول مولانا جلال الدين-قدس سره- الذي استلهم القرآن الكريم:

«يتم تقييم الإنسان بالنظر إلى ما يشغله ويسعى وراءه»

«البحث عن شيء حيث لا يوجد، وعدم البحث سيان»



«لا تتحرك ما لم يتحرك دليلك. من تحرك بلا رأس استحال ذيلاً»

«أن تكون عبداً لشخص من أنصار الحق، خير من أن تكون تاجاً على رأس ملك»

سلطان العالم سليم خان، في طريق عودته من فتحه الكبير إلى اسطنبول، أجفل أمام تصفيق الفانين له ومدائحهم، خوفاً على نفسه من الغرور، فقال بيت الشعر التالي، في ضرورة تربية النفس:

ما أتفه أن تكون سلطان العالم

ما أروع أن تكون مريداً لأحد الأولياء

يقول مولانا جلال الدين-قدس سره-:

«قماشة الحكمة التي أضاعها القلب، يتم الحصول عليها في طبقة أهل القلب»

«لو أصبحتَ حجراً صلباً، أو تحولتَ إلى رخام، فسوف تستحيل لؤلؤاً حين تصل إلى صاحب القلب»

«لا يطير الطير إلا مع طير من جنسه»

«على من أراد أن يبقى مع الله، أن يجلس في حضرة الأولياء. إذا انقطعتَ عن طمأنينة الأولياء، فأنت هالك»

«صادق الصالحين، كي يكبر موكب الصادقين. فبقدر ما يزدحم الموكب، ينكسر ظهر قطاع الطرق»

كلمة الإنسان، وفقاً لأحد التأويلات، هي على صلة بكلمة الأُنس. وهذا يعني أن الإنسان يتحلى بالميل إلى التآلف والصداقة.

يجب استخدام هذا الميل إذن، نحو الناس الصادقين والصالحين، كما أمرنا الله. فالإنسان محشور بين ناري النفس وإبليس، ومعرض لتسلطهما. ما أجمل ما يقوله الإمام الشافعي رضي الله عنه، في ذلك:

«إذا لم تشغل نفسك بالحق، شغلك الباطل»

لذلك يتوجب على المرء، إذا أراد حماية شرف وكرامة عبوديته للخالق، أن يكون مع المؤمنين الصالحين الذين يمكن أن يلهموه من فيض قلوبهم. فالإنسان بحاجة دائمة إلى الدليل المرشد. هذا هو السبب الذي من أجله أرسل الله الإنسان النبي الأول.

ما أجمل ما يبين الشيخ سعدي شيرازي، سريان الحالة المعنوية للأشخاص الذين تتم معهم الصداقة والألفة، إلى من صادقهم وتآلف معهم، وذلك من خلال المثال التالي:

«نال كلب أصحاب الكهف شرفاً عظيماً لأنه رافق الصادقين، فجاء ذكره في القرآن الكريم ودخل التاريخ. في حين أن زوجتي النبيين نوح ولوط رافقتا الفاسقين، فأصبحتا هدفاً للعنات والشتائم».

إن مرافقة أهل الغفلة والفسق، كما نرى، تؤدي مع الزمن إلى الاقتراب من نمط تفكيرهم، وتتحول «القرابة الذهنية» هذه، بعد فترة، إلى «قرابة قلوب»، الأمر الذي يجر العبد إلى الهلاك والخسران المعنويين



تزكية النفس

جاء في الآية الكريمة:

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى. وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾ (الأعلى، ١٤-١٥)

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا. فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا. قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا. وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ (الشمس، ٧-١٠)

وقال مولانا جلال الدين-قدس سره- مستلهماً بفيض الآيات المذكورة أعلاه:

«أيها السائر في طريق الحق. إذا أردتَ أن تعرف الحقيقة، فلا موسى مات ولا الفرعون، إنهما حيان اليوم في داخلك، مختبئين بوجودك، يواصلان حربهما داخل قلبك. عليك إذن البحث عن هذين الخصمين في داخلك»

«يشبه الإنسان الغابة. فكما يعيش في الغابة آلاف الخنازير والذئاب والحيوانات الأخرى ذات الطبائع المحمودة والمذمومة، توجد لدى الإنسان كل أنواع جمال الروح وقبح النفس»

«لا تهتم بتغذية الجسد وإنمائه بإفراط، لأنه في النهاية قربان سيتم تقديمه للتراب. عليك الاهتمام بتغذية قلبك، فهو الذي سيسمو في الأعالي ويتشرف»

«أطعم الروح غذاءً معنوياً، قدم لها التفكير الناضج والوعي الدقيق وغذاء الروح، لكي تصل قويةً إلى مقصدها»

«حين تتجرد من طبائعك السفلية والنفسية وتموت، أي حين تستسلم إلى الحق، سيحملك بحر الأسرار فوق رأسه»

«لم تعد أي مرآة إلى طبيعتها الحديدية الأولى. لم يعد أي رغيف خبز إلى طبيعته الأولى كقمح. ولا عاد أي عنب وتحول إلى حصرم. ولا عادت أيّةُ ثمرة ناضجة إلى ثمرة غير ناضجة. انضج لتنجو بنفسك من الفساد»

«إذا أردتَ أن ينبثق الضوء منك كالنهار، عليك بحرق نفسك الشبيهة بالليل»

(لقد وهب الله تعالى نعمة الحياة لمرة واحدة. فهي لا تتكرر. لذلك يتوجب علينا أن نستخدم رأسمالنا هذا بانتباه، فنبلغ النضج المعنوي الذي من شأنه أن يقرِّبنا من الحق. لأنه فقط أولئك الذين يبلغون النضج المعنوي في الحياة الدنيا تقل خساراتهم. في حين أن الحرمان من النضج الروحي وغفلة الإنسياق وراء رغبات النفس، تودي وتؤدِّي بالمرء إلى التعاسة والخسران في الدنيا والآخرة.

لأن نفساً لم يكبح جماحها بالتربية والتزكية، تشبه حصاناً جامحاً. أما الحصان الجامح فهو يُوقع صاحبه في مهاوي الهلاك، بدلاً من إيصاله إلى مقصده. ولكن إذا تمت تربية الحصان تربية جيدة، وتم تزويده بلجام جيد، فهو سيحمل صاحبه إلى مقصده، حتى عبر الدروب الأشد خطراً)



الجشع سرطان القلب

جاء في الآية الكريمة:

﴿... وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ. يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ (التوبة، ٣٤-٣٥)

يقول مولانا جلال الدين-قدس سره- مستلهماً هذه الآيات:

«مهما بلغتَ من الثراء، فلن تأكل إلا بقدر ما تستطيع. لو أدليتَ بالدلو في البحر، فلن يأخذ منه إلا بقدر حجمه، ويبقى سائر البحر»

«كم من سمكة عاشت في البحر في أمان، ثم علِقَتْ بالشص- بالصنارة- بسبب جشعها»

«ما الدنيا؟ الدنيا هي الغفلة عن الحق»

«الحياة الدنيا (التي هي مكان امتحان) هي كالمغناطيس (بالنسبة للرغبات السفلية) تجذب كل التبن، لا ينجو منها إلا القمح (أي المؤمن العارف الذي امتلأ عالمه الداخلي بالسر والحِكَم)»

«يدفع الجشع والطمع في الحصول على نِعَم الدنيا بالإنسان إلى أن يمد يده إلى ما ليس من حقه»

(إن الجشع الدنيوي هو أحد اكبر أسباب الغفلة. يدفع الجشع بالقلب إلى العمى في تمييز الحق من الباطل والحلال من الحرام

والخطأ من الصواب. يعبِّر مولانا جلال الدين عن كيف أن الجشع الدنيوي يعمي عيون القلب، بالمثال المشخص التالي: «حتى الكلب لا يأكل من عظمةٍ أو قطعة خبزٍ رميت إليه، قبل أن يشمهما»

أي أننا لا نلاحظ في سلوك الإنسان الذي أعماه الجشع إزاء نِعَم الدنيا، من الانتباه والحساسية والتحسب، بقدر ما نلاحظه عند كلب. إن الطمع في الدنيا هو كارثة معنوية بهذه الفظاعة.

كذلك يعبِّرُ سيدنا الرسول ﷺ عن مدى الضعف البشري أمام نعم الحياة الدنيا، فيما يمثل تنبيهاً لنا، فيقول في الحديث الشريف:

"لَوْ كَانَ لِابْنِ آدَمَ وَادِيَانِ مِنْ مَالٍ لَابْتَغَى وَادِيًا ثَالِثًا، وَلَا يَمْلَأُ جَوْفَ ابْنِ آدَمَ إِلَّا التُّرَابُ، وَيَتُوبُ اللهُ عَلَى مَنْ تَابَ" (مسلم، الزكاة، ١١٦، ١٠٤٨)

لنضرب مثلاً على هذه الفكرة: لو حصل أولئك الذين تمكن منهم الطمع والجشع من السيطرة على العالم بأسره، لرغبوا في الحصول على بعض الأراضي على القمر أو المريخ. من المؤسف أن طمع تلك الأرواح الفاسدة التي استعبدها عالمنا المادي اليوم، لا يعرف أي حدود، بالرغم من تسببها في هلاك مجتمعات كثيرة. هذا هو المشهد المؤسف لعالمنا الراهن.

ما أجمل ما تلخص كلمات الصحابي الكريم أبي ذر الغفاري رضي الله عنه طريقته في النظر إلى نعم الدنيا، يقول قولاً ملؤه الحكمة:

«فِي الْمَالِ ثَلَاثَةُ شُرَكَاءَ: الْقَدَرُ لَا يَسْتَأْمِرُكَ أَنْ يَذْهَبَ بِخَيْرِهَا أَوْ شَرِّهَا مِنْ هَلَاكٍ أَوْ مَوْتٍ، وَالْوَارِثُ يَنْتَظِرُ أَنْ تَضَعَ رَأْسَكَ ثُمَّ



يَسْتَاقُهَا، وَأَنْتَ ذَمِيمٌ. فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ لَا تَكُونَ أَعْجزَ الثَّلَاثَةِ فَلَا تَكُونَنَّ،، فَإِنَّ اللهَ ﷻ يَقُولُ:

﴿لن تنالوا البرَّ حتى تنفقوا مما تحبون..﴾ (آل عمران،٩٢)

أَلَا وَإِنَّ هَذَا الْجَمَلَ مِمَّا كُنْتُ أُحِبُّ مِنْ مَالِي، فَأَحْبَبْتُ أَنْ أُقَدِّمَهُ لِنَفْسِي » (أبو نعيم، الحلية، جـ١، ١٦٣)

مختصر القول إن نعم الدنيا هي أمانةٌ إلهية، لا أحد يعرف إلى متى ستبقى في حوزة العبد. من المحتمل فقدانها في كل لحظة. أما القدر فهو مجهول مفتوح على المفاجآت، لا أحد يعرف ما الذي سيأتي به. والموت الذي هو الحقيقة التي لا مفر منها، ارتبط، في تقويم القدر، بموعد مجهول. ينبغي إذن، من أجل الوصول إلى السعادة والسلامة الأبديين، استخدام ما نملكه من النعم في سبيل الله ﷻ، والإستعداد للموت في كل آن.

الإنفاق دواء القلب وسعادة الدارين

جاء في الآية الكريمة:

﴿وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾

(المنافقون، ١٠)



ويقول مولانا جلال الدين-قدس سره- مستلهماً هذه الآية:

«القلوب الغارقة في الفقر والعوز، تشبه بيتاً مملوءاً بالدخان. عليك أن تسمع شكواهم وتجد دواءً لدائهم، فتفتح نافذةً يخرج منها الدخان، ويرقُّ قلبك وترهف روحك»

«ماذا لديك، على ماذا حصلت؟ أيّةَ لؤلؤةٍ استخرجتَ من قاع البحر؟ هذا ما سيكشف عنه موتك ويتأكد»

«زيارة الصديق بيد فارغة، كالذهاب إلى المطحنة بلا قمح»

«قبل استعادة ما أعطيته، عليك إعطاء ما ينبغي إعطاءه»

ما أشد دلالة بيت الشعر التالي للمرحوم نجيب فاضل قيصه كورِكْ، بهذا الخصوص:

أيها الصرّاف الخسيس، خيّط لنفسك كيس نقود آخر

اجمع فيه النقود الصالحة للاستخدام في القبر

الخلاصة، إن جميع تلك النصائح الحكيمة هي بمثابة ماء الحياة لإنعاش قلوبنا. إن من يقدِّرون كنوز الحكمة هذه حق قدرها، هم المؤمنون الناضجون الذين يطبقونها في حياتهم جاعلين منها رأس مال السعادة الأبدية.

ليجعل الله من نصيبنا جميعاً وييسر لنا أن نحيا بقلب متعطش للحكمة، وأن نكون على ألفة مع الحقيقة والأسرار، وأن نقرأ، كما أمرنا القرآن الكريم، كتابَ الله والكائنات والإنسان خير قراءة آمـين...





رمضان
بوصفه تربية روحية
للإنسان



لا يقتصر الإسلام على طقوس خاصة بشهر رمضان أو بأيام معينة، بل هو حياة تقوىً تغطى العمر بكامله.

إن شهر رمضان هو مدرسةٌ للتقوى، أما العيد فهو شهادةٌ روحانية له. العيد هو يوم يرتفع فيه المؤمن إلى حضرة ربه، بعدما اجتاز امتحان التقوى بنجاح. هو يومٌ مبارك يعيش فيه المؤمن تجلي الوصال الإلهي السعيد في حياته الدنيا. العيد الحقيقي هو رضى الحق علينا. لذلك علينا، في تلك الأيام المملوءة بالفرح، أن نفرح قلوب اليتامى والفقراء والمحتاجين، لكي ننال نصيبنا من تجليات الرحمة الإلهية.





رمضان
بوصفه تربية روحية للإنسان

لقد حدد ربنا تعالى، من أجل سعادة عباده الأبدية، في تقويم الحياة، بعض مواسم للكسب المعنوي تكاد تطغى فيها الرحمة والمغفرة الإلهيتين. أكثر هذه المواسم بَرَكَةً بلا ريب إنما هو شهر رمضان الكريم.

- ففي هذا الشهر تم تنزيل دليل هدايتنا القرآن الكريم.
- وخصت بهذا الشهر، فريضة الصوم بوصفها وسيلة استثنائية للنضج الروحي.
- ويضم هذا الشهر ليلة القدر التي هي خير من أَلْفِ شهر.
- وتحلت ليالي هذا الشهر ببركات الإفطار والتراويح والسحور.
- كثير من القلوب المعذبة بأنواع العوز والحرمان، تغرق بقدوم هذا الشهر في الأمل والفرح. فعبادات من نوع الزكاة والصدقة والإنفاق، ترسم الإبتسامة على وجوه نَسِيَتْها، في هذا الشهر.
- وفي هذا الشهر تفتح أبواب السماوات والجنة.



- وتغلقُ أبواب جهنم، بفعل الإتقاء من الآثام والكف عن أعمال الشر.

- ويتم تقييد الشرور والشياطين بسلاسل تقوى المؤمنين الكاملين.

وهكذا يفتح شهر رمضان أبواب السعادة الأبدية أمام المؤمنين، كما يفتح أبواب المستقبل أمام الأمة جمعاء.

رمضان والقرآن الكريم

جاء في كتابه العزيز:

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾

(البقرة، ١٨٥)

بعدما تبيِّن الآية الكريمة أن القرآن اُنزل في شهر رمضان، وأنه كتاب مملوء بنور الحكمة والحقيقة التي تسمح للإنسان بالتمييز بين الحق والباطل والخير والشر، تعلنُ أن من يدخلون هذا الشهر المبارك، مكلفون بالصوم في ظل تربية القرآن.

ينبغي، من زاوية النظر هذه، أن ندرك جيداً العلاقة العميقة والمرهفة بين القرآن الكريم وشهر رمضان.



يحكي عبد الله بن عباس ﵄ فيقول:

«كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَجْوَدَ النَّاسِ بِالْخَيْرِ، وَكَانَ أَجْوَدَ مَا يَكُونُ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ إِنَّ جِبْرِيلَ ﵇ كَانَ يَلْقَاهُ، فِي كُلِّ سَنَةٍ، فِي رَمَضَانَ حَتَّى يَنْسَلِخَ، فَيَعْرِضُ عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ الْقُرْآنَ، فَإِذَا لَقِيَهُ جِبْرِيلُ كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَجْوَدَ بِالْخَيْرِ مِنَ الرِّيحِ الْمُرْسَلَةِ» (البخاري، بدء الوحي، ٥ – ٦، الصوم ٧؛ مسلم، الفضائل، ٤٨ و٥٠/ ٢٣٠٨)

علينا أن ندرك خير إدراك، المعاني المترتبة على هذه الحقيقة. بهذا المعنى علينا، لكي نستفيد من بركات شهر رمضان وفيضه على أفضل وجه، أن ننشغل فيه بالقرآن الكريم أكثر من أي وقت آخر.

في الأصل ينبغي ألا يمر يوم واحد على المؤمن من غير تلاوة القرآن، أما في شهر رمضان المبارك، فعلينا أن نسعى دائماً إلى زيادة ذلك. علينا أن ندخل عالم معاني القرآن الكريم، لنعمل ونسلك وفقاً لمقتضاها، ونقيس سلوكنا ونهجنا على التعاليم الربانية، ونسعى لتلافي نواقصنا وعيوبنا.

فاستقرار الفرد والمجتمع يتحقق بدخول الحياة الروحانية للقرآن الكريم. فهو نور إلهي يضيء عالمي المؤمن الخارجي والداخلي. وهو دليل السعادة الأبدية الذي يرشد الإنسان بواسطة العبر والحكم والقصص، فيصله بالحق.



القرآن الكريم هو صوت الهداية الأكثر بثاً للطمأنينة الذي من شأنه أن يقود «السائرين في طريق الأبدية» الذين ضاقت بهم السبل في مجاهيل الحياة والمستقبل، وهزَّتهم الفلسفات المشوّشة بحيرتها وتعقيداتها، إلى الهدوء وطمأنينة الروح.

كذلك ليس غير القرآن الكريم بمضمونه الشاسع، ما يمنح العزاء لمن أشقتهم تقلبات الحياة الفانية، وما يقدِّم طمأنينة السعادة الأبدية للعقول المحشورة بين شاهدتي القبرِ.

شهر رمضان كفرصة في نعمة الحياة

يُقسم ربنا تعالى في القرآن الكريم بالزمن، ليذكِّرنا بأن نهر حياتنا يتدفق بشدة، وأن أعمارنا الفانية تنتهي بسرعة كبيرة. ويبين بوضوح أن حياة الدنيا ما هي إلا شريحة صغيرة من الزمن، وأن الحياة الحقيقية إنما هي حياة الآخرة. بهذه الطريقة ينبهنا تعالى من الغفلة. على المؤمن إذن:

- أن يتأمل في نعمة الزمن التي وهبنا إياها الله تعالى، وأن يستثمرها في سبيل أسمى الغايات، وبخير الوسائل وأكثرها بركة.
- وأن يدرك وجوب ملء حياته بالأعمال الصالحات.
- وأن يعجِّلَ في الدعاء والتوبة قبل اكتمال أجله.

يجب التفكير في هذا الشبه الكبير بين حياة الدنيا التي تتألف من أيام معدودات، وبين شهر رمضان الذي يتألف بدوره من أيام



معدودات. بهذا المعنى يجب إحياء شهر رمضان بانتباه ورهافة كبيرين، فهو موسم استثنائي للكرم والكسب المعنويين.

تحكي عائشة ﵂ فتقول:

«كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَجْتَهِدُ فِي الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ، مَا لَا يَجْتَهِدُ فِي غَيْرِهِ» (مسلم، الاعتكاف، ٨/ ١١٧٥)

«كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا دَخَلَ العَشْرُ شَدَّ مِئْزَرَهُ، وَأَحْيَا لَيْلَهُ، وَأَيْقَظَ أَهْلَهُ» (البخاري، فضل ليلة القدر، ٥)

من يحيون شهر رمضان المبارك بما يليق به، ينالون من النعم ما لا يعد. أما من لا يبالون به فيتعرضون لحرمان رهيب. في هذا المعنى يقول سيدنا الرسول ﷺ، في حديثه الشريف:

"... إِنَّ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَرَضَ لِي فَقَالَ: بُعْدًا لِمَنْ أَدْرَكَ رَمَضَانَ فَلَمْ يُغْفَرْ لَهُ قُلْتُ: آمِينَ.." (حاكم، جـ٤، ١٧٠\٧٢٥٦؛ الترمذي، الدعوات، ١٠٠\٣٥٤٥)

اعتصموا بالصوم

لا شك أن النقطة الأهم التي ينبغي الإنتباه إليها، فيما يتعلق بإحياء شهر رمضان الكريم، إنما هي فريضة الصوم. يذكِّرُنا الصيام بأننا مسافرون إلى الآخرة ستؤخذ من أيدينا نعم الحياة الدنيا الفانية. تربية النفس هذه التي تتحقق، في ظل روحانيات القرآن الكريم،



بواسطة الحرمان من بعض النعم الزائلة، هي بشير نعم الجنة الأبدية. قال أُمامة ﷺ، ذات يوم:

«يَا رَسُولَ اللَّهِ مُرْنِي بِأَمْرٍ يَنْفَعُنِي اللَّهُ بِهِ»

فقال له سيدنا محمد، عليه الصلاة والسلام:

"عَلَيْكَ بِالصِّيَامِ فَإِنَّهُ لَا مِثْلَ لَهُ" (النسائي، الصيام، ٤٣)

وأشار إلى فضيلة السحور وقيمته بما يلي:

"تَسَحَّرُوا وَلَوْ بِجَرْعٍ مِنْ مَاءٍ" (عبد الرزاق، مصنف، جـ٤، ٧٥٩٩\٢٢٧)

"تسحروا فإن في السحور بركة" (البخاري، الصوم، ٢٠)

إن صيام رمضان يعلمنا أن نستخدم حتى ما هو حلال بتقشف وزهد. تعلمنا هذه الحالة وجوب الإبتعاد عن كل ما هو حرام أو تشوبه شائبة الحرام، بحرص شديد.

يقول عبد الله بن عمر ﷺ:

«حتى لو أصابكم النحول لكثرة الصلاة، فأصبحتم بنحول قوس، وحتى لو ذبتم من كثرة الصوم فأصبحتم كمسمار، فلن يقبل الله عباداتكم ما لم تتجنبوا الحرام والمشبوه»

ما أجمل ما قاله مولانا جلال الدين الرومي في هذا الجانب التربوي من الصيام، المتعلق بتجنب الحرام والمشبوه:

«يقول الصوم: يا ربي، لم يأكل هذا الشخص حتى اللقمة



الحلال، خضوعاً لمشيئتك، فلم يشرب حين عطش، فكيف لهذا الشخص أن يمد يده إلى الحرام؟»

فالصيام إذن، هو انضباط روحي يقيِّدُ وحش النفس في داخلنا، ويهيئُ لتجلي مشاعر الرحمة والرأفة المكنوزتين في أعماق الإنسان بالفطرة.

حقاً فالصيام هو شعور سام عند العباد يعلِّمهم قيمة النعم، ويدفعهم إلى الشكر والحمد، ويعلِّمهم أن يفهموا أحوال الفقراء، ويوقظ في القلوب مشاعر الرحمة أمام استغاثات المعوزين، ويرفع من شأن الرحمة والرأفة فوق كل مشاعر الحب الزائلة، وينعش الرغبة في مساعدة البائسين. كذلك فالصيام مدرسة تربوية ما أجملها تهدِّئ من غلواء الجشع والطمع في القلوب، وتعلِّمُ فضيلة الصبر.

ولا ريب في أن أهم جوانب هذه المدرسة التي تربي النفوس، هي بعض أنواع الامتحان التي تُعَرِّض لها تلامذتها. بمقدار استجابة الناس لهذه الامتحانات، بمقدار ما يتمكنون من تجاوز العقبات التي تعترضهم بصبر، يقتربون من حقيقة الصيام وجوهره.

عبر الحديث الشريف عن أحد تلك الإمتحانات التي ينبغي على الصائم تجاوزها بالصيام، كما يلي:

"وإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب، فإن سابه أحد أو قاتله، فليقل إني امرؤ صائم" (البخاري، الصوم، ٩/ ١٩٠٤)



إن المنازعات والمجادلات مع الناس، هي سلوك غير صائب أصلاً في جميع الأوقات. غير أن تورط الصائم في سلوك مشابه، يؤذي روحانية صيامه ويضيِّعُ ثوابه. يبين لنا الله تعالى السلوك الواجب في كل الأوقات، بالقول:

﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ (الفرقان، ٦٣)

لذلك علينا أن نؤدي فريضة الصيام بعمق روحي، بالإبتعاد عما لا يعنينا، وبالسلوك المهذب والرهيف واللطيف. لا يكتمل الصيام بمجرد تجويع البطن. فالصيام المقبول يتطلب منا لجم النفس بما يحقق حماية جميع أعضاء الجسم من الحرام والمشبوه.

يحكي عُبَيْدٍ مَوْلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فيقول:

كانت هناك امرأتان صائمتان، جاء شخص قرابة الظهر وقال لرسول الله ﷺ:

«يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ هَاهُنَا امْرَأَتَيْنِ قَدْ صَامَتَا، وَإِنَّهُمَا قَدْ كَادَتَا أَنْ تَمُوتَا مِنَ الْعَطَشِ. فَأَعْرَضَ عَنْهُ أَوْ سَكَتَ. ثُمَّ عَادَ – وَأُرَاهُ قَالَ: بِالْهَاجِرَةِ – قَالَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، إِنَّهُمَا وَاللَّهِ قَدْ مَاتَتَا، أَوْ كَادَتَا أَنْ تَمُوتَا؟»

فقال له سيدنا فخر الكائنات:

"ادْعُهُمَا"



قَالَ: فَجَاءَتَا. قَالَ: فَجِيءَ بِقَدَحٍ أَوْ عُسٍّ. فَقَالَ لإِحْدَاهُمَا: "قِيئِي". فَقَاءَتْ قَيْحًا وَدَمًا وَصَدِيدًا أَوْ لَحْمًا، حَتَّى مَلأَتْ نِصْفَ الْقَدَحِ. ثُمَّ قَالَ لِلأُخْرَى: "قِيئِي". فَقَاءَتْ مِنْ قَيْحٍ وَدَمٍ وَصَدِيدٍ وَلَحْمٍ عَبِيطٍ وَغَيْرِهِ، حَتَّى مَلأَتِ الْقَدَحَ. ثُمَّ قَال ﷺ:

"إِنَّ هَاتَيْنِ صَامَتَا عَمَّا أَحَلَّ اللَّهُ لَهُمَا، وَأَفْطَرَتَا عَلَى مَا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا، جَلَسَتْ إِحْدَاهُمَا إِلَى الأُخْرَى، فَجَعَلَتَا تَأْكُلاَنِ لُحُومَ النَّاسِ (بمعنى اغتابتا الناس)" (أحمد، جـ٥، ص ٤٣١/ ٢٣٧٠٣؛ الهيثمي، جـ٣، ١٧١)

معنى ذلك أنه كما يجب الحرص على ألا يدخل شيء فمنا ونحن صيام، كذلك يجب الإنتباه إلى كل كلمة تخرج من الفم. على لساننا أن يكون لسان رحمة، لا شوكة تغرز في القلوب. لكي نحيا في شهر رمضان الكريم حياة تقوى وفيض، يجب أن نتمتع بقلب مرهف تشبع بحكم القرآن الكريم، وبوجهٍ بشوش يعكس الوجه البهيّ للإسلام.

الإخلاص والعبودية

شهر رمضان الكريم هو أيضاً تربيةٌ جميلة على العبودية للخالق. إن من لا يكونون عباداً لله تعالى بقلوب صادقة، سينتهي بهم الأمر إلى عاقبة وخيمة هي العبودية للعبد. وهذا يعني الإساءة إلى شرف الإنسان وكرامته.



يعبِّر محمد إقبال عن بؤس الإبتعاد عن الله وعبادة العبد للعبد، كما يلي:

«لم أر حتى كلباً ينحني أمام كلب آخر»

إذن، فالقدرة على فهم شهر رمضان الكريم وإحيائه، بما يليق بهذا الشهر الفضيل، يرتبط بالتعمق في حقيقة التوحيد والإقتصار في العبودية للحق وحده. ولكي نتمكن من ذلك، يتوجب علينا أن نسعى إلى الرفع من سوية روحانيتنا، بما يتناسب وموسم الخير والبركة الذي يمثله شهر رمضان المبارك.

والعملة الأكثر صلاحاً في هذا الصدد، إنما هي الإخلاص. إن ما يزيد من كمال العبادات هو نقاء القلب وصفاء النية والصدق. ولا خير يؤمل من عبادةٍ تشوبها المنافع الشخصية، وتشرك فيها غايات سوى مرضاة الحق. بهذا المعنى جاء في الحديث الشريف:

"رُبَّ صَائِمٍ لَيْسَ لَهُ مِنْ صِيَامِهِ إِلَّا الْجُوعُ، وَرُبَّ قَائِمٍ لَيْسَ لَهُ مِنْ قِيَامِهِ إِلَّا السَّهَرُ" (ابن ماجة، الصيام، ٢١/ ١٦٩٠)

ذلك أن الأعمال التي لا توصل إلى رضى الله ﷻ ولا تشكل رأسمالاً للسعادة الأخروية، تلقي بالمستقبل الأبدي في التهلكة. فالرحلة إلى الآخرة بدون زوادة طريق، هي أكبر أسباب الخسران. العبادات التي لا تقام بإخلاص وخشوع، تجعل العبد خالي الوفاض في الآخرة.

العبادات التي تؤدى في شهر رمضان، موسم الكسب العظيم، يجب أن تؤدى، لا كما لو كانت من تقاليد وعادات هذا الشهر، بل بشعور صادق بالعبودية لله تعالى. وإلا فقدت هذه العبادات روحانيتها، فتحول الصيام إلى حمية، وصلوات التراويح التي تقام على عجل إلى وسيلة من وسائل هضم الطعام، لا أكثر.

في حين أنه يجب إبداء الكثير من العناية ورهافة الحس نحو العبادات في أيام رمضان ولياليه المفعمة بالفيض الإلهي. علينا أن نؤدي صلواتنا بوصفها لقاءات استثنائية مع ربنا. لأن صلاةً تقام بالمعنى الحقيقي للكلمة، هي اعتراف المؤمن أمام ربه بعيوبه ونواقصه وعجزه، وبسط كل احتياجاته المادية والمعنوية.

لكي تكون الصلاة كاملة ومقبولة ينبغي، كما أوصى رسول الله ﷺ، أن تقام جماعةً بالنسبة للرجال. ذلك أن مشاعر المؤمنين في حال الجماعة تزداد عمقاً. بهذا المعنى فعبارة «**إياك نعبد وإياك نستعين**» التي نكررها في سورة الفاتحة، تخاطب المؤمنين كجماعة وتحث فيهم روح الجماعة.

والدعاء الذي يشكل جوهر العبادات، هو تجرد العبد من نفسه واحتماؤه بالله، وهو بمثابة الرابطة المعنوية الأهم بين الله والعبد. من يقطعون هذه الرابطة إنما يفقدون بذلك قيمتهم عند الله ﷻ. بهذا المعنى تقول الآية الكريمة:

﴿قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ (الفرقان، ٧٧)



من جهة أخرى يشكل السحور موعداً للتربية المعنوية بغية الإستفادة من فيض الغسق. إن وقت الغسق هو لحظة الدعوة الخاصة الموجهة من الحق تعالى إلى عباده. ينبغي على العبد أن يعتبر هذه الدعوة الموجهة إليه من ربه نعمةً، وأن يستقبلها بالشكر والحمد. جاء في الآية الكريمة:

﴿...**وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ**﴾ (آل عمران، ١٧) في سياق الإمتداح.

فالأسحار هي الأوقات التي تقبل فيها الدعوات أكثر من كل الأوقات، وقد اعتبرها أنصار الحق غنيمةً. قال محمد إقبال في ذلك:

«عثرتُ على طريقٍ يؤدي إلى خارج قبة السماء التي تغطي الأرض، حيث شكاوىً واستغاثات الناس في وقت الغسق، تطير نحو الله بسرعة تفوق سرعة التفكير، وتقطع المسافات نحو الوصال»

إن الإنشغال في وقت السحر بالعبادة والابتهالات، يفتح أمام القلب آفاقاً جديدة للأسرار والحكم. قال مولانا جلال الدين الرومي في ذلك:

«أفق واسْتيقِظْ ليلاً وامشِ نحو الحق. لأن الليل سيقودك إلى أرض الأسرار. حين الناس نائمين، ستهطل أسرار العشق الإلهي ولذّات المعنى على قلبك كالمطر المبارك. لأن نوافذ القلب تُفتح في الليل، وتستقبل نصيبها القادم من بعيد. لكن هذه الأحوال تخفى عن أعين الغرباء»



علينا، في هذا الشهر المبارك أيضاً، أن ننشغل كثيراً بذكر الله تعالى، وأن نطهِّر أنْفُسَنا معنوياً حتى الهواء الذي نتنفسه.

لكي نستفيد كما ينبغي، من شهر رمضان الكريم الذي أوله رحمة، ووسطه مغفرة، وآخره وسيلة من وسائل النجاة من نار جهنم، علينا أن نؤدي عباداتنا بصدق وإخلاص، وأن نكثر منها بقدر ما نستطيع. فالأعمال الصالحات في موسم الخير هذا، هي خير زاد لنا في رحلتنا إلى الآخرة. قال رسول الله ﷺ، في ذلك:

"وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّهُ لَيُسْمَعُ خَفْقُ نِعَالِهِمْ حِينَ يُوَلُّونَ عَنْهُ، فَإِذَا كَانَ مُؤْمِنًا كَانَت الصَّلَاةُ عِنْدَ رَأْسِهِ، وَالزَّكَاةُ عَنْ يَمِينِهِ، وَالصَّوْمُ عَنْ شِمَالِهِ، وَفِعْلُ الْخَيْرَاتِ، وَالْمَعْرُوفُ، وَالْإِحْسَانُ إِلَى النَّاسِ مِنْ قِبَلِ رِجْلَيْهِ، فَيُؤْتَى مِنْ قِبَلِ رَأْسِهِ، فَتَقُولُ الصَّلَاةُ: لَيْسَ قِبَلِي مَدْخَلٌ. فَيُؤْتَى عَنْ يَمِينِهِ فَتَقُولُ الزَّكَاةُ: لَيْسَ قِبَلِي مَدْخَلٌ. وَيُؤْتَى مِنْ قِبَلِ شِمَالِهِ فَيَقُولُ الصَّوْمُ: لَيْسَ قِبَلِي مَدْخَلٌ. ثُمَّ يُؤْتَى مِنْ قِبَلِ رِجْلَيْهِ فَيَقُولُ فِعْلُ الْخَيْرَاتِ، وَالْمَعْرُوفُ، وَالْإِحْسَانُ إِلَى النَّاسِ: لَيْسَ مِنْ قِبَلِي مَدْخَلٌ..." (الهيثمي، جـ٣، ٥١/ ٤٢٦٩)

مشيراً بذلك إلى أن عباداتنا سترافقنا في قبورنا.

وقال عمر بن عبد العزيز، رحمة الله عليه:

«استعدوا للسفر كما تشاؤون لرحلتكم أن تكون»



ليلة القدر

ليلة القدر هي إحدى أكثر الكنوز المعنوية غنىً، وهدية وهدايةً استثنائية خص بها الله تعالى أمة محمد وحدها من بين الأمم. تم التبشير بعظمة هذه الليلة وجلالها وقيمتها وأهميتها، بسورة مستقلة وعدد كبير من الأحاديث الشريفة.

بين الله تعالى جلال هذه الليلة كما يلي:

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ. وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ. لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ. تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ. سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾ (القدر، ١-٥)

ليلة القدر هي تلك الليلة التي تنورت بنزول القرآن، وفاضت بنزول الملائكة على الأرض موجة بعد موجة، وعلى رأسهم جبرائيل عليه السلام. هي ليلة كرم إلهي خير من ألف شهر، مملوءة بالفيض والبركة، تتدفق على القلوب المؤمنة فيها المغفرة والسلامة.

إن الفضيلة الإستثنائية لليلة القدر هي السبب في أن رسول الله ﷺ، نشدها بنفسه بين ليالي رمضان، وأمر أمته بنشدانها.

إن في عدم تحديد موعد ليلة القدر التي هي أفضل من ثلاثة وثمانين سنة، تحديداً دقيقاً، حكمةٌ خاصة. وفقاً لبيان الحديث الشريف، ينبغي البحث عن ليلة القدر بين الليالي ذات الترتيب

المفرد في الأيام العشرة الأخيرة من شهر رمضان، وخاصةً في الليلة السابعة والعشرين. لكن هذا لا يعني أن ليلة القدر هي بين تلك الليالي بصورة قاطعة.

وقد بيّن كل من الإمام الأعظم ومحي الدين ابن عربي، أن ليلة القدر تدور داخل دائرة السنة، ولا تخص شهر رمضان بصورة مطلقة.

كلام الإمام الشعراني بهذا الصدد ينطوي على أهمية كبيرة:

«قناعتي هي أن ليلة القدر يتغير ميعادها كل سنة، لأنني شهدتها في شهور شعبان وربيع الأول ورمضان. لكني شهدتها أكثر ما شهدتها، في شهر رمضان، وفي أيامه الأخيرة»[1]

بناءً على هذه الحكمة، أشار أنصار الحق وأوليائِه إلى أهمية الإنتباه والتيقظ في جميع أشهر السنة. لأن ليلة القدر مخبوءة داخل السنة، قال ابن مسعود رضي الله عنه:

«كل من يحيي السنةَ كلها، يبلغ ليلة القدر»

وهكذا باتت عبارته القائلة: «اعتبر كل شخص تراه خضر، وكل ليلة من لياليك ليلة القدر» دستور حياة للمؤمنين الصالحين.

١ عبد الوهاب الشعراني: الكبريت الأحمر، ص ٩٨، وقف كلية الشريعة في إزمير، ٢٠٠٦.



العيد

أيام العيد ولياليه مملوءة أيضاً بالتجليات النورانية التي يمكن للأرواح المرهفة أن تدركها، وللقلوب العميقة الحساسة أن تشعر بها.

جاء في الحديث الشريف:

"مَنْ قَامَ لَيْلَتَيِ الْعِيدَيْنِ مُحْتَسِبًا لِلَّهِ لَمْ يَمُتْ قَلْبُهُ يَوْمَ تَمُوتُ الْقُلُوبُ" (ابن ماجة، الصيام، ٦٨/ ١٧٨٢)

إن رمضان هو مدرسةٌ للتقوى، شهادتها الروحانية هي العيد. العيد يومٌ مبارك يعيش فيه المؤمنون إحدى تجليات يوم الوصال السعيد في الحضرة الإلهية، بعد اجتيازهم امتحان التقوى بنجاح.

العيد الحقيقي هو رضاء الله ﷻ علينا. لهذا السبب علينا أن ندخل الفرحة إلى قلوب اليتامى والفقراء والمعوزين، في هذا اليوم المبارك بخاصة، لكي ننال نصيبنا من تجليات الرحمة الإلهية. جاء في الحديث الشريف:

"ارْحَمُوا أَهْلَ الْأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ" (أبو داوود، الأدب، ٥٨/ ٤٩٤١)

علينا ألا ننسى أن الأعياد ليست أبداً أيام سعادة فردية كالإجازات أو اللهو. لا يمكن للإنسان أن يعَيِّد وحده على انفراد.



فكما لا يمكننا تصوّر صلاة عيد فردية أو معايدة فردية، لا يمكننا أيضاً تصوّر عيد مهدور للسعادة الشخصية أو العائلية.

بالعكس، فالأعياد هي أيام عبادة تحتضن المجتمع جميعاً، وتشكل مناسبةً لصلات الرحم وتذكر أمواتنا بالخير وإبهاج أرواحهم وإحياء الأخوّة في الإيمان على مستوى المجتمع.

الخلاصة أن رمضان هو عبارة عن تربية روحانية للحياة. لا يقتصر الإسلام على طقوس تخص رمضان أو أياماً محددة، بل هو حياة تقوى تمتد على مدى العمر.

يقول الإمام الشعراني:

«يتمتع شهر رمضان بحرمةٍ لا تتمتع بها الأشهر الأخرى. وإدخال الله تعالى لرمضان في جملة الأشهر القمرية، هو بغية نشر رفعة رمضان وبركته على جميع أشهر السنة»[1]

من هذا المنظور، فكما أن الله شرَّفّ جميع أشهر السنة بشهر رمضان المبارك، علينا أن نكرس عمرنا كله في العبادة بحساسية شهر رمضان ولطفه، آملين خيره وبركاته. ولذلك علينا ألا ننسى أبداً

١ عبد الوهاب الشعراني: الكبريت الأحمر، ص ١١٠.



الذكريات المعنوية للتربية الروحية التي تلقيناها في شهر رمضان. فمهما بدت الأعمار طويلة في ظاهرها، فهي أقصر من شهر رمضان بالقياس إلى حياة الآخرة.

ليتقبل الله عباداتنا وأعمالنا الصالحات التي سنؤديها لكرامة هذا الشهر المبارك الفضيل. وليجعل من نصيبنا أن نصل شهر رمضان الذي دخلناه، بشهر رمضان للعام القادم، بنوايا مخلصة وبمقاييس التقوى. ليجعل الله ﷻ من نصيبنا أن نحيا حياتنا في روحانية رمضان بصورة دائمة. ليجعل الله من شهر رمضان الكريم وسيلةً للطمأنينة والسعادة لوطننا وأمتنا وجميع العالم الإسلامي. آمـين...

الإسراف
في
الإيمان والاعتقاد والعبادة-١



تعبِّر كلمة الإسراف عن معنى واسع يشمل كل ما يتجاوز فيه الإنسان حده. بهذا المعنى، خروج العبد على الحدود التي وضعها الله تعالى، في أي موضوع كان، هو إسرافٌ أيضاً. أي أنه الخسارة الناجمة عن إهدار النعمة بلا جدوى.

الإسراف
في الإيمان والاعتقاد والعبادة-١

إن كل النعم التي أنعم الله ﷻ بها على عباده، هي علامات رحمته ورأفته ومحبته الصريحة. هذه المكرمات الربانية أعطيت للعباد مجاناً، أي بدون مقابل أو استحقاق بنتيجة العمل. قال الله تعالى في كتابه العزيز:

﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الجاثية، ١٣)

لكن هذا لا يعني أيضاً أنه يمكن استخدام النعم كما نشاء من غير ربطها بأي قيد أو شرط. لذلك جاء في آية كريمة أخرى:

﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾ (القيامة، ٣٦)

يتوجب علينا إذن، حين نستخدم النعم التي أنعم الله تعالى بها علينا، أن نضع نصب أعيننا معايير الأوامر والنواهي الإلهية. علينا ألا ننسى أن للحلال حساباً وللحرام عذاباً. وبقدر مجانبتنا للحرام، علينا تجنب الوقوع في حرام آخر بإسرافنا في استخدام النعم الحلال. فالإسراف الذي يعني عدم احترام المعايير الإلهية من خلال تجاوز الحد في استخدام النعم، هو جحود كبير إزاء كرم الله ﷻ وإحسانه.



وإذا كانت كلمة الإسراف تستخدم بصورة عامة، بصدد القيم والإمكانات المادية كالمال والثروة، فهذا هو المعنى المحدود الذي أول ما يتبادر إلى الذهن. في حين أن الإسراف يعبِّرُ عن معنى واسع يشمل كل ما يتجاوز في الإنسان الحد. بهذا المعنى فإن خروج العبد على الحدود التي وضعها الله تعالى، في أي أمر من الأمور، هو إسراف أيضاً. أي أنه الخسارة الناجمة عن استخدام النعم بلا جدوى. قال إياس، رحمه الله، في ذلك:

«كل ما فاض خارج أوامر الله إنما هو إسراف».

يميل الإنسان، بسبب النزعة الأنانية التي يملكها، إلى اختلاق الأعذار لأخطائه. حتى القتلة الذين ارتكبوا أشنع الجرائم، يسعون إلى اختلاق ذرائع يختبؤن وراءها ليسوغوا لأنفسهم الجرائم التي ارتكبوها. فإذا كانت هذه حال المجرمين، فإن المسرفين والبخلاء يقعون في تعاسة الرضى عن أنفسهم. وغالباً ما لا ينجون من غفلة ظن جنون الإسراف ووضاعة البخل سعادة. لهذا السبب علينا أن نملأ مفهوم الإسراف، الذي يبدو للوهلة الأولى كأنه إطار فارغ، بما يتوافق مع البيانات الإلهية.

كما منع ديننا الإسراف في الأمانات المادية، فقد منع أيضاً الإسراف الأحمق في أمور ذات قيمة معنوية كالاعتقاد والعبادة والعلم والأخلاق والوقت والعقل، بل إن هذه الأنواع من الإسراف المعنوي، عُدَّت خسائر أشد خطورة. لأن هذه التصرفات هي إهدارٌ مُغَفَّل للسعادة الأبدية مقابل متع دنيوية زائلة.



نهانا ربنا ﷻ عن الإسراف والبخل في جميع الأمور، بدءاً من الحاجات المادية كالطعام والشراب والملبس، وانتهاءاً بقيمنا المعنوية، وأمرنا بالإعتدال في كل مسلكنا. لذلك يتوجب على كل مؤمن أن يحيا على خط يوازن ما بين هذين الضدين.

فما لم يراع الإنسان المعايير الإلهية في استخدام جميع النعم المادية والمعنوية، لن ينجو من الوقوع في إحدى آفتي الإسراف أو البخل.

يمكننا وضع القائمة التالية بقسم من أنواع الإسراف المهمة التي من شأنها دفعنا إلى عواقب وخيمة في الدنيا والآخرة، وطرق النجاة منها:

أ) الإسراف في الإيمان والإعتقاد:

هذا هو أفظع أنواع الإسراف. إنه الفشل في المحافظة على كرامة العقل والقلب من خلال الانسياق وراء الأباطيل والأساطير والخرافات والتيارات الفكرية السيئة، بما يجرح صفاء فطرة الإسلام الموجودة في جبلّة الإنسان، الأمر الذي ينتهي إلى خسارة السعادة الأبدية.

إن تعريض الإيمان إلى الضعف، هو مصيبةٌ معنوية تنتج غالباً من الألفة مع الفاسقين. يقول الله تعالى، في كتابه العزيز، بصدد تنبيهنا من الوقوع في هذا الخطر:

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (الأنعام، ٦٨)

فالعلاقة والقرابة الفكرية مع الفاسقين، تتحول مع الزمن إلى قرابة قلبية، مما يؤدي إلى إضعاف الإيمان وهلاك الحياة الأبدية.

تعبر الآيات التالية عن الأسباب الرئيسية للإسراف في الإيمان:

﴿فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ. عَنِ الْمُجْرِمِينَ . مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ. قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ. وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ. وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ. وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ﴾ (المدثر، ٤٠-٤٦)

ويبين الله تعالى طريق النجاة من هذه العاقبة في الآية التالية:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ (التوبة، ١١٩)

وفي آية كريمة أخرى، يتم التعبير عن وجوب التعمق في الشعور وعدم النظر إلى آيات الله ﷻ، أي أوامره ونواهيه، بعيون فارغة وغافلة، قال تعالى:

﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ (الفرقان، ٧٣)

بهذا المعنى، فإن استخدام الإدراك القلبي مثلاً ونعمة البصر، بعيداً عن مقاصد خلقهما الأصلية، والتعامي عن آيات الله ﷻ، معناه السقوط في إسراف الحواس الذي ينتج عن بلادة الإحساس. تبين الآية الكريمة العاقبة المُرَّة للإسراف والكذب، بالكلمات التالية:



﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (المؤمنون، ٢٨)

هناك أيضاً انحرافات أو مبالغات في الإعتقاد، لعل أهم صورها هي مطالبة الأولياء الصالحين، عند زيارة قبورهم، بالحاجات مطالبةً مباشرة. إن ما ينبغي فعله، في هذا المقام:

هو تأمل أعمالهم الصالحات في الحياة الدنيا، والطلب من الله تعالى، بتزكية من مكانتهم الرفيعة عند الله ﷻ.

أضف إلى ذلك أن الإعتماد على شفاعة الصالحين بلا قيد أو شرط هو من الأباطيل أيضاً. فكما جاء في الآية الكريمة لن يقوم بفعل الشفاعة إلاَّ

﴿يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ ...﴾ (طه، ١٠٩)

كذلك من الخطأ الإعتقاد بأن الصالحين يعرفون كل شيء ويقرؤون ما في القلوب. فهم لن يعرفوا إلا بمقدار ما يُعلِمُهم الله تعالى. فالأنبياء أنفسهم لا يعرفون كل شيء.

كان سيدنا الرسول ﷺ، يجيب على بعض الأسئلة التي تطرح عليه بالقول: **"مَا المسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ"**.

على سبيل المثال لم ينزل الوحي على الرسول ﷺ، في حادثة الإفك، إلا بعد شهر على وقوعها، فلم يستطع قول شيء حول حقيقة الأمر في غضون ذلك. كذلك هي الحال مع الوحي بصدد تخلف ثلاثة أشخاص عن معركة تبوك بسبب الغفلة والإهمال، وقد تأخر نزول الوحي في هذه الحادثة خمسين يوماً.

توفي عثمان بن المظعون ﵁، في بيت أم العلاء في المدينة. قالت هذه المرأة: «رحمة الله عليك أبا السائب، فشهادتي عليك لقد أكرمك الله»، فقال رسول الله ﷺ: **"وما يدريك؟"**

أجابت المرأة بالقول: «لا أدري والله»

فقال لها رسول الله ﷺ:

"أما هو فقد جاءه اليقين، إني لأرجو له الخير من الله، والله ما أدري - وأنا رسول الله - ما يفعل بي ولا بكم"

فقالت أم العلاء: «فوالله لا أزكي أحدا بعده». قالت: ورأيت لعثمان في النوم عينا تجري، فجئت رسول الله ﷺ فذكرت ذلك له، فقال: **"ذاك عمله يجري له"** (البخاري، التعبير، ٢٧/ ٧٠١٨)

وجاء في الآية الكريمة:

﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ (الأحقاف، ٩)

سأل أحدهم يعقوباً ﵇: «أيها النبي العاقل ذو القلب المستنير، كيف حدث أنك شممتَ رائحة قميص يوسف، في طريق عودته من مصر، ولم ترهُ حين ألقي به في الجب قربك؟»

فأجابه يعقوب ﵇، قائلاً: «النصيب الإلهي الذي نملكه في هذا، يشبه وميض البرق. لذلك تتراءى لنا أحياناً أماكن بعيدة جداً، وتحجب عنا أحياناً أقرب الأماكن إلينا».



إن المجاملات التي يتبادلها الناس فيما بينهم بلا تفكير، هي من أنواع الإسراف الممنوعة أيضاً. قال رسول الله ﷺ:

"من كان منكم مادحا أخاه لا محالة، فليقل أحسب فلانا، والله حسيبه، ولا أزكي على الله أحدا أحسبه كذا وكذا، إن كان يعلم ذلك منه" (البخاري، الشهادات، ١٦/ ٢٦٦٢)

يرتبط كمال الإيمان بعقل امتزج بالوحي، ويرتبط كمال العقل بنور الإيمان فيه، أي بنضج القلب وكماله. الأفكار والمعتقدات المحرومة من النور الإلهي، المملوءة بالخرافات والأساطير، هي كقناديل بلا زيت أو مصابيح بلا تيار كهربائي. إن عقلاً كهذا حُرِمَ من سيطرة الوحي، محكوم عليه بالدمار والانتهاء، في يوم ما، كالمصباح الكهربائي الذي يتلقى تياراً غير متوازن.

ب) الإسراف في العبادة:

من أسس تعاليم ديننا أن يطبق مبدأ الإعتدال في كل الأمور، بحيث تتحول العبادات والمعاملات إلى سلوك اعتيادي مبارك. ففي الغالب أن السلوك المعتاد هو الذي يستمر.

أول ما يخطر في البال، فيما يتعلق بوجوه الإسراف في أداء العبادات، هو استهلاك الماء بما يفوق الكميات الضرورية بفعل وسواس النظافة، في الوضوء والاغتسال. مر رسول الله ﷺ، على سعد، وكان يتوضأ، فقال له:

"مَا هَذَا السَّرَفُ؟!"

أجاب سعد ﵁، قائلاً: "أَفِي الْوُضُوءِ إِسْرَافٌ؟"

فقال له الرسول ﷺ:

"نَعَمْ، وَإِنْ كُنْتَ عَلَى نَهَرٍ جَارٍ" (ابن ماجة، الطهارة، ٤٨/ ٤٢٥)

ومن جملة وجوه الإسراف المرتبطة بالعبادات، عدم أداء الصلاة جماعة حين تكون ميسورة، أو الصلاة كمن يتخلص من واجب، بعيداً عن الروحانية. قال تعالى، في أولئك الذين يؤدون الصلاة بلا خشوع وهدوء:

﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ. الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ (الماعون، ٤-٥)

وقال رسول الله ﷺ، في الصلاة التي تفقد فضيلتها بفعل عيوب القلب، أي الصلاة التي تفرغ من مضمونها فتستحيل إسرافاً:

"إِنَّ الرَّجُلَ لَيَنْصَرِفُ وَمَا كُتِبَ لَهُ إِلَّا عُشْرُ صَلَاتِهِ تُسْعُهَا ثُمْنُهَا سُبْعُهَا سُدْسُهَا خُمْسُهَا رُبْعُهَا ثُلُثُهَا نِصْفُهَا" (أبو داوود، الصلاة، ١٢٣-١٢٤/ ٧٩٦)

هذا يعني أن الله تعالى يريد منا عبادةً مفعمة بروحانيات العقل والقلب. بعبارة ﴿**واسجد واقترب**﴾ (العلق، ١٩) يطالبنا الله تعالى أن تكون قلوبنا، حين نسجد، في حال من التضرع في حضرة الله ﷻ. لأن ما يبلغ بالإنسان إلى كمال الإيمان الحق ونضجه، هو الإستخدام المشترك لأعمال العقل والقلب.



تتحدث الآية الكريمة عن أولئك الذين يؤدون صلاتهم كما ينبغي، بالقول:

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ. الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾
(المؤمنون، ١-٢)

إنه إسراف كبير أيضاً الإنتقاص من أجر الصيام، أحد الأركان الخمسة للإسلام، إلى حده الأدنى، بالكذب والغيبة والنبذ وغيرها من العيوب الأخلاقية. جاء في الحديث النبوي الشريف:

"من لم يدع قول الزور والعمل به، فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه" (البخاري، الصوم، ٨، الأدب ٥١/ ١٩٠٣)

على الصيام أن يجعلنا ندرك قيمة ما أنعم الله به علينا من خيرات. كذلك على الصيام أن يبين لنا، بواسطة الجوع لنصف يوم، مدى عجزنا، وأن يجعلنا نفهم حال أخوتنا الضعفاء اقتصادياً، فتمتد قلوبنا إليهم، ونمنح الصدقة بتواضع وحمد، وبحماسة العبادة، كما لو كنا نمنحها إلى الله تعالى. جاء في الآية الكريمة في هذا المعنى:

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (التوبة، ١٠٤)

وشهر رمضان الكريم الذي فُرِضَ فيه الصيام، هو شهر عبادة، مملوءٌ من أوله إلى آخره بالخير والروحانيات والرحمة والمغفرة والألطاف. أمرنا رسول الله ﷺ، بالإستفادة من هذا الشهر المبارك بالخير والبركة ومن غير إسراف.



إضافة إلى ذلك يجب إمضاء وقت السحر بقلب متيقظ في صلاة التهجد وفي الاستغفار والذكر والتفكر وتلاوة القرآن الكريم؛ ووقت النهار في العبادات والإنفاق والأعمال الصالحات، بقلب مفتوح على الله ﷻ؛ ووقت الإفطار في الإستغفار والدعاء؛ ووقت المساء في صلاة التراويح. إذا لم نَسْتَغِلَّ هذا الشهر المبارك كما يجب، فلن نستفيد من بحر الرحمة والمغفرة الذي يتدفق بقربنا، فنتركه في دوامة إسراف مؤسف.

من جهة أخرى، فإن عدم الإنتباه إلى الصفة الحلال في المال وإلى حقوق الناس، والإنشغال بما لا يعنينا، والإتيان بتصرفات من شأنها إضاعة الروحانيات والخير، تعني جميعاً إسرافاً في الحج.

جاء في الحديث الشريف، أن من حج بنقود حرام، فقال لبيك، سيأتي الرد عليه:

"لَا لَبَّيْكَ وَلَا سَعْدَيْكَ، كَسْبُكَ حَرَامٌ، وَزَادُكَ حَرَامٌ، وَرَاحِلَتُكَ حَرَامٌ، فَارْجِعْ مَأْزُورًا غَيْرَ مَأْجُورٍ، وَأَبْشِرْ بِمَا يَسُوءُكَ... " (الهيثمي، جـ٣، ٢٠٩-٢١٠/ ٥٢٨٠)

أما الإسراف في الزكاة والصدقة، فهو إشعار ذي الحاجة بالمِنَّة، والإبتلاء بعلل قلبية كالرياء والزهو. قال تعالى في كتابه العزيز:

﴿قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ

صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ (البقرة، ٢٦٣-٢٦٤)

على المؤمن أن يتصرف بحرص وانتباه لإيصال الزكاة إلى من يستحقها. وقد امتدح الله تعالى عباده الذين يسلكون هذا المسلك، بالقول: **﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾** (المؤمنون، ٤)

إن إعطاء الزكاة والصدقات لأهلها، هو عمل مهم جداً، فهو يتطلب بحثاً جدياً، وقد أمرنا ربنا بأن نمتلك ملكة معرفة ذوي الحاجة من سيمائهم[1].

الحقيقة أن القدرة على إعطاء المال لمن يستحقه، إنما ترتبط بالوسائل التي كسبناها بها. وبتعبير آخر، إن مواضع صرف الزكاة والصدقات والإنفاق، هي بمثابة مرايا شفافة تكشف عن حلال رزقنا من حرامه.كذلك يشكل عدم اهتمامنا بقراءة القرآن الكريم وفهم معانيه، بما يستحق من عناية، والإستغناء عن أوامره ونواهيه، إسرافاً لكنز إلهي بهذا الغنى. يميّز الله تعالى بين المسرفين في القرآن الكريم والمستفيدين من فيض بركته كما في الآية:

﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ (فاطر، ٣٢)

١ انظر: سورة البقرة، ٢٧٣.



كما أن خير الناس ونخبتهم هم أمة محمد، فإن أكثر هؤلاء فضيلةً هم المؤمنون الذين يقرؤون القرآن ويحفظونه ويفهمون معانيه ويعملون على هداه.

وهناك من الناس من يظلمون أنفسهم، فهم يفهمون القرآن لكنهم لا يقرؤونه كما يجب ولا يعملون بما يتفق وإرشاداته، فيخسرون بذلك أكبر النعم. ومن الناس من هم في منزلة بين منزلتين، فيعملون على هدى القرآن حيناً، ويهملون ذلك حيناً. والبعض الآخر يتقدمون في فعل الخير بإذن الله.

إن القرآن الكريم هو لسان الأرض والسماء، وكنز للروح من الخير والبركة. إنه معجزة في البيان أهديت للناس. القلوب المؤمنة التي اهتدت بالقرآن هي موضع تجلي خالق الكائنات.

الإنسان المهتدي بالقرآن الكريم، يحيا سعادة وطمأنينة كونه عالماً صغيراً يضم في داخله الكون العظيم جميعاً. القرآن الكريم للمؤمن هو بابٌ عظيم ينفتح على أعماق عالم التفكر.

تتطلب قراءة القرآن، إضافة إلى طهارة الجسد، طهارة القلب أيضاً. لأن أمراض القلب تحول دون تواصل المؤمن بالقرآن الكريم بالطريقة الصحيحة. أما الذين يعجزون عن التواصل مع رحمة القرآن وشفائه وهداه، فيتعرضون لخسارة كبيرة.



فالقرآن الذي يعبر عن الإرادة الإلهية، لا يدركه خير إدراك إلا أصحاب التقوى والصلاح المقربين من الله تعالى. من الضروري أن يكون المؤمن من أهل التقوى، ليستفيد من نعم القرآن الكريم، ولينال السعادة، بالتالي، في الدنيا والآخرة.

هناك نقطة أخرى يجب الإنتباه إليها، وهي حقيقة أن خدمة صغيرة حازت الرضاء الإلهي، يمكن أن تفوق قيمة الكثير من العبادات النافلة. ما أجمل ما يوضح المثال التالي من عصر السعادة، هذه الفكرة:

عَنْ أَنَس رضي الله عنه، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي سَفَرٍ، فَصَامَ بَعْضٌ، وَأَفْطَرَ بَعْضٌ فَتَحَزَّمَ الْمُفْطِرُونَ وَعَمِلُوا وَضَعُفَ الصُّوَّامُ، عَنْ بَعْضِ الْعَمَلِ، قَالَ: فَقَالَ فِي ذَلِكَ:

"ذَهَبَ الْمُفْطِرُونَ الْيَوْمَ بِالْأَجْرِ" (مسلم، الصيام، ١٠٠-١٠١)

بالطريقة نفسها، حين ينشغل أحدهم بشؤون ثانوية مهملاً كسب رزقه، فيقع في الحاجة إلى من حوله، فسلوكه هذا نوع من الإسراف. قال رسول الله ﷺ في ذلك:

"إنّ الله تَعَالَى يحِبُّ أنْ يَرَى عَبْدَهُ تَعِباً فِي طَلَبِ الحَلالِ"

(السيوطي، الجامع الصغير، جـ١، ص٦٥، ٣٦٣٩)



وفي الأدعية التي تقام وسط الجموع، فإن إطالة الدعاء إلى درجة تفقد معها الجماعة حماستها، عن طريق رصف القوافي، بهدف استعراض المهارات، ورفع الصوت والصراخ، فهذا مما يعد إسرافاً يُفقِدُ الدعاءَ جوهره. قال رسول الله ﷺ، في ذلك:

"يا أيها الناس اربعوا على أنفسكم، فإنكم لا تدعون أصم ولا غائبا، إنه معكم إنه سميع قريب، تبارك اسمه وتعالى جده" (البخاري، الجهاد، ١٣١/ ٢٩٩٢؛ مسلم، الذكر، ٤٤)

مانعاً بذلك الدعاء الصاخب الصارخ. هذه الأنواع من الإسراف تفسد روحانية العبادات وتنقص من خيرها وفيض بركاتها.

وجاء في الحديث الشريف أيضاً:

"إِنَّهُ سَيَكُونُ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ قَوْمٌ يَعْتَدُونَ فِي الطَّهُورِ وَالدُّعَاءِ" (أبو داود، الطهارة، ٤٥)

الخلاصة، أن الله تعالى لا يريد لعباداتنا أن تؤدى بلا عاطفة وبعيداً عن الروحانية والفيض الإلهي، بل يريد لنا أن تقترب قلوبنا منه بمشاعر الخير والإحسان، لتنال الوصال الإلهي.

ربنا نجّنا من الإسراف في الإيمان والاعتقاد والعبادة بالإهمال أو المبالغة. واجعل من نصيبنا أجمعين نشوة الإيمان الكامل وحماسته، والعيش في طمأنينة العبادات ولذتها. آمــين...



الإسراف
في الزمن-٢



الحياة نعمةٌ ثمينة جداً وهبها الله تعالى لكل حي لمرة واحدة، وحددها بأجل محدد. يتوجب إنفاق الوقت على الأعمال التي تليق بقيمته. فلا يمكننا اقتراض الزمن ولا إقراضه. يمكننا شراء كل شيء إلا الزمن الذي يمضي..

الإسراف
في الزمن-٢

جميع النعم التي يحصل عليها الإنسان، سواء بالعمل أو مجاناً، هي تجليات كرم من رب العالمين. لأن من يخلق النعم من العدم، ومن يتلطف ويهب العبد المواهب والطاقة اللتين يحتاجهما للحصول عليها، إنما هو الحق تعالى. لذلك على الإنسان ألا ينسى أبداً أن ما يملكه من النعم إنما هو لطف وكرم من الله تعالى. عليه أن يحيا واعياً أن تلك النعم هي بحكم أمانات سيحاسَبُ عليها يوماً.

جاء في الآية الكريمة:

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ (المؤمنون، ١١٥)

بالتالي، علينا أن نفهم أننا لسنا أحراراً تماماً في استخدام النعم المادية والمعنوية التي نملكها، وأنه يتوجب علينا استخدامها بما يتوافق مع الرضا الإلهي.

قال تعالى في كتابه العزيز:

﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ (التكاثر، ٨)

مذكِّراً عباده بالحساب العظيم ومؤكداً على مسؤوليته.

أي أن الله تعالى قد وضع بعض المعايير التي ينبغي اتباعها، سواء في وسائل الحصول على النعم التي تكرم علينا بها، أو في



استخدامها. وقد بيّنَ هذه المعايير بالتمييز بين ما هو حلال وما هو حرام. والإسراف هو واحد من أنواع الحرام، يؤدي إلى خسارة رحمة الله ومحبته، بل ويجلب غضبه. جاء في الآية الكريمة:

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ (الأنعام، ١٤١)

الإسراف في الزمن

إن أحد أكثر الأخطاء تواتراً عند الإنسان بسبب الغفلة والنسيان، إنما هو الإسراف في الزمن.

الحياة نعمةٌ ثمينة جداً وهبها الله تعالى لكل حي لمرة واحدة، وحددها بأجل محدد. يتوجب إنفاق الوقت على الأعمال التي تليق بقيمته. ففي الحياة دائماً أكثر من عمل ينبغي إنجازه في آن واحد. لذلك ينبغي ترتيب الأولويات بحيث نقوم أولاً بالعمل الأكثر أهمية، ونضع الأعمال الأخرى كلاً بدوره وفقاً لأهميته. هذا مبدأ مهم ينبغي الانتباه إليه لكي نستخدم الزمن كما ينبغي.

إن إرضاع الأم لطفلها، مثلاً، هو سلوك جميل يترتب على رحمتها ورأفتها. لكن استمرارها في الإرضاع إذا اندلع حريق في بيتها، هو حماقة ووبال كبيران. عليها، في تلك الحالة، أن تبذل



جهدها لإطفاء الحريق حتى ولو بدلو من الماء. لأن هذه المهمة أكثر مصيرية من الإرضاع في تلك اللحظة. فإذا تصرفت ببلادة هلكت هي وطفلها معاً في الحريق.

بالمثل، تستوجب منا مسؤوليتنا بصدد الزمن، إعطاء الأولوية، في أيامنا، لترويج دين الله ﷻ.

بالنسبة للصحابة الكرام الذين استثمروا الزمن على خير وجه، كانت أكثر لحظات الحياة متعةً وغنى، هي الأوقات التي أوصلوا فيها رسالة التوحيد إلى الناس. كان أحد الصحابة على وشك الإعدام، حين أمهله الشقيُّ ثلاث دقائق، فشكره وقال له:

«إذن عندي ثلاث دقائق لأبلغك الحق. آمل أنك ستهتدي»

وفي أيامنا، حيث يضيع بعض الناس في الدوامات المنافية للإيمان والأخلاق، هناك دينٌ في عنق كل مؤمن يتمثل في بيان جمال الإسلام ورقته ولطفه، بلسان حلو، لأولئك الناس.

إن الإسراف في الزمن الذي هو رأس مال ثمين جداً، في أمور تافهة وبلا جدوى، يلقي بحياة الآخرة في المهالك. لذلك فالزمن، بالنسبة لأولئك الذين نجحوا في رفع حجب الغفلة عن عيونهم، نعمةٌ ثمينة لا يمكن مقارنة قيمتها بقيمة أي شيء آخر. قال تعالى في سورة العصر:

﴿وَالْعَصْرِ. إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ. إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ (العصر، ١-٣)



تبلغُنا هذه السورة التي تبدأ بالقَسَم بالزمن، أن الزمن الذي لا نحياه في الإيمان والعمل الصالح والتوصية بالحق والتوصية بالصبر، هو إسراف في الزمن، ووسيلة من وسائل الخسران. أما الإشارة إلى أولئك الذين يستثمرون ويستغلّون الزمن كما ينبغي، في صيغة الاستثناء، فتعكس حقيقةً مؤلمة هي أن أكثرية الناس على غفلة في أمر الزمن.

يوصي الله ﷻ عباده، لكي ينجوا من الخسران وينالوا نصيبهم من الكرم الإلهي، في الآية الكريمة:

﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ. وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ (الشرح، ٧-٨)

أي أنه يجب على المؤمن، ما إن ينتهي من العبادة أو عمل من الأعمال الصالحة، أن يسارع إلى الشروع في غيرهما، وألا يسمح بمرور أية لحظة بعيداً عن العبادة والعمل الصالح. لأن الحياة هي نعمةٌ وُهِبناها لنكسب السعادة الأخروية. أما الموت فيشبه موعد التسديد على سند دين.

يعطي التاجر سنداً للدائن لكي يستعد للإيفاء بدينه له. إن الأجل الممنوح في هذا السند، غايته جمع المبلغ الذي ينبغي تسديده في غضونه. والحياة الدنيا هي عبارة عن مهلة أعطيت لنا لكسب الآخرة ونيل الرضا الإلهي. وكما يمكن لأحد التجار ألا يحمل أجل السند على محمل الجد، فلا يقوم بالاستعداد اللازم للوفاء بدينه، فينتهي به المطاف إلى ضائقة شديدة في يوم السداد، كذلك إذا لم يستخدم



الإنسان مهلة العمر الذي منحه الله ﷻ، فلن ينجو من الخسران الكبير. لأن كل إنسان محكوم، من لحظة ولادته، بحكم الموت في موعد مجهول. موعد تحقق هذا الحكم هو لحظة لقاء الإنسان بعزرائيل عليه السلام. وإذا كان أجل التسديد معروفاً في السند، فنهاية عمر الإنسان المحتمة تظل في المجهول. وهذه حقيقة مخيفة تتطلب من الإنسان أن يكون مستعداً للحساب في كل لحظة.

ويُعَبِّر «الوقوف الزماني» الذي يشكل أحد أهم أسس التربية الصوفية، عن ضرورة استخدام نعمة الزمن بدقة ورهافة شديدتين. وفقاً لهذا المبدأ، على المؤمن الذي يريد تزكية نفسه وتصفية قلبه أن يدرك أنه مرغم على محاسبة نفسه في كل آن، بسبب جهله بأجله، وأن يستثمر ويستغلَّ وقته بالأعمال الصالحة. على المؤمن الإبتعاد عن الأعمال غير الضرورية والكلام الذي بلا معنى. أو بكلمات مولانا جلال الدين الرومي، عليه أن يحمي لسانه من الوقوع في موقف «مهرِّج الكلام». ويبيّن الله ﷻ، بلغة القرآن الكريم، أحد أوصاف المؤمنين «الناجين» كما يلي:

﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ (المؤمنون، ٣)

﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ (الفرقان، ٧٢)

على المؤمن الصالح أن يبقى على علم بدخيلته في كل لحظة، ليتأمل ويعرف سوية حالته من حيث الإستغفار والحمد



والشكر والقناعة. عليه أن يحاسب نفسه على النعم الكثيرة في كل عضو من أعضائه، وأن يتوب عن الأزمنة التي استهلكها بغفلة. عليه أن يجانب الغفلة ويتحرر من مخاوفه غير المبررة بشأن المستقبل وينشغل بالحال التي يحياها. عليه بعبارة أخرى أن يكون «ابن الزمن»، أي أن يدرك قيمة عمره، وبخاصة قيمة الزمن الذي يحيا فيه، وأن يستخدمه بالاستعداد للآخرة على أجمل وجه. لأن استهلاك الزمن بلا جدوى، هو أكبر أسباب الندامة. قال رسول الله ﷺ، في ذلك:

"لَمْ يَتَحَسَّرْ أَهْلُ الْجَنَّةِ إِلَّا عَلَى سَاعَةٍ مَرَّتْ بِهِمْ لَمْ يَذْكُرُوا اللَّهَ تَعَالَى فِيهَا" (الهيثمي، جـ١٠، ٧٣-٧٤/ ١٦٧٤٦)

مذكراً بوجوب استثمار الوقت في الأعمال الصالحة التي ستشكل رأس مال الحياة الأبدية. لأن الندم لن ينفع حين يفقد المرء ما في يده من النعم. إذن يجب علينا أن نستثمر حياتنا في العمل الصالح ما دمنا نملك الفرصة. علينا أن نشكر الله ﷻ على كل عضو من أعضائنا بما يستحق. نعمة اللسان، على سبيل المثال، علينا أن نسعى إلى استخدامها بذكر الله ﷻ الذي يشفي القلوب.

أوصى رسول الله ﷺ، أمنا حفصة بالقول:

"يا حفصة إياك وكثرة الكلام، فإن كثرة الكلام بغير ذكر الله تميت القلب وعليك بكثرة الكلام بذكر الله فإنه يحي القلب"

(علي المتقي، جـ١، ٤٣٩\١٨٩٦)



يحذرنا الله ﷻ لننتبه بشدة لأمرين:

﴿وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾
(المنافقون، ١٠)

وما أشد العبرة في الآية الكريمة التالية التي تتحدث عن استغاثات من أضاعوا أعمارهم سدى، وذرائعهم المرفوضة:

﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾ (فاطر، ٣٧)

وكما هي الحال مع جميع نعم الحياة، فالسبب الرئيسي للإسراف في الزمن هو غفلة عدم إدراك الموت كما ينبغي، أو اعتباره بعيداً جداً عنا. في حين أنه جاء في الحديث الشريف:

"مَا إِنَّكُمْ لَوْ أَكْثَرْتُمْ ذِكْرَ هَاذِمِ اللَّذَّاتِ لَشَغَلَكُمْ عَمَّا أَرَى، فَأَكْثِرُوا مِنْ ذِكْرِ هَاذِمِ اللَّذَّاتِ الْمَوْتِ" (الترمذي، القيامة، ٢٦/ ٢٤٦٠)

إن اللامبالاة المستمرة على الرغم من هذا التنبيه النبوي الشريف، سوف تؤدي يوماً إلى عذاب أليم.

قال رسول الله ﷺ، ذات يوم:

"مَا مِنْ أَحَدٍ يَمُوتُ إِلَّا نَدِمَ"



فسأله الصحابة الكرام:

«وَمَا نَدَامَتُهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟»

فقال رسول الله ﷺ، لهم:

"إِنْ كَانَ مُحْسِنًا نَدِمَ أَنْ لَا يَكُونَ ازْدَادَ، وَإِنْ كَانَ مُسِيئًا نَدِمَ أَنْ لَا يَكُونَ نَزَعَ" (الترمذي، الزهد، ٥٩/ ٢٤٠٣)

إذا نظر الإنسان إلى تجليات القدرة الإلهية فيه وفي الكائنات، بعين القلب، فسوف يشعر بأنه مرغمٌ على التفكير كيف ينبغي عليه أن يحيا حياته الدنيا. والحقيقة الكبرى التي ينبغي أن يهتم بها الإنسان أكثر من أي شيء آخر، هي واقعة الموت. لحظة الوداع العظيمة تلك هي لوحة عبرة كبيرة بالنسبة للإنسان. من يعرف الموت لن تخدعه المتع الزائلة، ومن يعرف بأنه مسافر إلى الآخرة، فلن تخدعه الدمى في مضافة الدنيا، ولن يضيّع وقته باللعب بها.

جاء في الآية الكريمة:

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ. مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (الدخان، ٣٨-٣٩)

لو أن جميع النعم الزائلة اجتمعت في شخص واحد، ولو أنه عاش ألف عام في الطمأنينة والسعادة، فما الجدوى؟! ألن تكون نهايته تحت هذا التراب الذي ندوس عليه؟ ألا يعتبر الإنسان من أن شباب كل كائن فان يسحق أبداً في طاحون الزمن؟ في حياة يعيشها



البعض لا يعلمون بالآخرة، يظنون فيها المدائح التي تدغدغ النفس باقية، ودمى الدنيا وألعابها حقيقية، فيا لها من غفلة رهيبة!..

بعبارة الإمام الشافعي:

«هل من العقل أن تقوم القوافل بإنشاء البيوت في أثناء الرحلة؟»

يا لها من نهاية فاجعة ويا له من إسراف مؤسف في العمر، حين يتحلى بعض الناس بزينة الدنيا ويرهقون أنفسهم إلى آخر يوم في حياتهم سعياً وراء المتع الزائلة، محرومين من فكرة الآخرة. أولئك الذين يستهلكون أوقاتهم وكأنهم لن يموتوا أبداً، سيأتي عليهم يوم يندمون فيه على الأوقات التي أضاعوها سدى.

أولئك الذين يسلمون أنفسهم لرغبات أنفسهم، يهربون دائماً من التفكير بالقبر وما بعده، بغية الإستمرار في الحياة على مستوى النفس. من هذا المنظور، يتحول الموت الذي سيدخلون دائرته، إلى قلق بصدد المستقبل ويصبح كابوساً رهيباً. لأن كل إنسان يرغب بالعيش في العالم الذي يحلم به ويستهويه. وهل يمكن لإنسان عاقل أن يترك القصر ويذهب إلى خرابة؟ والحال أن هنا الكثير من الناس ممن يحولون آخرتهم إلى خرابة، من حيث أرادوا إعمار دنياهم.

يدلنا مولانا جلال الدين الرومي إلى طريق التحرر من أسر الدنيا للحصول على السعادة الأبدية، فيقول:



«لا تتمسك كثيراً بالمال والملك، لكي تستطيع التخلي عنهما حين يحين الأوان، لكي تعطي بيسر وترحل، وتكسب ثواباً. تمسّك بمن يمسك بك بقوة، فهو الأول وهو الآخِر»

«يخاف كثير من الناس من موت أجسادهم، في حين أن ما ينبغي الخوف منه حقاً هو موت القلوب»

لقد قُدِّر لكل كائن حي نَفَسٌ أخير، فلا يمكن تغيير ذلك أو مد الحياة الدنيا لمهلة إضافية. يواصل الزمن تدفقه وفقاً للمنوال المرسوم له من العناية الإلهية. يمكن، إلى هذا الحد أو ذاك، شراء كل شيء أو استعادته، إلا الزمن الذي يمضي... لا أحد يتصرف بعدم اكتراث أمام إلقاء قطعة ذهبية صغيرة في علبة القمامة، في حين أن أكثر الناس لا يكترثون، ويا للعجب، أمام هدر الزمن في أعمال لا جدوى منها، مع أنه لا يمكن شراء هذا الزمن بملايين القطع الذهبية.

يقول فريد الدين عطار -قدس سره- في وصاياه:

«هناك أربعة أشياء لا يمكن استعادتها بعد فقدانها: كلمةٌ خرجت من الفم على غفلة، وسهم انطلق من الوتر، وحادثٌ وقع، وعمرٌ أهدر سدى»

أوصانا أحد أنصار الحق وأوليائه بصدد وجوب إدراكنا لقيمة الزمن لكي لا نقع في غفلة ونستثمر أيامنا بما تستحق:

«اذهب من حين إلى آخر إلى المستشفيات وقم بزيارة المرضى. اشكر الله على نعمة الصحة التي تتمتع بها، وعلى أنك لم تُبتل بالمرض مثل أولئك المعذبين. اذهب من حين إلى آخر إلى السجون لتتأمل في حياة المسجونين في الزنزانات المملوءة بالعذاب. لتعرف أن الجرائم تُقترَف نتيجة غفلة أو جنون للحظة واحدة، ولتعرف من ناحية أخرى أن في السجون أيضاً من دخلوها ظلماً وتعرضوا لعذاباتها بلا وجه حق، وبأنك كان من الممكن أن تكون مكانهم. واشكر الله ﷻ لأنه حماك من الوقوع في هذه الحال. وادعُ من أجل سلامتهم. ثم اذهب إلى المقابر واسمع الاستغاثات المكتومة المرتفعة من شاهدات القبور، وفكر بأن الندم لن يجدي نفعاً بعد فقدان نعمة العمر، لتعرف قيمة وقتك. اقرأ الفاتحة على أرواح الراقدين في القبور، واسعَ إلى استثمار أيامك الباقيات بالحمد والشكر والذكر».

على المؤمن إذن أن يسعى إلى عدم نسيان الله تعالى في أي زمان ومكان. قال الله ﷻ في ذلك:

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (الحشر، ١٩)

يقول عبد الرحمن السُلَمي إن إهدار الزمن، ومصاحبة من لا يهمهم غير أمور الدنيا، هما من أكبر عيوب النفس. أما علاج ذلك فيقدمه لنا فيما يلي:

«يجب أن تعرف أن الزمن هو أثمن ما في الحياة، وأن تستثمر هذا الزمن الثمين بأعمال ذات قيمة عالية مثله، أي بذكر الله ﷻ وعبادته دائماً، والسعي الدائم إلى توطين الإخلاص في النفس. قال رسول الله ﷺ، في ذلك:

"مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ المَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ" (الترمذي، الزهد، ١١/ ٢٣١٧)

وفيما يأتي ما جاء في الحديث الشريف عن تقدير قيمة الزمن ووجوب استثماره واستغلاله بقلب متيقظ:

"اغْتَنِمْ خَمْسًا قَبْلَ خَمْسٍ: شَبَابَكَ قَبْلَ هَرَمِكَ، وَصِحَّتَكَ قَبْلَ سَقَمِكَ، وَغِنَاكَ قَبْلَ فَقْرِكَ، وَفَرَاغَكَ قَبْلَ شُغْلِكَ، وَحَيَاتَكَ قَبْلَ مَوْتِكَ " (الحاكم، المستدرك، جـ٤، ٣٤١؛ البخاري، الرقاق، ٣؛ الترمذي، الزهد ٢٥)

"لَا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ القِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ عُمُرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ، وَعَنْ عِلْمِهِ فِيمَ فَعَلَ، وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ، وَعَنْ جِسْمِهِ فِيمَ أَبْلَاهُ" (الترمذي، القيامة، ١/ ٢٤١٧)

"نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ: الصِّحَّةُ وَالفَرَاغُ " (البخاري، الرقاق، ١)

لقد بيَّن الله تعالى في كثير من آياته أنه سيحاسب عباده في الآخرة على جميع النعم المادية والمعنوية. وقدم علماء الإسلام تفسيرات متباينة عن أهم النعم التي سيحاسب عليها العباد:



فقال ابن مسعود رضي الله عنه:

إنها «الأمان والصحة ووقت الفراغ».

وقد قال معاوية بن قرة: «أَشَدُّ الْحِسَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى الصَّحِيحِ الْفَارِغِ يقال له كيف أديت شكرهما» (إسماعيل حقي، روح البيان، التكاثر، ٨)

وما أكثر العبرة في تحذير الإمام الغزالي بشأن الإسراف في الوقت: «أي بني، افرض أنك مُتَّ اليوم. كم ستتأسف على لحظات الغفلة في حياتك. ستقول آهٍ ليتني، ولكن هيهات»

ويقول جنيد البغدادي:

«إن يوماً في الدنيا خيرٌ من ألف عام في الآخرة. لأن ماهية الكسب والخسارة من هذه الدنيا. فلا كسب أو خسارة في الآخرة»

الوقت المهدور سدى، خسارةٌ مؤلمة لا يمكن تلافيها. لأن ملفات الماضي قد أغلقت. يمكننا فقط أن نلوذ، في كل لحظة، بالحق، فنعمل على دوام الدعاء والتوبة والاستغفار، ونظهر ندامتنا على إسرافنا في الوقت، على أمل تلافي الخسارة معنوياً على الأقل.

إن نهر الحياة يتدفق بسرعة كبيرة. أيام عمرنا الفاني الذي حددته الإرادة الإلهية، تشبه قطرات ماء تملأ كأساً، علينا ألا ننسى أننا، مع كل يوم يمر، نقترب من نهاية حياتنا المحدودة، ونبتعد عن

الحياة الدنيا يوماً إضافياً، ونقترب من القبر. بما أن أجلنا مجهول لنا، علينا أن نتذكر دائماً أن لقاءنا بعزرائيل، عليه السلام، يمكن أن يحدث في كل لحظة، وأن نكون مستعدين للفظ نفسنا الأخير. قال الشاعر المشهور نجيب فاضل كورك في ذلك بعبارته الوجيزة:

في تلك اللحظة ترفع حجب وتسدل حجب

المهارة هي في الترحيب بملك الموت

لو تأملنا في ذلك لوجدنا أن المستقبل مفعم بالمخاطر بقدر ما هو مفعم بالبشائر. لا أحد يعرف كم ورقةً بقيت لنا من روزنامة وتقويم العمر.

اللّهمَّ أكْرِم وتفضَّلْ علينا بأن نبقى عباداً صالحين ومخلصين لك، إلى أن يأتينا اليقين[1] (أي الموت)، وأن نسلم الروح ونحن مسلمين[2].

واجعل اللّهمَّ من نصيبنا جميعاً أن نحيا حياةً بعيدةً عن الإسراف، ونقيم الإعتدال والتوازن في عالميْنا الداخلي والخارجي، وأن نزيّن نعمة الزمن التي وُهبناها، بالخير والحسنات. آمـــين...

---

١ انظر: سورة الحجر، ٩٩

٢ انظر: سورة آل عمران، ١٠٢.

الإسراف
في العلم-٣



إن الروح التي من شأنها أن تغذي المجتمعات بالعلم والعرفان، ليست روح المتحذلقين الأنانيين المنكبين على كتبهم الضخمة، بل هي روح المؤمنين الصالحين من أهل الخدمة الذين عمّقوا قلوبهم بحِكَم القرآن الكريم وشكلوا للبشرية شموس رحمة وطمأنينة.

أن تعرف هو أن تفهم لغز الخلق وتشهد الحكمة وأن تأخذ نصيبك من تجليات العظمة الإلهية ودفقات القدرة الإلهية.

الإسراف
في العلم-٣

يتطلب الأمر، لتكتسي الحياة بالروحانية والرهافة واللطف والمعنى وتتجمل، الإبتعاد عن الإسراف وما يشبهه من منكرات. لأن **الإسراف** هو نذير المصائب عند الفرد والعائلة والمجتمع جميعاً.

جميع النعم التي وهبها الله تعالى للإنسان هي عبارة عن أمانات. فإذا لم تصرف هذه الأمانات في محلها الصحيح، وتم إسرافها على ملذات النفس وأهوائها، حرمها الله ﷻ، بركتهُ.

علينا ألا نفهم من الإسراف، فقط ما تعلق منه بالأموال والممتلكات، بل هو يشمل جميع وجوه الحياة. لنعلم أن قضاء العمر بلا جدوى هو إسراف، ولنعلم أيضاً أن الإنشغال بعلم لا نفع منه، أو استخدام العلم في غير محله ولتحقيق المنافع الشخصية، هما من ضروب الإسراف الكبير.

الإسراف في العلم

العلم هو نشاط سام يرضي الفضول أو الميل إلى المعرفة والذي يوجد مع وجود الإنسان. العلم الذي يشكل ذروة الكبرياء البشرية،وهو يُوصِل المؤمن إلى معرفة الله ﷻ عن قرب، ويبلغ به رفعة تكريمه بالعبادات.



أكثر العلوم فضيلةً إنما هي معرفة الله ﷻ، أي التعرف إلى الله تعالى بالقلب. فكل الأنشطة العلمية، في عالمنا الفاني التي هي مدرسة للإمتحان، التي لا تبلغ بالعبد هذه النتيجة ولا تنقله إلى الحكمة، ولا تصله بالله تعالى، ليست غير إسراف في الميل الطبيعي عند الإنسان إلى المعرفة.

كلمة العلم، في القرآن الكريم، تُذكر في سياق ما يدفع الإنسان إلى مشاعر التقوى والخشوع في حضرة الله تعالى. جاء في القرآن الكريم:

﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (الزمر، ٩)

حين نحلل هذه الآية الكريمة بالترابط مع ما قبلها وما بعدها، نرى أنها تبيّن لنا بوضوح شديد ما يعنيه كل من العلم والجهل عند الله ﷻ. وفقاً لهذه الآية، يتطلب الدخول في زمرة "**الذين يعلمون**" السر والحكمة والحقيقة بالمعنى الحقيقي للكلمة، الانتباه إلى النقاط الرئيسية التالية:

١- إقامة الليل في الصلاة والسجود، للحصول على التواصل القلبي مع الله تعالى.

٢- الشعور بالقلق في كل لحظة وكل حال، من حساب الآخرة.

٣- الدعاء واللجوء الدائم إلى رحمته تعالى.

٤- ممارسة حياة التقوى التي تقربنا من الله تعالى، وحماية عالمنا الداخلي من الأوصاف المنكرة التي تبعدنا عنه.

٥- أن يكون المرء من أهل الإحسان، بالأخلاق الجميلة والكرم، وأن يحس بأنه تحت مراقبة العين الإلهية دائماً.

٦- بذل جميع الجهود لحماية القلب من رغبات القلب وأهوائه.

٧- الصبر على المشقات التي يمكن أن تعترضنا في سبيل عزة الدين وتبليغه.

أما "**الذين لا يعلمون**" فهذه أهم صفاتهم:

١- الكفر والجحود.

٢- التضرع إلى الله فقط حين يصبحون في ضائقة، والتوقف عن ذلك بعد انفراج كربتهم.

٣- الإستسلام لرغبات النفس وانصراف الناس عن طريق الله ﷻ والشرك فيه. جاء في القرآن الكريم:

﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلا﴾ (الفرقان، ٤٣)

إن جميع العلوم ما هي إلا تثبيت واكتشاف القواعد والقوانين التي وضعها الله تعالى للمخلوقات والحوادث. ويصبح تقدم العلوم ممكناً بزيادة هذه الإكتشافات. لكن مجرد التثبت من القواعد والقوانين التي وضعها الله ﷻ للكائنات والحوادث، لا يشكل

العلم بالمعنى الحقيقي للكلمة التي تُوصل العبد إلى حكمة الخلق. ولا العلم هو مجرد المشاهدة.

العلم المقبول هو فهم سبب خلق الكائنات وزوالها، وهو فهم لسان حال المخلوقات، وهو كشف السر بمعرفة الحكمة.

أن تعلم، هو أن تشهد على تدفق آيات القدرة والجلال الإلهيين، وأن تنال نصيباً من تجليات الله وبركاته بواسطة القلب.

أن تعلم، هو اكتشاف ما يلبي الحاجة. أما الحاجة فهي «أن تموت مسلماً»[1] كما جاء في الآية الكريمة.

أن تعلم، هو أن تتحرر من سجن النفس قبل الموت لتستيقظ على صباح الحق. أن تعلم، هو أن تستطيع محاسبة نفسك قبل أن يحاسبك الله ﷻ.

مولانا جلال الدين الرومي -قدس سره- الذي تعمق في حقائق العلم فغاص في بحر معرفة الله ﷻ، لخّصَ مرحلته الأولى التي بلغ فيها ذرى علوم الظاهر، لكنه لم يتذوّق بعد لذة القرب من الحق بعبارة «كنتُ خاماً»، ومرحلته الثانية التي نال فيها قلبياً تجليات الحكمة، بعبارة «نضجتُ»، ومرحلته الثالثة التي انفتحت فيها أمام عينيه تجليات أسرار الكينونة كصفحات كتاب مفتوح، بعبارة «احترقتُ».

---

١ انظر: سورة آل عمران، ١٠٢.



بالفعل، تزداد رقة الإنسان المتعمق في العلم ورهافته. فالعلم الحقيقي يجعل من المرء رحالةً في وديان الدهشة. كلما ازداد المرء معرفة بحكمة الكينونة وحقائقها، كلما ازداد معرفةً بعجزه ومحدوديته، أي بنفسه. ومن عرف نفسه فقد عرف ربه.

من يعلم، يعرف المالك الحقيقي للمخلوقات والممتلكات، فيصبح حضناً دافئاً للرحمة والرأفة تجاه المخلوقين بفضل خالقهم.

من يعلم يغفر، من يعلم يصبر، من يعلم يحب، من يعلم يسعى وراء رضاء ربه وقربه، وتتحول التضحية عنده إلى لذة.

من يعلم لا يؤذي ولا يتأذى، لسانه يوزع الرحمة.

من يعلم يختار مرضاة الله ﷻ، حين يضطر إلى الإختيار بين الدنيا والآخرة، أي بين مرضاة العبد ومرضاة الله ﷻ.

من يعلم يكون في سعي دائم إلى التقرب من الله ﷻ، سواء كان واقفاً أم جالساً أم مضطجعاً على جنبه[1]

من يعلم هو في حال من التفكر الدائم أمام العظمة الإلهية ودفقات القدرة الإلهية في الكائنات. بات اللطف والرهافة والرقة طباعاً أصلية فيه.

- **من يعلم** هو رجل القلب.

- **من يعلم** يجد الطمأنينة والسعادة في كل مكان وحال.

---

١ انظر: سورة آل عمران، ١٩١.



- **من يعلم** يشعر بمسؤوليته عن المجتمع.

- **من يعلم** يدرك أن الوطن والشعب والعَلَم عبارة عن أمانات ائتمن عليها. لأن حماية الإيمان والشرف والعرض والمال والروح، إنما تكون بحماية الوطن والشعب.

- **من يعلم** يسعى وراء حياة روحانية للتحرر من سجن النفس.

- **من يعلم** يكون قد تحرر من الانشغال بالألعاب المخادعة للحياة الدنيا، ويحمل خارج قلبه الممتلكات الزائلة التي بحوزته.

- **من يعلم** هو من نجا من شر المال والشهرة والشهوة.

- **من يعلم** يملك قلباً قادراً على الاستعاذة بالله أمام جاذبية الثروة والشهوة والشهرة[1]

- **من يعلم** يدرك أنه لا شيء أمام عظمة العلم الإلهي. فمن يعلم هو من يعلم أنه لا يعلم.

- **من يعلم** يتغلب على الحماقة ويدرك ما يتوجب عليه أن يعلم.

- **من يعلم** قد نال عذوبة الإيمان، لذلك فهو يتلذذ بالرحمة والخدمة والتواضع التي هي من ثمار الإيمان.

- **من يعلم** يدهش أمام جاذبية روائع الخلق الفني في الكون.

- **من يعلم** يفهم لغة العالم، لأن كل شيء يتحدث إلى من يعلم.

- **من يعلم** يحيا في تناغم مشاعر العقل والقلب.

١ انظر: سورة يوسف، ٢٣.



- **من يعلم** يحيا في حماسة وجد الإيمان وعشقه.

- **من يعلم** ينال نصيبه من العرفان.

- **من يعلم** يصل من السبب إلى المسبب، ومن الأثر إلى المؤثر، ومن الفن إلى الخالق المطلق.

- **من يعلم** ربه ويعرفه معرفة القلب، يعلم كل شيء. ومن لا يعلم به تعالى، لا يعلم أي شيء. فهو غارق في الحمق وعمى القلب.

يقول الذروة في معرفة الله ﷺ، فخر الكائنات ﷺ، في ذلك:

"وَاللَّهِ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا، وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا، وَمَا تَلَذَّذْتُمْ بِالنِّسَاءِ عَلَى الْفُرُشَاتِ، وَلَخَرَجْتُمْ إِلَى الصُّعُدَاتِ، تَجْأَرُونَ إِلَى اللَّهِ" (ابن ماجة، الزهد، ١٩/ ٤١٩٠)

حين توفي عمر رضي الله عنه، قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه:

«خسرنا تسعة أعشار العلم»

فقال له الصحابة الكرام:

«ما زال بيننا علماء»

أما ابن مسعود رضي الله عنه، فقد قال لهم:

«أنا أعني علم المعرفة»

جاء في القرآن الكريم:

﴿إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (فاطر، ٣٨)



نفهم من هذه الآية الكريمة أن علماً لا يحرك في القلب مشاعر التقوى والخشية من الله ﷻ، ليس ذلك العلم المقبول من الله ﷻ الذي تتحدث عن فضائله آيات القرآن والأحاديث الشريفة. والحال هذه، ما أشد الضلالة في تقديم بعض التنازلات بخصوص أوامر الله ونواهيه، في تحصيل العلم، بذرائع متهافتة، وفي مواربة الباب أمام بعض وجوه الضعف المعنوي، واختلاق الأعذار لها.

لا شك أن العلوم الدنيوية ضرورية أيضاً، على أن يتم استخدامها في محلها وبشكل صحيح. فالعلوم الدنيوية تقدم بدورها براهين جديدة على العظمة الإلهية، من خلال التقدم الذي تحققه. وبهذه الطريقة يتم إدراك عظمة الخلق الرباني وتجلياته الخارقة على أساس أكثر متانة وعمقاً. إن تقدم العلوم في زماننا هذا، سواء في ميدان اكتشاف الفضاء أو تقدم العلوم الجينية أو الإختراعات التكنولوجية الخارقة، يعرض أمام عيون الإنسان بكل وضوح دفقات القدرة الإلهية.

جاء في الآية الكريمة:

﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (فصلت، ٥٣)

إن الغاية من العلم الحقيقي هي الوقوف على الأسرار الإلهية المكنوزة في العالمين المادي والميتافيزيقي، وصولاً إلى معرفة الله ﷻ. أي إضافة إلى حقيقة الوجود الإلهي للخالق العظيم، الإنتقال

إلى دفقات القدرة الإلهية وتجليات العظمة الإلهية. ولكن بالرغم من كل التقدم العلمي والكشوف العلمية، هناك قلوب مريضة بالغفلة عاجزة عن الإنتقال إلى معرفة الخلق الإلهي. وا أسفي على تلك القلوب.

أولئك الذين يجعلون من العلم أداة لأطماعهم الدنيوية الوضيعة ويظلمون المجتمع، إنما يخونون العلم ويقعون بالتالي في إسراف قلبي وذهني فظيع. في حين أن العلم النافع يتطلب من الإنسان التغلب على مختلف أوجه الضعف في النفس، وتربية العقل والإرادة على ضوء القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة. إن علماً تم تحصيله محروماً من هذه التربية، من شأنه أن يجر الإنسان إلى دروب منكرة، فيصبح وسيلة من وسائل الضلال.

للأسف الشديد لا ينظر اليوم في التحصيل العلمي، إلا إلى إمكانيات الشخص الذهنية، ولا يعير أحد اهتماماً لإمتلاكه الفضائل والمزايا القلبية التي ستساعده في حمل أعباء العلم، أو عدم امتلاكه لها. في حين أن التحصيل الظاهري للعلم ليس كافياً من أجل السعادة والسلامة الأبديتين.

إن شخصاً لم يتمكن من تحويل علمه إلى عرفان، وعلى افتراض أنه درس الحقوق، من المحتمل أن يتحول إلى ظالم أو جلاد، بدلاً من توزيع الحقوق والعدالة على الناس. بالمثل، إن شخصاً درس علوم الطب، من المحتمل أن يتحول إلى جلاد،



بدلاً من مساعدة الناس على الشفاء من أمراضهم. وأما الشخص المحروم من الرأفة و الرحمة والمحبة، فيمكنه أن يتحول في غمضة عين إلى طاغية يظلم المؤتمرين بأمره، بالرغم من إمكاناته العلمية. إن أشخاصاً من هذا النوع يمكنهم، بفضل ما يملكونه من علم، ارتكاب الأذى بما يفوق قدرة الجاهل أضعافاً مضاعفة، وبسهولة شديدة. كذلك فهم يتعرضون للخسران الأبدي بسبب إسرافهم لعلمهم عن طريق استخدامه في الاتجاه الخطأ.

يمثل مولانا جلال الدين الرومي -قدس سره- على هذه الحقيقة، في المثنوية، بالمثال التالي:

«الشخص الموهوب العارف هو شخص جيد. ولكن اعتبر بإبليس فلا تُضْفِ قيمة رفيعة بأكثر مما تستحق على نفسك، ما لم يحصل التناغم بين علمك وقلبك. لا تنس أن إبليس اللعين المطرود من الرحمة الإلهية، كان طوال مئات آلاف السنوات من أقرب المقربين إلى الله تعالى ﷻ، وكان أمير الملائكة. جرفه علمه وعبادته إلى الغرور، فأساء إلى آدم عليه السلام بأن نظر إليه بازدراء، فانفضح كقذارة وانتهى أمره»

بالفعل، إن علماً يدفع بالمرء إلى الغرور والكبرياء، ويُغرِقُهُ في نهاية المطاف في متاهات الهلاك، قد يكون في ظاهره جميلاً ونافعاً، لكنه ليس في الحقيقة غير وبال. لهذا السبب كان رسول الله ﷺ، حين يطلب العلم من الله ﷻ، يتضرع إليه قائلاً:

"...**اللهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ**..." (مسلم، الذكر، ٧٣)



نفهم من ذلك أنه كما تشكل علوم الدين فرض عين على المسلم، كذلك هو الأمر مع معرفة التوكل والإخلاص وتجنب الرياء وما إلى ذلك. إن إهمال هذه الصفات وعدم تطبيقها في الحياة، يستوجب الهلاك في الآخرة. أولئك الذين لا يحصلون على العلم النافع، يُحرمون من الوصال مع الحق الذي هو الحقيقة الكبرى، مهما كانت معارفهم كثيرة.

يقول الإمام الغزالي في وصاياه الداعية إلى تجنب الإسراف في الزمن والجهد فيما يتعلق باكتساب العلوم:

«على العلوم التي تقرأها أن تنير قلبك وتُجَمِّلَ أخلاقك. إذا علمتَ، على سبيل المثال، أنه بقي من عمرك أسبوع واحد، فلا بد أنك ستهتم، في هذا الزمن القصير جداً، بعلم ينفعك. ستقوم من فورك بتفحص قلبك، وتقطع صلتك بالأطماع والمنافع الدنيوية وتسعى للتجمل بالصفات الجميلة. والحال أنه من المحتمل أن يموت المرء في كل يوم من حياته. لذلك على العلوم التي تختارها وتنشغل بها أن تدفعك إلى التأثر أمام العظمة الإلهية»

الخلاصة أن العلم يتصل بالشقاء. تتجلى حقيقة العلم من خلال الاختبار. إن علماً لا تختبره في حياتك هو عبءٌ بلا معنى أو كما جاء وصفه في الآية الكريمة «كمثل الحمار يحمل أسفاراً»[١]. يكون العلم علماً إذا كان يدفع المرء إلى الحق والحقيقة والتقوى والعمل

١ انظر سورة الجمعة ٥.



الصالح. وإلا فقد كان إبليس أيضاً ذا علم، ومثله قارون. لكن العلم نفخ في غرورهما وكبريائهما، فشعرا بثقة مفرطة بنفسيهما.

بهذا المعنى، ما لم يتم هضم العلم كما ينبغي ويتحول إلى عمل وينعكس في أخلاق المرء، ما لم يصبح جزءاً من شخصية المرء ويتسامى إلى عرفان، ما لم يدفع العبد إلى مشاعر التواضع والعدم والإنمشحاء، فإن كل الجهود المبذولة في تحصيل هذا العلم تعتبر إسرافاً.

علينا أيضاً ألا ننسى أن الله ﷻ قد وهب الإنسان كل الحقائق والأسرار بواسطة القرآن الكريم. ففيه جوهر جميع العلوم. إن حقيقة كل ما هو «رطب ويابس»[1] مكنوز في القرآن الكريم. قال تعالى:

﴿الرَّحْمَنُ. عَلَّمَ الْقُرْآنَ. خَلَقَ الْإِنْسَانَ. عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ (الرحمن، ١-٤)

فالقرآن هو آخر تعاليم الله ﷻ للنسل البشري وآخر رسائله إليه.

أكثر ما تحتاجه أمتنا والبشرية اليوم من علوم، هو علم القرآن. لذلك ينبغي الترويج أكثر لتعليم القرآن في أيامنا هذه. لكن فهم القرآن كما ينبغي يتطلب دخول جوه الروحاني وامتلاك التقوى التي هي جوهر معنوي. يحذِّرُ القرآن الكريم المؤمنين في ذلك بالقول:

﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾

(الفرقان، ٧٣)

---

١ انظر: سورة الأنعام، ٥٩.



﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (الزمر، ٢٧)

فالقرآن الكريم إذن قد بيّن لنا وجوب إقامتنا لعلاقة قلبية معه. لكن ذلك يتطلب بدوره طهارة القلب بقدر طهارة البدن، أي التربية المعنوية للنفس. جاء في القرآن الكريم أيضاً:

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ (محمد، ٢٤)

﴿قد أفلحَ من زكَّاها﴾ (الشمس، ٩)

يدعونا القرآن الكريم الذي هو دليل هدانا إلى التأمُّل. ولأن القرآن الكريم يعبِّرُ عن الإرادة الإلهية، فإن المقربين من الله تعالى يفهمونه أفضل وأحسن من غيرهم. جاء في القرآن الكريم:

﴿...وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ...﴾ (البقرة، ٢٨٢)

لذلك فكل آيةٍ تنفتح لنا وتتعمق بمقدار سويتنا القلبية.

جاء في القرآن الكريم هذا التحذير للأمة في شخص سيدنا الرسول ﷺ:

﴿... وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَمَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ﴾ (الرعد، ٣٧)

كما يتضح من هذه الآية الكريمة، حيث يصف الله ﷻ القرآنَ بالعلم، علينا نحن المؤمنين أن نولي ثقافة القرآن الأولوية بين ما ينبغي علينا تحصيله من علوم. ولا يمكن تصور حياة علمية بلا



قرآن. ولكن المؤسف أن بعض الناس في زماننا يدفعون بتعلم القرآن إلى المرتبة الثانية بل والثالثة في سلم أولوياتهم.

إن بعض الناس ينظرون إلى مسألة تعليم القرآن لأولادهم، لا بجدية تحصيل العلم، بل كما لو كان برنامجاً بسيطاً للعطلة الصيفية أو نوعاً من ملء وقت الفراغ. أي أنهم يتعاملون مع الأمر كالتخلص من واجب مفروض عليهم. ما أكثر ما يثير هذا السلوك من الأسف! إن واحداً من أكبر وجوه إهمال الأبوين لواجباتهم نحو أولادهم، يتمثل في عدم اهتمامهم بمعاني القرآن ومحتواه، بقدر اهتمامهم بتلاوته لفظاً.

إن عدم الإهتمام بالقرآن الكريم الذي هو أكبر ما وهبه الله ﷻ الإنسان من هبات، بما يستحقه من اهتمام، والإستخفاف بدورات حفظ القرآن بالقياس إلى العلوم الأخرى، ليس غير البحث عن المستقبل في الطرق المسدودة. ذلك لأن الإنسان يحتاج إلى الغذاء المعنوي أكثر من حاجته للغذاء المادي.

ما أجمل ما قال في ذلك مولانا جلال الدين الرومي:

«لا تهتم بالإفراط في تغذية الجسد وإنمائه. فليس هذا غير أضحيةٍ ستقدم في النهاية إلى التراب. عليك الإهتمام بتغذية قلبك. فهذا هو ما سيرتفع ويسمو ويتشرف. أعطِ الروح غذاء معنوياً. قدم



له التفكير الناضج والفهم المرهف والغذاء الروحي، ليذهب إلى مقصده قوياً قادراً»

إن المنافع الذاتية هي بمثابة سلاسل حديدية تقيد حياتنا الروحية. فلا يتوجه المؤمن إلى ربه بقلب نفعي. إن الميل إلى رغبات النفس كحجر ربط إلى الخصر، لا يمكن معه الطيران ولا السباحة. إن لم يشغل المؤمن نفسه بالحق، شغله الباطل. ما أجمل ما قال سعدي الشيرازي في ذلك:

«إن أرواح الناس المتمرغين في متعهم تشمئز من نفسها»

يا لها من ضلالة مفجعة أن يأمل المرء السعادة من رغباته السفلية! إن من سيهب الناس السعادة في المستقبل، ليس شهادات الفانين، بل الله تعالى. ما أكبر هذا التحذير في الآية الكريمة:

﴿... وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ (المنافقون، ٧)

علينا ألا ننسى أن الروح التي ستعجن المجتمعات بالعلم والعرفان الحقيقيين، ليست روح المتعلمين الأنانيين المنكبين فوق مجلداتهم السميكة، بل هي روح المؤمنين الصالحين من أهل الخدمة ممن عمقوا قلوبهم بحكم القرآن، وكانوا منهل الرحمة والطمأنينة للبشرية.



يلخص الشاعر محمد عاكف أرصوي -الذي نظم النشيد الوطني التركي- الوصفة التي تحتاجها السلالة البشرية التي تعيش في أزمة كبيرة، ومحتوى العلم الذي من شأنه منح الكرامة للعباد.

يا ربِّ! احفظنا من الوقوع في خسران البؤساء المحرومين من سعادة القرآن الذين يظنون بؤسهم سعادةً. اجعل من نصيبنا أن نحاسب أنفسنا قبل أن تتم محاسبتنا في حضرتك الإلهية، وأن نستحق عبوديتنا لك بقلب أكثر رهافة. احفظنا من الإسراف في حياة سعادتنا الأبدية بسبب أهواء النفس وغفلتها اللتين من شأنهما أن تدفعا بنا إلى تجاوز الحدود في الحياة الدنيا. آمـين...



الإسراف
في القيم الأخلاقية-٤



أمرنا ربنا أن نعيش بشكل يليق بالشرف الإنساني وبقلب حساس ضمن دائرة الأخلاق الحسنة في حياتنا كلها. لذلك وهب الحق تعالى الإنسان، من بين جميع المخلوقات الأخرى، ميزة الأخلاق.

لا يمكن التفكير بحياة دينية محرومة من جماليات الأخلاق. الإيمان الذي لا يزين بالقيم الأخلاقية يكون معرضاً للخطر دائماً أمام الأعاصير الشيطانية والنفسية، مثل ضوء شمعة غير محمية.

الإسراف

في القيم الأخلاقية-٤

الأخلاق من أهم الظواهر البشرية وهي عبارة عن عادات جميلة صادرة منا نحن العباد، مما يرضي الله تعالى. لذلك فصفة جمال الله من التجليات القلبية للمؤمن، والأخلاق الحسنة بموجب الحديث الشريف "**تَخَلّقوا بِأَخْلَاقِ اللَّهِ**" (المناوي، التعاريف، ص ٥٦٤)

الأخلاق تشكل شرف وعزة الإنسان وتعرض هويته الأوضح أمام الأعين. ولهذا السبب فالأخلاق وصف متفوق عائد إلى الإنسان من بين المخلوقات.

الإنسان الناضج يعتبر رمزاً للخليقة، فهو يحمل رقة ولطف تجليات المعجزات الإلهية في عالم الامتحان. والنسل البشري الذي خلق كمثال استثنائي للأعماق التي لا ترى والدقة التي لا يمكن الوصول إليها، ولا يمكن المحافظة على هذه القيم العالية إلا بعيش حياة عبودية ومثمرة بالقيم الأخلاقية.

خلق القلب باستعداد لنيل الشرف السامي ليكون كأداة نظر إلهي، ووضعه كنوع من المحافظة على الأخلاق. والحال هذه إذا لم يستطع الإنسان تزيين مزايا أخلاق عالمه القلبي طوال حياته غارقاً في الرغبات النفسية والجسدية، يكون قد أضاع مرتبته السامية



عند الحق تعالى، وخان شرف العبودية والإنسانية. وهذا يعني خسارة آخرته السامية بإسراف مرعب، بعدما نال شرفاً استثنائياً وتكريماً إلهياً، بخلقه على أجمل صورة بين الكائنات.

غاية الأخلاق هي إيصال الشخص إلى حالة «الإنسان الكامل» في طراز إسلامي مثالي بتطهيره من أوصافه الخام وإكسابه الشعور والإدراك تحت مراقبة إلهية دائمة. وقدرة نقش الطبيعة الأصلية في جوهر الإنسان، وثمارها العالية من الرحمة والشفقة والكرم والحياء والأدب واللطف والرقة. ومن وجهة النظر هذه فإن الأخلاق تحتل موقع الجوهر وحتى الروح جزء لا يتجزأ من الإيمان والدين. لذلك قال رسول الله ﷺ الذي بعث رحمة للعالمين، ملخصاً رسالته السامية:

"بعثت لأتمم حُسن الأخلاق" (الموطأ، حسن الخلق، ٨)

هذا يعني أنه لا يمكن التفكير بحياة دينية محرومة من جماليات الأخلاق. الإيمان الذي لا يزين بالقيم الأخلاقية يكون معرضاً للخطر دائماً أمام الأعاصير الشيطانية والنفسية مثل ضوء شمعة غير محمية.

وعلى هذا الأساس، واجب علينا المحافظة على ديننا وإيماننا وحمايتهما بالأخلاق الحسنة كدرع معنوي. لذلك قال فخر الكائنات ــ عليه الصلاة والسلام ـ في الحديث الشريف:

"عَنْ جبْرِيلَ، عَن اللَّهِ تَعَالَى قَالَ: "إنَّ هَذَا دِينٌ ارْتَضَيْتُهُ لنَفْسي، وَلَنْ يَصْلُحَ لَهُ إلَّا السَّخَاءُ وَحُسْنُ الْخُلُقِ، فأكْرِمُوهُ بِهِمَا مَا صَحِبْتُمُوهُ"

(الهيثمي، جـ٨، ٢٠/ ١٢٦٥٩؛ علي المتقي، الكنز، جـ٦، ٣٩٢)



إذاً الأخلاق الحسنة تحوز على هكذا أهمية مصيرية في الحياة الدينية. إن القلوب التي نالت نصيبها من حس هذه القيم ستصل إلى نشوة اللذة الحقيقية للإيمان وحلاوتها، أما القلوب الغافلة عن القيم الأخلاقية، فهي ستكون في إسراف حياتي حزين. لذلك فهذا الحديث يعبر عن الأخلاق الحسنة بأسلوب جميل، واعتبارها جسراً معنوياً يوصل الإنسان إلى مناخ الهداية والإيمان:

كان الصحابي حكيم بن حزام من أصحاب الأخلاق الحسنة - وفي نفس الوقت كان من أقرباء أمنا خديجة رضي الله عنها - وكريماً جداً وحنوناً، وصاحب خير و حسنات. ففي عهد الجاهلية كان يشتري بنات الوأد من آبائهن، منقذاً حياتهن ويضعهن تحت حمايته.

سأل سيدنا حكيم رسول الله ﷺ يوماً:

«يا رسول الله، أرأيت أشياء كنت أتحنث بها في الجاهلية من صدقة أو عتاقة، وصلة رحم، فهل فيها من أجر»

فقال عليه الصلاة والسلام:

"أسلمت على ما سلف من خير" (البخاري، الزكاة، ٢٤؛ مسلم، الإيمان، ١٩٤ـ١٩٦)

وكما في هذا المثال، فهناك أمثلة كثيرة تبين ارتباط الأخلاق الحسنة بروابط عظيمة مع الإيمان. منها، ادعاء فرعون بالألوهية مغروراً بما ملكه من سلطة وقدرة، فجمع السحرة للمبارزة مع سيدنا موسى عليه السلام.



هؤلاء السحرة، كانوا سابقاً يعيشون في غفلة عن الإيمان ولكنهم كانوا أناساً سيبتهجون بحصتهم من الأخلاق الحسنة سر مفتاح الإيمان. تأدب السحرة مع موسى عليه السلام، ومنحوه خيار البدء بالغلبة (**إمّا أن تلقي عصاك أو نلقي عصينا**) فبعث الحق تعالى إلى قلوبهم بذور محبة الإيمان لتأدبهم مع موسى فكان ذلك سبب إيمانهم. ولما رأى السحرة ما جاء به موسى من معجزات من الله عز وجل فخروا سجداً، وآمنوا عند ذلك. وليس كأي إيمان، بل إيمان لا يقبل التنازلات قطعاً حتى لو كان مقابل الفداء بالروح.

هنا شاهد فرعون وأتباعه المعجزة التي كانت سبباً لإيمان السحرة. إلا أنهم وقعوا في بؤس متمسكين في عناد أكبر بكفرهم. ونتيجة لذلك قتل فرعون السحرة وقطعهم بسبب ثباتهم على إيمانهم، فكانوا في أول النهار سحرة، وفي آخر النهار شهداء، فنالوا الثناء الإلهي للمرة الثانية،على شكل ذكرى سامية لكل المؤمنين مستقبلاً وإلى يوم القيامة بذكر قصصهم في القرآن الكريم.

إذاً من الواجب التفكير بالأخلاق الحسنة ومكانتها العليا في مرتبة الحق، والثمار السامية للقيم الأخلاقية مثل الرحمة والكرم ورقة القلب واللطف واللباقة. وأن تكون وسيلة تشرف بالأيمان المحرومين من الإيمان، الذي يعتبر من النعم الحياتية الكبرى، ومن يدري مدى نيل أهل الإيمان لمراتب سامية.

ومن جانب آخر الانجراف في إسراف القيم الأخلاقية نتيجة تردي المجتمعات، يهيئ الأساس للوقوع في كوارث كبرى. وهذا



خسران كبير للآخرة. إن سلامة وأمن الفرد والمجتمع ممكن بتربية جيل على روح رقيقة ولطيفة ومحب للوطن ومتدين أي صاحب أخلاق حسنة. لذلك قال محمد إقبال:

«المسلم مسؤول عن صيرورة الكون».

ولهذا نهانا الله عن مصاحبة الواقعين في جنون الإسراف إلى حد الشرك. فقال تعالى في الآية الكريمة:

﴿وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ. الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ (الشعراء، ١٥١-١٥٢)

وفي آية كريمة أخرى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ...﴾ (النور، ١٩)

إن الحرمان من نعم الحياء والأدب التي تكون في مقدمة القيم الأخلاقية، ينبع من النقص والضعف في الإيمان والدين. إن رسول الله ﷺ بقوله: **"إن الحياء من الإيمان"** (البخاري، الإيمان، ٣)

بيّن العلاقة الهامة بين الإيمان والأخلاق الحسنة. ولهذا فإن الذين يريدون انتشار الأفعال اللاأخلاقية مثل الفاحشة في المجتمع، يكونون بذلك مرتكبين جريمة كبرى بحق هذا المجتمع. ولكن الهدف الأساسي لكل الأديان بعد نشر مبادئها التوحيدية على وجه الأرض، هو تأسيس بنية اجتماعية سليمة مجبولة بالأخلاق الحسنة.

إن التاريخ الإنساني شاهدٌ على تجليات عديدة للإنتقام الإلهي بسبب الشهوات والفحش، المليئة بمسارح العبر لأصحاب الإدراك، ويكفي التجول بنظر العبرة لرؤية ذلك على وجه الأرض.

قال الله ﷻ في الآية الكريمة:

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ (الحج، ٤٦)

إن من علامات القيامة التي تعني هلاك الدنيا كلها، وقوع المجتمعات في جنون الإسراف متجاوزة حدودها في التفسخ الخُلقي. وهذا يستعرض صفة الإسراف المُهلك للقيم الأخلاقية. الأحاديث الشريفة تنبئ عن قرب القيامة عند تفسخ الأخلاق والتجاوزات، وهذه بعضها: قالَ رسول الله ﷺ:

"يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ، لاَ يُبَالِي الْمَرْءُ مَا أَخَذَ مِنْهُ، أَمِنَ الحَلاَلِ أَمْ مِنَ الحَرَامِ" (البخاري، البيوع، ٧، ٢٠٥٩)

"لَيَأْتِيَنَّ عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ يَكْذِبُ فِيهِ الصَّادِقُ، وَيَصْدُقُ فِيهِ الْكَاذِبُ، وَيَخُونُ فِيهِ الْأَمِينُ، وَيُؤْتَمَنُ الْخَؤُونُ، وَيَشْهَدُ الْمَرْءُ وَلَمْ يُسْتَشْهَدْ، وَيَحْلِفُ وَإِنْ لَمْ يُسْتَحْلَفْ، وَيَكُونُ أَسْعَدَ النَّاسِ بِالدُّنْيَا لُكَعُ بْنُ لُكَعٍ، لَا يُؤْمِنُ بِاللهِ وَرَسُولِهِ" (الطبراني، جـ٢٣، ٣١٤)

"يُوشِكُ أَنْ يَأْتِيَ عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ لَا يَأْمُرُونَ فِيهِ بِمَعْرُوفٍ، وَلَا يَنْهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ" (الهيثمي، مجمع الزوائد، جـ٧، ٢٨٠)

وقال رسول الله ﷺ يوماً:

"... يأتي على الناس زمان يذوب فيه قلب المؤمن كما يذوب الملح في الماء"

قيل: مم ذاك؟

فقال: **"مما يرى من المنكر لا يستطيع يغيره"** (علي المتقي، الكنز، جـ ٣، ٨٤٦٣/ ٦٨٦)

رواية عبد الله بن عمر رضي الله عنهما الآتية مثال بارز تبين بأن سبب الهلاك هو الضعف والإسراف الحاصل في القيم الأخلاقية:

أَقْبَلَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ:

"يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ خَمْسٌ إِذَا ابْتُلِيتُمْ بِهِنَّ، وَأَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ تُدْرِكُوهُنَّ: لَمْ تَظْهَرِ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ، حَتَّى يُعْلِنُوا بِهَا، إِلَّا فَشَا فِيهِمُ الطَّاعُونُ، وَالْأَوْجَاعُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ مَضَتْ فِي أَسْلَافِهِمُ الَّذِينَ مَضَوْا، وَلَمْ يَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ، إِلَّا أُخِذُوا بِالسِّنِينَ، وَشِدَّةِ الْمَئُونَةِ، وَجَوْرِ السُّلْطَانِ عَلَيْهِمْ، وَلَمْ يَمْنَعُوا زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ، إِلَّا مُنِعُوا الْقَطْرَ مِنَ السَّمَاءِ، وَلَوْلَا الْبَهَائِمُ لَمْ يُمْطَرُوا، وَلَمْ يَنْقُضُوا عَهْدَ اللَّهِ، وَعَهْدَ رَسُولِهِ، إِلَّا سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ غَيْرِهِمْ، فَأَخَذُوا بَعْضَ مَا فِي أَيْدِيهِمْ، وَمَا لَمْ تَحْكُمْ أَئِمَّتُهُمْ بِكِتَابِ اللَّهِ، وَيَتَخَيَّرُوا مِمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ، إِلَّا جَعَلَ اللَّهُ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ" (ابن ماجة، الفتن، ٢٢؛ الحاكم، جـ٤، ٥٨٣/ ٨٦٢٣)



إن الله ﷻ، ذكر تنبيهات عديدة في القرآن الكريم لنا نحن العباد كي لا نقع في هذه الأحوال، وبأننا مراقبون دائماً، ولم نُترَك هائمين حيث قال:

﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ (ق، ١٨).

وبذلك أمرنا بالإبتعاد عن إسراف العمر بالإنشغال في اللغو والإفراط والتفريط والشهوات والمبالغة ورعاية الحدود الإلهية في تصرفاتنا، واليقظة القلبية.

لذلك فهنالك آيات كريمة كثيرة تنصح بالأخلاق الحسنة وتأمر بالاتزان في التصرفات، وهذه اثنتان منها:

﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ (المؤمنون، ٣)

﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ (لقمان، ١٩)

في الحقيقة،إن «الفظاظة» أي الإبتعاد عن بعض جماليات الأخلاق مثل الرقة واللطف، تعتبر من أشكال التصرفات الرئيسة التي تؤدي إلى الإسراف في الأخلاق. وكأنه وداع للخصال الإنسانية وإنكار للفطرة البشرية مثل المركوب الذي ذكر في الآية الكريمة.

إن الأسلوب الذي يليق بالإنسان في الكلام كما بينه القرآن هو «القول اللين»[١]. أمر الله ﷻ عندما أرسل موسى عليه السلام، أن يكون

١ انظر: سورة طه، ٤٤.



حسن اللسان حتى مع فرعون. وكذلك أمرنا الله ﷻ برعاية مقاييس الرقة عند مخاطبة الناس، قائلاً:

﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ...﴾ (الإسراء، ٥٣)

وفي آية كريمة أخرى بيّن الله مقاييس الرقة في شخص رسول الله ﷺ، حيث قال الله ﷻ:

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ...﴾ (آل عمران، ١٥٩)

ومن جانب آخر، مراعاة الإعتدال شرط في التصرفات الأخلاقية كما هي في كل الأمور. وعلى عكس التقدير ينساق الشخص إلى الإفراط والتفريط، عند المبالغة في بعض التصرفات الأخلاقية المقبولة في قوام الاعتدال، أي الإسراف في الإيفاء.

مثلاً يعتبر إسرافاً للتواضع، المبالغة في «التواضع» الذي يعتبر من تصرفات الأخلاق الحسنة إلى حد التفاخر.

في الحقيقة بعض الناس يتظاهرون بالتواضع بقصد الطمأنينة النفسية كي يقال عنهم «متواضعون». وهذا الحال من الرياء والكذب عبارة عن تفاخر بزيّ التواضع الناجم عن التواضع المتباهى. مثلاً: أنا عاجز، ولكنني أستطيع أن أختم القرآن في ثلاثة أيام فقط. أو أنا فقير لكني بنيت مسجداً، وساعدت عدداً من الفقراء. وكلام كهذا،عبارة عن رياء وغرور يُستعرض تحت ستار التواضع. وخلاف ذلك،



يشكل إسرافاً أخلاقياً آخر؛ الوقوع في الذل بإظهار تواضع مبالغ أمام شخص متكبر والانسياق إلى التفريط عند الإنشغال بإظهار التواضع.

ونلاحظ أيضاً خسارة تتولد من الإسراف بالمبالغة في التصرفات الأخلاقية، واللامبالاة وفقد المقاييس الصادقة في العلاقات البشرية والصداقات وخصوصاً في الحياة العائلية. والإنجرار للغرور تحت شعار المحافظة على الوقار. هذا يعني أن الإتزان في التصرفات الأخلاقية وحساب جهة الخير ومقداره شرط لعدم الوقوع في إسراف الأخلاق.

مثلاً، قال رسول الله ﷺ بخصوص مخاطبة الخدم والعبيد، مستعرضاً حساسية ورقة واسعة:

"لَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ عَبْدِي وَأَمَتِي كُلُّكُمْ عَبِيدُ اللهِ، وَكُلُّ نِسَائِكُمْ إِمَاءُ اللهِ، وَلَكِنْ لِيَقُلْ غُلامِي وَجَارِيَتِي وَفَتَايَ وَفَتَاتِي" (مسلم، الألفاظ، ١٣)

ومقابل ذلك أمر بمخاطبة الذين يجلبون غضب الله على أنفسهم ويهدمون عالمهم القلبي بالفسق والفجور بحسب درجاتهم:

"لَا تَقُولُوا لِلْمُنَافِقِ سَيِّدٌ، فَإِنَّهُ إِنْ يَكُ سَيِّدًا فَقَدْ أَسْخَطْتُمْ رَبَّكُمْ عَزَّ وَجَلَّ" (أبو داود، الأدب، ٨٣/ ٤٩٧٧؛ أحمد، جـ ٥، ٣٤٦)

هذا يعني، يعتبر وقوعاً في إسراف الأخلاق استعمال مقياس ونفس الأسلوب في كل مكان مثل عدسة غير طبية بمقاييسَ



مثل التواضع والمجاملة في المناسبات البشرية. لذا ضرورةٌ أخلاقية التصرف بما يلزم، إظهار الخصومة لمن يستحق والمحبة للجدير بها. إذاً المهم هو القدرة على تقديم شخصية مؤمنة ناضجة بالمحافظة على توازن اعتداله برعاية المقاييس الإلهية في مسائل الأخلاق كما هي الحال في كل المسائل.

كان رسول الله ﷺ أسوة حسنة لأمته بشخصيته الرفيعة ذات الرقة وأسلوب معيشته اللطيف ولباقة كبيرة لأخلاق الإسلام في حياته بالذات. لذلك فرسول الله ﷺ عندما يرى شخصاً مذنباً في جماعة لم يكن يعاتبه على عيوبه صراحة، بل كان يومئ له بأن التصرف لا يناسبه، قائلاً:

"مَا لِي أَرَاكُمْ" ناسباً خطأ الرؤية إلى نفسه.

وأيضاً من تجليات هذه النظرية التربوية المملوءة بالرقة: ذات يوم شمّ رسول الله ﷺ رائحة كريهة في المسجد فقال:

"من أكل لحم ناقة فليتوضأ"

وبذلك حمّل هذا التقصير على الجماعة كلها كي لا يهين الشخص المذنب. يعني ذلك أنه أمر كل أصحابه بتجديد الوضوء من أجل ستر عيب لا إرادي صادر من شخص.[1]

١ إن المذهب الظاهري الذي لم يلحظ حكمة اللباقة في تصرف سيدنا الرسول هذا، واكتفى بظواهر الأحداث فقط، حكم بأن أكل لحم الجمل ينقض الوضوء.

لذا فالأخلاق النبوية كانت تلقننا دائماً درساً أن نكون من أصحاب القلب الرقيق والروح الناعمة واللطف والرحمة. ولهذا السبب كان رسول الله ﷺ يرد على الناس القادمين من الصحراء إلى الكعبة عندما ينادونه: « يا محمد! يا محمد!»

وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ رَحِيمًا رَقِيقًا، فَرَجَعَ إِلَيْهِ، فَقَالَ بأسلوب رقيق: "**مَا شَأْنُكَ؟**" (مسلم، النذر، ٨، أبو داود، الإيمان، ٣٣١٦/ ٢١)

ومن وجهة النظر هذه يتوجب مراعاة الأدب والرقة النبوية وبالأخص الأخذ بعين الاعتبار مستوى إدراك المُخاطَب، حتى في الأعمال الفاضلة مثل تنبيه وإرشاد الناس المخطئين.

ومن جانب آخر، شرط مهم جداً رعاية آداب وأصول الفضائل مثل "**الإنفاق**" و"**الكرم**" التي تعتبر من التجليات المهمة للأخلاق الحسنة. وعلى العكس يسبب إسرافا للفضائل، وهدماً لأجر الحسنات، الوقوع في أخطاء قلبية مثل الغرور وجرح الشعور،والمِنَّة والتعالي عند القيام بالحسنات. ولهذا السبب قدم أجدادنا حساسية لا مثيل لها من أجل عدم الوقوع بضعف الأخلاق في الحسنات.

حضّر أجدادنا دوراً للإقامة تحت اسم "تكية المساكين" ومدوا يد الرحمة لمرضى الجذام المنبوذين من المجتمع، وخاطبوا حتى الناس المتخلفين عقلياً بالقول «العجزة المحترمون» لحماية المشاعر الإنسانية.



وأنشؤوا أوقافاً من أجل حماية شرف النساء الوحيدات والمسنات غير القادرات على عرض احتياجاتهن للغير بسبب الوقار والحياء.

فكانوا يقومون بتأمين الصوف الممشط والمغسول والنظيف للنسوة المسنات، فتقوم النسوة بحياكته، ويقومون بتشريف النسوة بمنحهن كسب قوتهن دون الحاجة إلى مد أيديهن إلى أحد. وبعدها يشترون الخيوط والبضائع المصنوعة بأيدي النسوة المسنات بأثمان عالية.

وأحدثوا في الجوامع والأسواق «أحجار الصدقة»[1] بقصد تأمين السرية بين مانح الصدقة والممنوح له وعدم تعرفهم على بعض.

وكانوا يوزعون الطعام للمحتاجين، في ظلام الليل، والأبواب مغلقة لعدم جرح مشاعرهم.

وأقامت السلطانة الأم "بزمي عالم" وقفاً تعوض من خلاله أضرار الخادمات كي لا تتأذى اعتباراتهن التي تتوبخ بسبب الأشياء التي كَسَرْنها أو سبّبن ضرراً بها والعائدة لسادتهم الغليظين وغير المحترمين، الذين يعملون عندهم.

١ هي عبارة عن صخور مجوفة وعليها غطاء فيضع الغني أو المتصدق ما شاء في غاية من السرية ثمّ يأتي الفقير ويأخذ حاجته بسرية



لذلك فإن الله تعالى، لا يرضى أن يُهان عباده وتتألم أفئدتهم التي تعتبر منظاراً إلهياً. وإنها أمثلة رائعة لنا، ما ظهر من أجدادنا المباركين الذين أدركوا هذا جيداً أثناء عيشهم الأخلاق الإسلامية، من حساسية ولطف ورقة وأدب.

الخلاصة: أمرنا ربنا ﷻ أن نعيش حياتنا كلها بشكل يليق بالإعتبارات الإنسانية وبقلب حساس، ضمن دائرة الأخلاق الحسنة. لذلك منح الحق تعالى ميزة الأخلاق للإنسان وحده من بين المخلوقات. وعلى هذه الحال إنه لجنون وإسرافٌ فظيعُ وخسارةٌ مؤلمة بحق الشرف الإنساني، الوقوعُ في حالة الحيرة مثل المخلوقات الأخرى عند تفريطه بمزاياه الإنسانية!

ربنا،حافظ علينا من الإسراف الذي يؤدي إلى العبث بآخرتنا ومن كل أنواع السوء! واجعل لقلوبنا نصيباً من بركات أدعية رسولنا الأكرم ﷺ الصادرة من فمه المحسن:

"اللهم أصلح لي دنياي التي فيها معاشي، وأصلح لي آخرتي التي إليها معادي"

"اللَّهُمَّ كَمَا حَسَّنْتَ خَلْقِي فَحَسِّنْ خُلُقِي

اهْدِنِي لِأَحْسَنِ الْأَخْلَاقِ لَا يَهْدِي لِأَحْسَنِهَا إِلَّا أَنْتَ"[1] آمــين...

١ ابن حجر، فتح الباري، جـ١٠، ص ٤٥٦.



الإسراف
في التفكر-٥



التفكر الحقيقي، يبدأ من نقطة التقاء القلب والعقل بوحي مبارك. أصحاب الحق ينظرون إلى المعجزات الإلهية في الكون وكأنهم ينظرون إلى بئر عميق. فيبحثون هناك عن طريق إلى فضاء المعاني. فالكلمات عاجزة عن التعبير عن قلب يبصر وفؤاد يسمع. إذاً الذين يبصرون الكائنات بهكذا بحساسية قلبية، يصلون إلى نشوة المعجزات الإلهية الأبدية التي يستعرضها ربنا.

الإسراف

في التفكر-٥

إن الله ﷻ منح الإنسان ميزات مثل العقل والمنطق والتفكر وجعله متفوقاً على المخلوقات الأخرى. كل الأمثلة الواردة في القرآن الكريم تبين أن الخطاب موجه لأصحاب العقول. وأمرَ مراقبة كل الكائنات بعين العبرة، ولهذا السبب دعا العباد إلى التفكر الدائم و لمرات عديدة في الآيات الكريمة:

أفلا تتفكرون؟ أفلا يعقلون؟ أفلا يتدبرون؟ أفلا يبصرون؟ [١] كي تتأملوا ، وتأخذوا العبر.

ورد في القرآن الكريم ذكر «يا أولي الألباب» ست عشرة مرة مشيراً إلى العقل الحائز على قيمته الحقيقية من خلال مضمون الوحي. ولهذا السبب فأصحاب العقول الذين يطلبون العيش بما يليق بالاعتبارات البشرية، يتوجب عليهم المرور بحياة تأملية ينيره القرآن.

لولا أفق التفكر الذي يظهره الإسلام للبشرية، لكنا عاجزين عن التعبير وإدراك حقائق كثيرة بعقولنا فقط، وفوق ذلك نهيّئُ نعمة التفكر في خدمة منافعنا النفسية. ومن هذا المنطلق فنحن بحاجة إلى تنبيهات وإرشادات السنة والقرآن. لذا فالقرآن والسنة، الدليلان

---

١ انظر: البقرة، ٢١٩، ٢٦٦؛ النساء، ٨٢؛ الأنعام، ٥٠؛ الأحزاب، ٢٧؛ يس، ٦٨ ؛ محمد، ٢٤.



الفريدان في بيان أساسيات العيش على الصراط المستقيم وتوجيه التفكر الإنساني إلى الوجهة الصحيحة.

التفكر من أهم العبادات. يتوجب تعميق العالم القلبي بالتفكر، للوقوف على أسرار وحكم الأحداث والكائنات، من أجل حياة عبودية مقبولة. وكذلك يجب أن تكون أهداف المؤمنين وآفاقهم متآلفة مع الرضا الإلهي في كل شيء، حتى تنفسنا ومشاعرنا القلبية وكل الأفكار التي تنشغل بها عقولنا. لذلك خلقنا الله ﷻ كي نقوم بالعبودية لهذه الذات العظيمة. فكل التصرفات والأفكار المخالفة لحكمة وجودنا، تقربنا من حدود الإسراف.

إن العقل الذي يعتبر من النعم العظيمة التي منحت للإنسان، لا يكفي بمفرده لإيصال الشخص إلى الحقيقة. إن أهمية التفكر الإنساني مرتبطة بعمل الوظائف القلبية والعقلية في توازن منسجم. لو تم إعطاء الأهمية للعقل والقلب فقط قد يصبح الإنسان رجل عصر ناجح، أي إنسان المنافع. ولكن كي يصبح مؤمناً كاملاً، يتوجب عليه إرشاد عقله وتأهيل قلبه الذي يعتبر مركز المشاعر بالتربية المعنوية. لذا فالقلب الذي يعتبر مركز الحس يوجه التفكر، والتفكر يوجه الإرادة. هذا يعني أن القلب هو الدافع الأساسي لكل الأفعال الإرادية، وفيه تستقر الأحاسيس و تتجذر. ومن وجهة النظر هذه فاستقرار القلب في إطار الأوامر الإلهية، لهو أكثر أهمية من الأعضاء الأخرى.



إن الشخص الذي استنار عالم قلبه بنور السنة والقرآن، يكون عقله مألوفاً للحقيقة. خلق العقل والقلب بشكل يوصلان الشخص إلى الخير والحقيقة بشرط أن ينهل من النبع الإلهي. لهذا السبب التفكر الحقيقي، يبدأ من نقطة التقاء القلب والعقل المتشرفين بالوحي.

إن القيام بالتفكر في مواضيع خارجة عن نطاق العقل، إسراف آخر في التفكر. من الضروري التفكر في خصوصيات بنية الإنسان والكائنات والقرآن وتجليات صفات الله ﷻ. ولكن يعتبر نوعاً من إسراف الذهن، القيام بالتفكر في مواضيع تتجاوز الطاقة البشرية. مثلاً محاولة حل كامل الحكمة في أسرار القدر، أوالتفكير في الذات الإلهية. وهذه الحالة مُنعت في القرآن والسنة.

لذا فإن للعقل طاقة في الإدراك، كما للأذن حدوداً للسمع، وللعين مدى للنظر. لهذا السبب فالعقل بحاجة إلى إرشاد من الوحي. إن التفكر في الحقائق الإلهية، يعتبر وقوعاً في خسران الآخرة نتيجة إسراف الإنسان عند القيام بأعمال تتجاوز طاقاته، وتتجاوز حدود عقله، الأمر الذي يعتبر من أسباب الهلاك.

ينساق الإنسان إلى الشذوذ والشهوات الشيطانية، فيخرج التفكر العقلي من مجراه الأصلي، في حالة حرمان من إرشاد قلبي سليم تحت تسلط الآفات القلبية كالتكبر والغرور، على أرضية الرغبات النفسية. يقول مولانا جلال الدين الرومي - قدس سره -:

«لو كان للشيطان عشقاً مثل عقله، لما وقع إلى درك إبليس»



هذا يعني أن العقل بمفرده لا معنى له، وواجب عليه توجيه القلب إلى الحساسيات. لو تمكنا من إكساب الروحانية والتربية المعنوية للأحاسيس القلبية، لكان بالإمكان توجيه العقل لإستلام قيادته. من الصعب جداً وضع الأحاسيس تحت المراقبة. ولكن يتوجب علينا المثابرة على تآلف مشاعرنا مع الرضا الإلهي. وسبيل ذلك هو التفكر في فضاء السنة والقرآن. الآفاق المفتوحة بتأمل كهذا توصلنا إلى حالة تآلف الرضا الإلهي مع أحاسيسنا وتفكيرنا بكرم ولطف الله ﷺ.

القلب يعتبر مكان الأحاسيس، وهو في نفس الوقت مركز الإيمان. لأن الإيمان إحساس سامٍوشعور جليل. لأن الإيمان ليس إقرار بالعقل بل بالقلب. إن الكشف عن الأسرار الإلهية في الكائنات لا يتم إلا بواسطة عقل مرتبط بقلب مؤمن. ولهذا السبب الإيمان من أهم المسائل في الدين وأكثرها حساسية. لذلك الإيمان لا يقبل التساهل مع النفس ولا أي تنازل على الإطلاق. لأنه لو كان في الزجاج خدش كشعرة، فإن هذا الخدش يتسع مع الزمن وفي النتيجة ينكسر الزجاج. يتوجب أن يكون الإنسان مرهفاً ويقظاً دائماً لكي لا تظهر الخدوش، أي بقع سوداء في عالم قلبه.

إن الخشوع في العبادات يزيد الثواب؛ ومقابل ذلك فإن الغفلة تتسبب في إنقاص الثواب. ولكن انحراف التفكر إلى النفسانية يخلق ثغرة في القلب، ويعرض الإيمان للخطر. أما الغفلة في الإيمان ــ معاذ الله ــ فهي مفتاح السقوط.



وقارون مثال من الأمثلة التي لا تحصى على ذلك. لقد وهبَ الحق تعالى قارون ثروة كبيرة تكريماً لماضيه عندما كان عبداً صالحاً. ولكنه ادعى بأنه جمع الثروة بدرايته مخادعاً نفسه، فتجبّر وتكبّر، حتى أنه ذهب أبعد من ذلك حين اختلف مع سيدنا موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ فدفنه الله تعالى مع ثروته التي يستند إليها في أعماق الأرض. الآية الكريمة تبين عاقبته على الشكل التالي:

﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ﴾ (القصص، ٨١)

إن انحراف القلب عن أساس الإيمان يشبه من يجرح أصبعه بسكين عند سهوه لحظةً أثناء تقطيعه الخبز. فانزلاق السكين حدث آني. والأحاسيس تتطور هكذا بشكل آني. إن القلب يعتبر مركز الأحاسيس وأكثر الأعضاء حرية في الجسم. فالميول القلبية تتغير في أية لحظة كما فيه نصيب من الصفات الإلهية « المُضل» فيه أيضاً من الصفات الإلهية « الهادي». ومجهولٌ لمن ستكون الغلبة.

والمثال الآخر «بلعام بن باعوراء» الذي روي قِصَصُه بعبرة في القرآن. كان دعاؤه مقبولاً، وله كرامات لا تحصى. كان حينها من عباد الله الصالحين. ولكن هذا العبد الصالح أيضا أهلكته الميول النفسية الآنية. واتباعه أهواءه الآنية، أي تركه زمام عقله لأهوائه كان سبباً لهلاكه. القرآن الكريم يبين حاله هذا على الشكل التالي:

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ



﴿... كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الأعراف، ١٧٦)

كما تبين آنفاً، إن إعمال العقل في مجاراة الرغبات النفسية وخارج الوحي يسوق الإنسان إلى الحمق ويوقعه في الإرتباك الذي أورده القرآن مثالاً، ولهذا السبب كان رسول الله ﷺ في أدعيته يقدم لنا حالة روحانية لمؤمن مثالي قائلاً:

"يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغِيثُ أَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ وَلَا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ وَلَا إِلَى أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ"[1]

هذا يعني للمحافظة على إيماننا، يتوجب علينا دائماً توجيه تأملنا بإتباع تأهيل الإحساس بين «الرجاء والخوف» أي «الأمل والخوف». ويجب علينا أن نكون في يقظة ورقة قلب طوال حياتنا، كي نكون على الإيمان حتى آخر نفس من حياتنا. لذلك قال الله تعالى في الآية الكريمة:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران، ١٠٢)

مثلاً، يعتبر هلاكاً معنوياً أن تشعر بالكره تجاه من يستحق المحبة وتحب من يستحق الكره، كما أنها غير مقبولة من الله ﷻ. من الضروري توجيه الخصومة لمن يستحق، والمحبة للجدير بها.

١ الجامع الصغير، جـ١، ص ٥٨.



فيُمنح الصالحون السعادة والمحبة، قال تعالى في الآية الكريمة:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ (التوبة، ١١٩)

ومن جانب آخر فالشغف لأحد أعداء الدين يجلب الدمار.

ومن هذا المنطلق قال تعالى في الآية الكريمة:

﴿...فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (الأنعام، ٦٨)

هذا يعني من الضروري تأهيل مشاعرنا بالنهل من النبع الإلهي كي يستند تأملنا على أساس مقبول.

وقال الله ﷻ في آية كريمة أخرى:

﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ (الأحزاب، ٧٢)

ذُكر نعت الإنسان بصفتي (جهول) و(ظلوم) في الآية الكريمة، لأنه لم يقدّر بالشكل اللائق ثقل الأمانة الإلهية التي يحملها. وهو بنفس الوقت دعوة للإنسان من أجل تنبيهه وإبراز ثقل الأمانة.

وخلاصنا من صفات «الظلوم» و«الجهول» مرتبط بتحويل معارفنا العلمية الباطنية والظاهرية بالتفكر وأن نكون من صالحي الأعمال. لذلك أمر الله ﷻ بضرورة حضور العبادات الجماعية وأوصى بالصبر والحق، وأن نكون من صالحي الأعمال والإيمان من أجل خلاص الإنسان من الخسران كما ذكر في سورة «العصر». وبسبب احتواء سورة العصر على حقائق عميقة وجوهرية قال الإمام

الشافعي ـ رحمة الله عليه ـ :

«**لو تدبر الناس هذه السورة، لوسَعتهم**» (ابن كثير، تفسير سورة العصر)

ربنا يستعرض لنا آفاقاً تأملية شاسعة في القرآن الكريم. وبهذه الدلالة يقول في الآية الكريمة:

﴿**الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ**﴾ (آل عمران، ١٩١)

إن تجليات القدرة الإلهية في الزمان كالليل والنهار والمكان كالسموات والأرض، تدعو ذوي العقول للتقرب من الله ﷻ دائماً. إن الحق تعالى يرغب أن نكون ملمين بلسان حال الكائنات. لذلك كل الكائنات تتكلم مع الإنسان العطِش للبهجة الإلهية القلبية. كل شيء تذكر الإنسان بعظمة ربنا من الذرة حتى الكرة الأرضية.

إن التفكر في تجليات العظمة الإلهية يأخذ العبد إلى مناخ العدم والتواضع. إن نضوج المؤمن مرتبط بإدراك حدوده وعجزه أمام الله. يتوجب على الشخص كي يبعد علل التكبر والغرور عن نفسه، أن يعترف في كل لحظة بضعفه وعجزه وعدمه أمام ربه.

لذلك قال رسول الله ﷺ في أدعيته مستغفراً:

"**يا ربي! ما عرفناك حق معرفتك ...**" (المناوي، جـ٢، ٥٢٠)

إن النفس البشرية التي لم تر العجز والقنوط في الحياة، تتحول



إلى ثور هائج من أمثال فرعون ونمرود وقارون وهامان... فيكون وقع الظلم بالنسبة لهؤلاء مثل أنغام لحن جميل.

ومن جانب آخر، في الحقيقة تَلَقّي الشخص الدروس من مصائبه وأمراضه وعلله متألماً في عجز سيجلب له الخير. لذلك سيأخذه يأسه إلى مناخ التواضع، والزوال، والعدم والعجز؛ وهو يصرخ من أعماق قلبه «آه يا ربي».

وكذلك ينضج الإنسان روحياً بنسبة العوائق التي يجتازها والمصائب التي يتحملها. إن الله تعالى بناءً على هذه الحكمة مرّر رسله وعباده الصالحين في إطار الزهد بحسب درجاتهم. فكان ذلك وسيلة لنضج روحانيتهم،وتحولها إلى تجليات لطف خاص جداً لهم.

قال الشيخ سعدي الشيرازي:

«بالنسبة لأصحاب الإدراك كل ورقة في الشجرة كتاب مفصل في خصوص معرفة الله، أما بالنسبة للغافلين كل الأشجار لا تساوي ورقة»

إن وصول إدراكنا وإحساسنا إلى حالة تقبل الأسرار الإلهية في الكائنات، يتطلب قلباً عميقاً وإدراكاً مجبولاً بالتفكر.إن انسياب القدرة الإلهية في الكائنات لقصائد إلهية أبدية صامتة. تتعمق هذه القصائد الإلهية بنسبة الأحاسيس القلبية.



إن أصحاب الحق الذين يملكون عالم قلب رحيب، ينظرون إلى المعجزات الإلهية في الكائنات وكأنهم يبصرون إلى أعماق بئر عميق. ومن هناك يقطعون المسافات في فضاء المعاني.

الألسنة عاجزة والكلمات غير كافية في التعبير عن حال قلب يبصر، وفؤاد يسمع، إذاً الذين يبصرون الكائنات بهكذا حساسية قلبية، يصلون إلى نشوة المعجزات الإلهية. وتكون آذانهم صاغية لبيانات سر «لسان حال» الكائنات ويراقبون النسيج الرائع في أجنحة الفراشة التي لا يتجاوز عمرها الأسبوعين، والفاكهة التي تُعرض بأشكال مختلفة لا متناهية ورائحة ولذة وألوان الأشجار والبنفسج والأزهار والأوراق المتنوعة الألوان نباتات من أرض رأسمالها واحد. وبالنسبة لهم تكون كل الكائنات كتبٌ جاهزة للقراءة.

أما الغافلون الذين يكونون في حالة سطحية وعمياء في عالمهم القلبي والعقلي، يراقبون الأشياء من قشورها، فيبقون جاهلين الجواهر المعنوية داخلها. مولانا جلال الدين الرومي يعبر عن ذلك بشكل رائع:

«الذين يرغبون بالدنيا يشبهون الصياد الذي يصطاد الظلال. كيف ستكون الظلال رأسمالهم؟ لذلك قام صياد أحمق بالإمساك بظل عصفور، ظناً منه أنه العصفور. حتى العصفور احتار من أمر الأحمق وهو على الغصن»



قال صاحب حق:

«هذا الكون بالنسبة للعقلاء، هو فرجةٌ على البدائع، في حين أنه للحمقى طعامٌ وشهوة»

بالفعل إن القلوب العارفة التي تبصر بنظرة الحكمة والعبرة إلى العالم، تجني الحِكم من هذا العالم لإحساسها بنقطة مميزة في كل شيء. أما الغافلون فيقولون موسعين الظلام والهوة في قلوبهم: «آه يا روحي، اليوم تلذذ من الدنيا، وهل ستعود إلى الدنيا مرة أخرى!»

إن مولانا جلال الدين الرومي يدعونا إلى التفكير بحكمة وجودنا في هذا العالم والتفكر بأحوالنا برجاحة عقل، قائلاً:

«راقب هذا التجمع البشري بعبرة!..لِمَ تعمي بصرك وتتحامق وأنت ترى انسياب القدرة الإلهية وعظمتها في العالم الذي تعيشه، لماذا ترى رغبات جسدك ومنافعه كبيرة كالجبال، وترى التفكر السليم صغيراً كالنملة؟ أيها الواقع في أسفل السافلين؟ أنت تجهل عالم التفكر كما يجهل الحجر كل شيء، للأسف حرمت نفسك من النشوة الكبرى بتبديدك لتأملك!»

إنه من المحزن أن تضع نِعم التفكر في خدمة رغبات النفس. عدم التفكر علامة الحمق وكسل القلب. وعدم الإحساس يعني بقاء القلب كفيفاً وأصم. بقاء القلب بلا إحساس أمام كل هذه التجليات الإلهية، لا يتناسب مع الاعتبارات الإنسانية. إنه هلاك معنوي، مراقبة الكائنات بهيئة غافلة وعبوسة وغبية. الآية الكريمة تبين الحالة على الشكل التالي:



﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ (الحج، ٤٦)

إن مولانا جلال الدين الرومي يشبِّه استعمال نِعم التفكر في غير موضعها بـ «وضع المهملات في وعاء ذهبي». وهذا يعني الرضوخ للرغبات الدنيئة والوضيعة، الإسراف بنِعم التفكر التي هي أغلى من الذهب.

وأخيراً يجب التفكرُ في أرضية سليمة وبالشكل الصحيح. وعلى عكس ذلك يسوق التفكر الشخص إلى الخسران عندما لا يكون في مجراه الأساسي. لذلك ستكون عاقبة من خسر نِعم تأمله في سبيل رغبات النفس – الغافلين عن التنبيهات الإلهية – ندم في الآخرة. والآية الكريمة تبين ذلك:

﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾ (فاطر، ٣٧)

هذا يعني أنه من الضروري استعمال العقل في مكانه من أجل سلامة الحياة الأبدية في الحياة الدنيا. فيتوجب على أحاسيسنا وأفكارنا النهل من النبع الإلهي، لا من رغبات النفس والشيطان. قال مولانا جلال الدين منبهاً إلى لزوم اليقظة في هذا الخصوص:



«كل ما يتولد في داخلنا من أفكار شيطانية تقلقنا وأحلام ووساوس تخزُّ قلوبنا، عبارة عن أشواك لا ترى. هذه الأشواك تخزُّ قلوبنا آتية ليس من شخص، بل من آلاف الأشخاص»

لذلك يتوجب الإبتعاد عن الوساوس الشيطانية والنفسية التي تفسد تأملنا و مَلكاتنا الخاصة، وأن لا نخل بانسجامنا القلبي. فمصير القلب الهلاك نتيجة الغفلة والأحاسيس الخاطئة، كمثل الراديو عندما يصدر أصواتاً غير مفهومة بسبب عدم التوصل إلى التردد الصحيح. تستمر الأسماك في حياتها وسط البحار، والمخلوقات البرية وسط الهواء. أما روح الإنسان فتنال السعادة في الفضاء النوراني للقرآن والسنة.

إن التفكير بالموت هو، بلا شك، من أهم آفاق التفكر الذي يجعل الإنسان صاحب قلب نبيل ويخلصه من نشوة الإبتهاج النفسي والانخداع بالأهواء الشيطانية. قال الله تعالى في الآية الكريمة:

﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ (ق، ١٩)

وفي الحديث الشريف قال رسول الله ﷺ:

"أكثروا ذكر هاذم اللذات" يعني الموت (الترمذي، القيامة، ٢٦)

الناس الناضجون، هم الذين حضّروا أنفسهم للعالم الآخر بحل لغز ما تحت الأرض وهم أحياء. فلن نتوصل إلى أسرار الديار المستقبلية بدون التعمق في لغز ما تحت الأرض بالمثابرة والتفكر.



من الواجب على كل صاحب عقل سليم، الإدراك بالشكل اللائق في مناخ تأملي وقلب يقظ هذه الرحلة القصيرة من المهد إلى اللحد. ويمكن ذلك بإصغاء القلب لإرشادات الوحي، حل غموض المستقبل الذي لا يمكن إدراكه بتأمل بشري. وعلى عكس ذلك يكون الهرب من الموت، تعبٌ عبثي وخوف أعمى.

يدعونا الله تعالى نحن العباد إلى جنانه. ولهذا السبب يحذرنا من الضلال. لذلك قال الله تعالى في الآية الكريمة:

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ (المؤمنون، ١١٥)

وعلى هذا الأساس كان رسول الله ﷺ يتوسل إلى الله ﷻ حتى لا نكون أسرى الدنيا في تأملنا وخصوصياتنا فكان يدعو الله قائلاً:

"وَلَا تَجْعَلِ الدُّنْيَا أَكْبَرَ هَمِّنَا وَلَا مَبْلَغَ عِلْمِنَا" (الترمذي، الدعوات، ٧٩/ ٣٥٠٢)

وأيضا بين رسول الله ﷺ وجوب أن نكون في حالة شكر وحمد دائمين لله تعالى، والتفكير في حال المحتاجين،ودعانا إلى التفكر حتى في أدعيته التي يقرأها ليلاً.كما قال ﷺ:

"الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا، وكفانا وآوانا، فكم ممن لا كافي له ولا مؤوي" (مسلم، الذكر، ٦٤)

في الحقيقة من وظائف العبودية المهمة شكر الله تعالى والتفكر بالنعم الممنوحة له، قبل أن يخلد الإنسان إلى النوم في فراشه. ومن



المسؤوليات الكبرى وفي نفس الوقت من النعم الكبرى، أن نتمدد في الفراش المريح. فكم من الناس يقضون الليالي وهم محرومون من مأوى دافئ بسبب الكوارث التي تعرضوا لها. وأن نكون في أمن بعد قضاء حاجاتنا إلى جانب أناس لا تحصى أعدادهم الذين يتضررون من الحاجة أو تعرضوا للمخاطر، والنوم شبعاً مقابل الآلاف من الناس الجياع والعطشى في العالم. إنه من الواجب التفكير بكل ذلك.

إذاً يجب أن لا يكون مكان للإهمال في حياتنا التفكرية، وأن نقوم بمحاسبة النفس كل يوم قبل الخلود إلى النوم. لذلك قال سيدنا عمر ﵁: «حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا». وكان في كل ليلة يحاسب وجدانه بمسائلة نفسه قائلاً:

«لو هلك حمل من الضأن ضياعاً بشاطئ دجلة، خشيت أن يسألني الله عنه»

«ماذا فعلت اليوم لله يا عمر؟»

كم مرة عشنا هذه المشاعر بالشكل اللائق يا ترى؟ كم ليلة استطعنا أن نضع أفئدتنا التعبة من المشاغل اليومية بهذه المحاسبة؟ كم مرة فكرنا واضعين أيدينا على خدودنا بمدى صوابية سير حياتنا، ومن أين أتينا وإلى أين نعود، ولماذا خلقنا؟إلى أي مدى عشنا



موجبات ديننا، وإلى أي مدى عكسنا أوامر الله ﷻ في حياتنا، وإلى أي مدى استطعنا النفوذ إلى عالم روح وثقافة القرآن الذي يعتبر رسالة إلهية أرسلت لنا من الله، وكم سرنا على خطا رسول الله ﷺ الذي يعتبر بحياته تفسيراً حياً للقرآن. إلى أي مدى فكرنا بامتثالنا لحياة رسول الله ﷺ الذي يعتبر أسوة حسنة في تصرفاته وأفعاله وأحواله؟ كم نخشى من نواقصنا في هذا الخصوص؟ هل أضعنا من داخلنا ثروتنا القيمة التفكر؟

استعرض القرآن الكريم لنا أمثلة السحرة الذين بعدما نالوا الإيمان تصدوا بصدورهم للأذى الشديد، وأصحاب الأخدود الذين أحرقوا في الخنادق، و(حبيب النجار)[١] الذي تحمل الرجم كي ينقذ إيمانه، فإلى أي درجة ندرك قيمة إيماننا الذي تلطف به الله علينا؟

ربنا احفظنا من الإنسياق إلى الإسراف في نعم التفكر كما في كل النعم واحمنا من عدم التفكر! وآلف أفكارنا ومشاعرنا وعقولنا وقلوبنا مع الرضا الإلهي! آمــين....

١ حبيب النجار مـن أولياء الحق ﷻ استشهد في سبيل اعلاء كلمة الحق الـذي ذكر وصفه في سورة يس ﴿وَجَاء مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى ...﴾ وهو مدفون بمدينة أنطاكية في جنوب تركيا





الإسراف
في تأمين المعيشة وفي الإنفاق-٦



من المعروف أن في أساس الأزمات الروحية المتواترة في عصرنا، يكمن الربح بلا وجه حق وحق العبد وانعدام القناعة والطمع. من أجل التغلب على هذه المنكرات، يتوجب الحرص على مبادئ الإسلام التي تسعى إلى دفع الناس دائماً إلى الكسب الحلال وعدم تجاوز حقوق العباد.

أن يعد المرء نفسه كريماً بمجرد تقديم مساعدة بسيطة، وذلك بقياس عمله على تدهور سوية الكرم عموماً في المجتمع، لا يعدو كونه عزاءً أجوف للنفس. علينا مقايسة سويتنا في الكرم بسوية الصحابة.





الإسراف

في تأمين المعيشة وفي الإنفاق-٦

هذا العالم الذي نعيش فيه بهدف امتحان إلهي نتعرض له، قد ازدان بما لا يعد ولا يحصى من النعم التي تعكس تجليات حكمة القدرة والعظمة الإلهيتين. وكما من شأن هذه النعم أن تكسب العباد مرتبة عبودية رفيعة لله ﷻ، فمن شأنها بالمقابل أن تشكل وسيلة فتنة وخسران، بسبب غفلة العبد. إن إهدار هذه النعم، وكل منها أمانة إلهية، بعيداً عن غاياتها الأصلية أو على مذبح غايات النفس أو الشيطان، لهو جنون إسراف كبير.

بالفعل، لقد سخّر الله ﷻ كل ما في السماء والأرض لخدمة الإنسان، لكنه بيّن بالمقابل أن الإنسان سوف يحاسب في يوم القيامة على جميع تلك النعم. وفي ذلك جاء في الآيات الكريمة، :

﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ (التكاثر، ٨)

﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ...﴾ (آل عمران، ١٨٦)

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ (المؤمنون، ١١٥)

إن أكثر وجوه الإسراف بؤساً هو تحويل سعادة الآخرة الأبدية إلى خسران أبدي، من خلال الإخلال بالحدود التي رسمها لنا الله ﷻ.



غالباً ما يفهم الإنسان من الإسراف، بسبب غفلته، التبذير بإفراط في النعم المادية. وهكذا يحبس مفهوم الإسراف في ذهنه داخل إطار ضيق. ولكن كما أنَّ الإسراف في النعم المادية حرام، كذلك حُرِّمَ الإسراف في النعم المعنوية. بل إن الإسراف الواقع على النعم المعنوية، يستوجب وبالاً أشد وطأة وخسراناً أكبر.

وأحد أهم وجوه الإسراف المادية والمعنوية التي من شأنها أن تسبب ضياع السعادة الأبدية، هو الإسراف الواقع على تأمين المعيشة والمصاريف اليومية والإنفاق.

لقد قدر الله ﷻ أرزاق جميع عباده. تبين لنا الآيات الكريمة التالية أن الأرزاق محمية بضمان إلهي:

﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ. مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ. إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ (الذاريات، ٥٦-٥٨)

﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (العنكبوت، ٦٠)

﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (هود، ٦)

يبين لنا الله ﷻ، في هذه الآيات الكريمة، رحابة علمه وقدرته ورحمته غير المحدودة. وبالفعل، في الوقت الذي نعجز فيه عن



تخيل عدد الأحياء التي تحيا في ظلمات البرِّ والبحر ودهاليزها الخفية وفي أعماق المحيطات، ما أعظم تجلي القدرة الإلهية في وجود كل المعلومات عن كل واحد من تلك الأحياء بين يدي الله ﷻ، وفي ضمان أرزاقها في ظل العناية الإلهية.

بهذا المعنى، في الوقت الذي نركض فيه وراء أرزاقنا، علينا أن نتأمل في وجوب أن نكون مع «الرزاق» (أي الله تعالى الذي وهبنا أرزاقنا) في تواصل قلبي عميق. إن كفالة رب العالمين لعباده في شؤون الرزق، هي في الوقت نفسه أحد تجليات القدرة الإلهية. تعبر الأحاديث الشريفة التالية عن هذه الحقيقة أجمل التعبير:

"لَا تَيْأَسَا مِنَ الرِّزْقِ مَا تَهَزَّزَتْ رُءُوسُكُمَا، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ تَلِدُهُ أُمُّهُ أَحْمَرَ، لَيْسَ عَلَيْهِ قِشْرٌ، ثُمَّ يَرْزُقُهُ اللَّهُ ﷻ" (ابن ماجة، الزهد، ١٤/ ٤١٦٥)

"إن يمين الله ملأى لا يغيضها نفقة، سحاء الليل والنهار، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض، فإنه لم ينقص ما في يمينه، وعرشه على الماء، وبيده الأخرى الفيض - أو القبض - يرفع ويخفض." (البخاري، التوحيد، ٢٢)

من وجهة النظر هذه، القلق المبالغ فيه بخصوص الرزق والإندفاع بسبب ذلك نحو الإفراط، هو طمع من أطماع النفس ينبغي تجنبه. إن واجبنا هو التمسك بالأسباب والسعي لكسب الرزق الذي قدره الله لنا بالحلال. وعلينا أن ندرك هذا التقدير



الإلهي بوصفه خيراً، لنحيا في حالة من القناعة والرضا. إن الانسياق وراء مخاوف غير مبررة بصدد الرزق ونسيان الرزاق، والانحراف في دروب الحرام مدفوعين بجشع الكسب، هو تجاوز الحدود الإلهية في تأمين المعيشة والوقوع في الإسراف.

يجب علينا بالمقابل تجنب الوقوع في أسر أفكار تشجع على الكسل من نوع: «ما دام رزقنا مقدراً لنا منذ الأزل، فما حاجتنا إلى التعب؟». فهذا النوع من التفكير يعني الوقوع في تفريط من حيث أردنا تجنب الإفراط. يبين الله ﷻ الحالة المفجعة في الآخرة، لأولئك الذين يتصرفون في شؤون تأمين المعيشة بطمع وبخل وقد تعلقت قلوبهم بهوى الثروات الدنيوية، في الآية الكريمة التالية:

﴿وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ، الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ. يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ. كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ. وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ. نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ. الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ. إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ. فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ﴾ (الهُمَزة، ٢-٩)

أما رسول الله، ﷺ، فقد عبر عن قلقه من احتمال أن تقع أمته في الإسراف في تأمين المعيشة، وتبتعد عن الإعتدال، فقال في ذلك:

"إني مما أخاف عليكم من بعدي، ما يفتح عليكم من زهرة الدنيا وزينتها" (البخاري، الزكاة، ٤٧/ ١٤٦٥)



كما لا يجوز الإنشغال بإفراط يصل حد إهمال العبادات والخدمات الإجتماعية، كذلك يُحرَّم الإنسياق وراء تفريط من شأنه أن يؤدي بالأسرة إلى الحرمان والندم، أي التصرف بلا مبالاة وكسل. إن نظاماً متوازناً للعمل، لا يؤدي إلى إهمال العبادات والواجبات الاجتماعية، وكسباً بالحلال يجلب السعادة إلى الأسرة، يمثلان منهجاً مقبولاً ومباركاً وبعيداً عن الإسراف.

من جهة أخرى، يجب كسب الثروة في الحياة الدنيا للحصول على طمأنينة الضمير وسعادة الآخرة، عن طريق أعمال الخير والإحسان للعاجزين والبؤساء والغرباء في المجتمع، بدءً بأقرب المقربين. فالكرم والرحمة يجب أن يشكلا الطبيعة الأصلية للمؤمن.

إن الرحمة هي أكبر ثمرات الإيمان. وتتمثل أهم تجليات الرحمة في الإسراع إلى مساعدة ذوي الحاجة بكل الإمكانيات، بهدف تلافي حرمان الآخرين. وبكلمةٍ أخرى الإنفاق مما أنعم الله عز وجل على العبد، على من حرم تلك النعم.

ما أجمل ما قال في ذلك مولانا جلال الدين الرومي:

«إن الحياة الدنيا ليست غير حلم. يشبه امتلاك ثروة في الحياة الدنيا، العثور على كنز مخبوء في الحلم. أموال الدنيا تنتقل من جيل إلى جيل فتبقى في الدنيا»



من وجهة النظر هذه، يعني الامتناع عن إنفاق الأموال، وتركها للورثة المحرومين من التربية المعنوية، ولا يعرف أحد كيف سيتصرفون بالتركة، تحمّل حساب ثقيل في الآخرة. وليست هذه النتيجة من شأن العقل السليم. جاء في الآية الكريمة في ذلك:

﴿.. وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (التوبة، ٣٤)

سأل رسول الله ﷺ، ذات يوم صحابته:

"أيكم مال وارثه أحب إليه من ماله؟"

فقال الصحابة: «يا رسول الله، ما منا أحد إلا ماله أحب إليه»

فقال لهم الرسول عليه الصلاة والسلام:

"فإن ماله ما قَدَّم، ومال وارثه ما أَخَّر" (البخاري، الرقاق، ١٢)

أوصى الشيخ سعدي بخصوص استخدام النعم بالوصايا التالية:

«لا تظن أنه سيعلو شأنك بمراكمة النقود، فالماء الراكد يفوح برائحة نتنة. اسع إلى أن تَهَب وتنفق، فالسماوات تهرع لمساعدة المياه الجارية. تُمطرُ المطرَ وتحرِّضُ السيول على التدفق، ولا تتركها لتجف. العقلاء يصطحبون أموالهم إلى الآخرة. أما البخلاء فهم الذين يرحلون ويخلفون أموالهم هنا»



يحكي لنا أبو هريرة ﵁، فيقول:

«جاءَرجلٌ إلى رسولَ الله وقال له:«يا رسول الله، أي الصدقة أعظم أجراً؟» قال رسول الله ﷺ:

"أن تصدق وأنت صحيح شحيح تخشى الفقر، وتأمل الغنى، ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم، قلت لفلان كذا، ولفلان كذا وقد كان لفلان» (البخاري، الزكاة، ١١)

يحكي عبد الله بن شخير ﵁، فيقول: «كان رسول الله ﷺ، يقرأ يوماً سورة التكاثر. وإذ انتهى من تلاوتها قال:

"يَقُولُ ابْنُ آدَمَ: مَالِي، مَالِي، قَالَ: وَهَلْ لَكَ، يَا ابْنَ آدَمَ مِنْ مَالِكَ إِلَّا مَا أَكَلْتَ فَأَفْنَيْتَ، أَوْ لَبِسْتَ فَأَبْلَيْتَ، أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَمْضَيْتَ؟" (مسلم، الزهد، ٣-٤/ ٢٩٥٨)

وجاء في الأحاديث الشريفة أيضاً:

"مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ آمِنًا فِي سِرْبِهِ مُعَافًى فِي جَسَدِهِ عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا" (الترمذي، الزهد، ٣٤/ ٢٣٤٦)

"قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَسْلَمَ، وَرُزِقَ كَفَافًا، وَقَنَّعَهُ اللهُ بِمَا آتَاهُ" (مسلم، الزكاة، ١٢٥/ ١٠٥٤)



ويقول أبو أُمامة إياس بن ثعلبة رضي الله عنه: «تداول الصحابة، في أحد الأيام، في أحوال الدنيا، بحضور رسول الله ﷺ. فقال لهم:

"أَلَا تَسْمَعُونَ، أَلَا تَسْمَعُونَ، إِنَّ الْبَذَاذَةَ مِنَ الْإِيمَانِ، إِنَّ الْبَذَاذَةَ مِنَ الْإِيمَانِ" (أبو داوود، الترجل، ٢)

إن حال ثعلبة الذي كان رجلاً صالحاً، ثم غلبه طمع الدنيا فأراد الإثراء، وأهمل تحذيرات رسول الله ﷺ فكانت عاقبته مؤسفة، هي عبرةٌ كبيرة للمؤمنين الناضجين.

قال رسول الله ﷺ:

"لَيْسَ لِابْنِ آدَمَ حَقٌّ فِي سِوَى هَذِهِ الخِصَالِ، بَيْتٌ يَسْكُنُهُ وَثَوْبٌ يُوَارِي عَوْرَتَهُ وَجِلْفُ الخُبْزِ وَالمَاءِ" (الترمذي، الزهد، ص٥٧٢، ٣٠/ ٢٣٤١)

أراد رسول الله ﷺ، للمؤمنين حياةً متواضعة وقانعة بعيداً عن الإسراف، وطبق ذلك في حياته بالذات فكان قدوةً لأمته. عبرت أدعيتُه عن هذه الحال، كان يتضرع إلى الله قائلاً:

"اللهم ارزق آل محمد قوتا" (البخاري، الرقاق، ١٧/ ٦٤٦٠)

معلوم أن في أساس الأزمات الروحية التي تتوارد كثيراً في عصرنا، يكمن في الكسب بلا وجه حق، وحقوق العباد، وانعدام القناعة والطمع في الكسب أكثر والإستهلاك أكثر.

حتى نتمكن من التغلب على الجشع في الكسب وجنون الإسراف في الإستهلاك، يجب علينا الحرص على قواعد الإسلام التي تشجع دائماً على عدم أكل حق العبد وعلى الكسب الحلال. فحلال الكسب من حرامه يؤثران على عبادات الشخص ومعاملاته، وبالتالي في مصيره. وهذا هو الدافع الرئيسي المحرك لسلوك أولادنا السلبي منه أو الإيجابي. أي أننا إذا أردنا لأولادنا أن يكونوا بلا عيوب، وان يظلوا بمنأى عن المؤثرات السلبية والدنيوية، فعلينا قبل كل شيء الإنتباه إلى أن كسبنا هو بالحلال. إذا كانت القلوب في حال من الطاعة لأوامر الله تعالى وسنة رسوله، أصبحت الأبدان منابع خير وبركة. أما الأبدان التي لوثها الحرام أو المشبوه، فهي تصبح منبعاً للشر.

من وجهة النظر هذه، سيطيع محبو رسول الله ﷺ نصائحه حباً، وينأون بأنفسهم عن الإسراف والبخل، ويحرصون على حلال رزقهم، فيسيرون على دربه النوراني وينالون سعادة القرب منه إلى الأبد.

من جهة أخرى، تختلف موجبات كل عصر واحتياجاته. علينا أن نلبي هذه الاحتياجات وفقاً لدرجة أهميتها. فإذا تم تقديم مساعدة من غير أن تشكل تلبية لحاجة، كان ذلك نوعاً من الإسراف يعود إلى الخطأ في التقدير.



على سبيل المثال، حين يكون المجتمع بحاجة إلى الإنسان المؤمن الشريف الوطني، فيتم الإنفاق على حاجات على درجة أقل أهمية..وفي عصر تضعف فيه الحياة الدينية والأخلاق والمشاعر المعنوية، فإن الحاجة الأولى أهمية إنما هي تقوية هذه الجوانب والعمل على رفع السوية الدينية والأخلاقية والمعنوية.

قال الله ﷻ لافتاً الإنتباه إلى وجوب تحديد الأكثر حاجةً بين الناس، حين نريد الإنفاق، وإلى أهمية أن تصبح معرفة ذوي الحاجة ملكةً عند المؤمنين:

﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ...﴾

(البقرة، ٢٧٣)

إنه من وجوه الإسراف أيضاً أن نعطي شخصاً أكثر من حاجته، لعلاقةٍ شخصية تربطنا به، بوجود أشخاص أكثر حاجةً منه. لذلك يجب الإنفاق بما يتناسب وحاجات الفقراء.

قال مولانا جلال الدين الرومي –قدس سره– في ذلك:

«كم من أصحاب الثروة يكون عدم إعطائهم لمن لا يستحقون خيراً من إعطائهم. لذلك عليك أن تنفق ما أعطاه الله وفقاً لأوامر الله. إن الإنفاق في غير محله يشبه ما يفعله عبد متمرد حين يوزع أموال السلطان على قطاع الطرق الأشقياء»



على المسئولين في الأوقاف والجمعيات، بصورة خاصة، أن يضعوا هذا الأمر نصب أعينهم حين يقومون بتوزيع المساعدات، وأن يتصرفوا بدقة.

علينا الإنتباه إلى أمر آخر ألا وهو أن ما يمكن وصفه بالإسراف أو البخل عند أحد الأشخاص، قد لا يكون كذلك عند آخرين. ذلك لأن من يمتلكون نعماً مادية أو معنوية، قد يتفاوتون في الإمكانيات.

لذلك تم وضع معيار السعة أي الطاقة من أجل مسؤولية العبد وتكليفه تجاه ربه، فجاء في الآية الكريمة:

﴿**لا يكلف الله نفساً إلا وسعها**..﴾ (البقرة، ٢٨٦)

الأمر الذي يبين أن مسؤولية أي شخص في الميزان الإلهي، ليست مساوية لمسؤولية شخص آخر. لذلك فالسعي إلى تقديم أكبر مساعدة يمكن تقديمها بالقياس إلى الإمكانات، هو من مقتضيات الإيمان الكامل. لأنه من المحقق أن المرء سيواجه ديناً وتكليفاً كبيراً لقاء الحسنات التي لم يفِ بها برغم قدرته.

من جهة أخرى، إذا كان الشخص يقارن نفسه بسويات الكرم المتدنية في المجتمع، فيعدُّ نفسه كريماً إذا قدم مساعدةً صغيرة، فهذا لا يعدو كونه عزاءً أجوف للنفس.



لذلك علينا نحن المؤمنين، أن نقتدي برسول الله ﷺ وصحابته الكرام، ونطمح لبلوغ مستواهم في الإنفاق كما في غيره من الأمور.

لأن الإنسان إذا انطلق من مفهوم عموم الناس عن المساعدة والكرم، فقام بتقديم مساعدات ضئيلة بالقياس لإمكاناته، قد يكون عند الله مجرماً وبخيلاً، بدلاً مما أراده لنفسه من صفات الكرم والسخاء.

لِيَجْعَلْ الله ﷻ من نصيبنا مجانبة الحرام والمشبوه في كل الأمور. لِيَحفظْ قلوبنا بلطفه من الإسراف والبخل. ليحسن علينا بأن نستخدم كل ما أنعم به علينا وفقاً لرضاه الإلهي، لنقف بين يديه ببياض الوجه وطمأنينة الضمير. آمـين..





الإسراف

في الصحة والمأكل والمشرب-٧



كم من ضروب الإسراف نراها في المأكل والمشرب وفي حياتنا اليومية، وبخاصة في حفلات الزفاف والولائم، من شأنها أن تهز الضمائر. إن ضروب المغالاة كتقديم ولائم باهرة بهدف استعراض الكبرياء والغرور والقوة، والتشجيع على النهم بالولائم على طريقة العشاء المفتوح، أو ارتداء الثياب ذات الماركات المشهورة بهدف الظهور الإجتماعي، ستتحول حتماً إلى استغاثات الندامة في الآخرة. لأن حساب كل ذلك سيتم في الميزان الإلهي.





الإسراف

في الصحة والمأكل والمشرب-٧

إن نعمة الصحة واحدةٌ من أكبر الألطاف الإلهية التي لا يعرف البشر قيمتها بما تستحق من المعرفة. قال رسول الله ﷺ:

"نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ" (البخاري، الرقاق، ١/ ٦٤١٢)

مشيراً بذلك إلى الغفلة والإهمال الشائعين بهذا الصدد. فنبهنا بهذه الطريقة من التفريط بهذه النعمة العظيمة التي نملكها، فنندم.

قال ابن عمر رضي الله عنهما:

«إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وخذ من صحتك لمرضك، ومن حياتك لموتك» (البخاري، الرقاق ٣/ ٦٤١٦)

إن بدننا أمانةٌ من الله عز وجل عندنا، وله علينا حقوق. إذ لا يمكن أن يحيا المرء حياة عبودية مقبولة إلا ببنية صحيحة مادياً ومعنوياً. كذلك يمكن أداء العبادات براحة أكثر إذا كان البدن بصحة جيدة. حقاً هل يمكن الصلاة أو الصيام بارتياح وطمأنينة من غير التمتع بصحة جيدة؟ وكثير من العبادات والخدمات التي تقرب العبد



قلباً من خالقه، تقوم على نعمة الصحة. فإذا اعتلّت الصحة كادت العبادات والخدمات تفقد قوامها. لذلك ما دامت الفرصة سانحة وصحتنا على ما يرام، علينا الوفاء بحمدنا على هذه النعمة على أجمل وجه. علينا أن نبذل الجهد في عباداتنا ونسعى إلى فعل الخير.

والصحة، كالنعم الأخرى جميعاً، لا يمكن إنقاذها من الوقوع في الإسراف، ما لم نخضع للأوامر الإلهية. إن أكثر ضروب الإسراف في هذه النعمة إثارة للخوف، عن طريق الإضرار بالصحة بواسطة مختلف المحرمات، بدءاً بالسيكارة التي تبدو في غاية البساطة. أضف إلى ذلك أن من واجبنا حماية صحتنا على هدى العقل والأوامر الإلهية، ليس فقط بواسطة الغذاء، بل أيضاً في وجه الحرّ أو البرد أو حوادث السير التي تقع بسبب شرود الإنتباه، ما يعني حماية هذه النعمة الربانية من الإسراف.

لقد أرشدنا ديننا العظيم الإسلام إلى كثير من الوسائل والتدابير المادية والمعنوية لحماية صحتنا. فقد أمرنا بالاعتدال في المأكل والمشرب، وبتجنب دخول أماكن انتشرت فيها الأمراض السارية، وعدم خروج الناس المصابين من هذه الأماكن. بأوامر وتوصيات كثيرة من هذا النوع، حيث وضع الإسلامُ أسس الطب الوقائي.

إلى جانب التدابير المادية المماثلة، أوصانا الإسلام أيضاً ببعض التدابير المعنوية كتقديم الصدقات والقيام بالإنفاق، للنجاة



من ضروب البلاء. وبصدد التدابير المعنوية التي من شأنها حفظ صحتنا من المرض، قال رسول الله ﷺ:

"كل سلامى من الناس عليه صدقة، كل يوم تطلع فيه الشمس يعدل بين الناس صدقة" (البخاري، الصلح ، ١١/ ٢٧٠٧)

حقاً إن التمتع بالصحة والعافية نعمةٌ كبيرة تستوجب شكر الله ﷻ. ويمكن أداء هذا الشكر سواء بالصدقات المادية أو بالذكر والعبادة ومختلف الخدمات والأعمال الصالحة التي تؤدى لمرضاة الله ﷻ، وهذه جميعاً بحكم الصدقات المعنوية.

الصحابة الكرام الذين تم تقديمهم قدوة لنا بسبب فضائلهم الرفيعة بذلوا كل ما في وسعهم من جهود في سبيل الله ﷻ، بوعي منهم أنهم يستخدمون النعم التي أحسن الله إليهم بها كرأسمال للآخرة. وأحسن الله تعالى على جهودهم العظيمة المتدفقة كالسيل، باليمن والبركة. الإستهلاك بإفراط الذي هو واحد من أمراض عصرنا الفتاكة، والشراهة والأبهة الإستعراضية، كلها أنماط حياة لم يعرفها نسل الصحابة. فقد عاش هؤلاء في ظل إدراكهم أن المحطة التالية للنفس هي القبر.

من جهة أخرى، إذا لم نعط البدن، وقد وهب أمانةً لنا لمدة محددة، ما يكفيه من الغذاء، سواء بسبب البخل أو العوز، فمن المؤكد أنه سيتعرض لأمراض وعلل مختلفة. إن إشباعه، على العكس، إلى حد التخمة، يؤدي إلى النتيجة نفسها. وإذا كان الأكل

حتى التخمة يمكن أن يكون بطعام حلال، فمن المحتمل أن يكون أيضاً بطعام حرام. وفي هذه الحالة الأخيرة تعتل الصحة المعنوية للشخص إضافة إلى صحته المادية.

تختلف حساسيات الناس فيما خص المأكل والمشرب، بما يتناسب وسويتهم المعنوية. ففي الشرع مثلاً، تناول الطعام بعد الشبع هو إسراف. أما في الطريقة فالأكل حتى الشبع هو الإسراف. وفي الحقيقة، إن أكل مقدار الكفاية مع الغفلة عن حضور الله هو الإسراف. أما في المعرفة، فإضافة إلى كل الحالات المذكورة، الأكل بغير تأمل في التجليات الإلهية فيما أنعم به علينا، هو الإسراف.

الحديث التالي الذي جرى بين خضر عليه السلام، والشيخ عبد الخالق غوجدواني، تقدّسَ سره، حين قام الأول بزيارة الثاني، يعرض لنا ذروة الرهافة المعنوية في المأكل والمشرب:

رفض خضر عليه السلام، الطعام الذي قدمه له الشيخ عبد الخالق غوجدواني، وابتعد عن المائدة، فسأله مضيفه في دهشة:

«إنها لقيمات حلال، لماذا لا تأكل؟»

فقال له خضر عليه السلام: **«أعرف أنها لقيمات حلال، لكن من طهاها قد طهاها بغضب وغفلة»**

كما نرى، فإلى جانب كون الطعام حلالاً أم حراماً، من المهم أن نعرف أيضاً في أي حالة روحية تم طهوه. فذلك يؤثر على

روحانية حال الإنسان وسلوكه وعبادته، الأمر الذي يكشف لنا أهمية طريقتنا في التعامل مع شؤون الطعام.

مع الأسف، لا أحد يفكر هذه الأيام، بالأطعمة التي تباع مكشوفة، ولا يعرف أحد كيف تم طهيها، ويصبح للبؤساء المحرومين حقاً بصرياً فيها كحق العين، وبأضرارها على بنياننا المعنوي. والحال أن مصير الغذاء الذي نتناوله، أي الطريقة التي نحصل بها عليه، يؤثر على إحساساتنا. إن للقمة الحلال مكانة مصيرية في صفاء القلب. قال عبد القادر الجيلاني في ذلك:

«الطعام الحرام يميت القلب، والطعام الحلال يحييه. هناك لقمة تشغلك بشؤون الدنيا، ولقمة تشغلك بشؤون الآخرة. وهناك لقمة تقرِّبكَ من الله تعالى»

ويقول مولانا جلال الدين الرومي -قدس سره-: «دخلت معدتي، مساء البارحة، بضع لقيمات مشبوهة فسدَّت طريق الإلهام».

معنى ذلك أنه علينا الإنتباه إلى حالة ما نتناوله من غذاء، مادياً ومعنوياً على السواء. يقول مولانا جلال الدين في ذلك أيضاً:

«لا تهتم بتغذية الجسد وتنميته بإفراط، فهو ليس سوى أضحيةٍ سيقدم في النهاية إلى التراب. اهتم بتغذية قلبك. فهو الذي سيسمو ويتشرف. قلل مما تغذي به جسدك من أطايب الطعام. لأن من يبالغون بإطعامه ينحدرون نحو شهوات النفس وينتهي بهم المطاف إلى الانحطاط»



إن التصرف بإسراف في موضوع بهذه الحساسية، لا يناسب شخصية المؤمن أبداً. قال السلف الصالحون:

«لقد جمع الله علم الطب كله في آية واحدة: ﴿...**وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ**﴾ (الأعراف، ٣١) معبرين بذلك عن أهمية مجانبة الإسراف في الطعام والشراب، من أجل حياة صحية مادياً ومعنوياً.[1]

جاء في الحديث الشريف:

"كلوا واشربوا والبسوا وتصدقوا، في غير إسراف ولا مخيلة"

(البخاري، الملبس، ١)

في إعلان عن الحدود المشروعة في تلبية حاجات الإنسان.

وجاء في حديث شريف آخر:

"إِنَّ مِنَ السَّرَفِ، أَنْ تَأْكُلَ كُلَّ مَا اشْتَهَيْتَ" (ابن ماجة، الأطعمة، ٥١/ ٣٣٥٢)

هذه الحالة التي تسمى في اللغة الشعبية «النهم» رفضها ديننا أيضاً. ويشير ذلك إلى حقيقة أخرى مفادها أن امتلاك إمكانيات كبيرة لا يمنح المشروعية للمبالغة في الإستهلاك.

ومن ذلك أن عمر رضي الله عنه التقى جابراً رضي الله عنه، مرةً وفي يده قطعة لحم، فسأله عما في يده. فأجاب جابر رضي الله عنه قائلاً: «هَذَا لَحْمٌ اشْتَرَيْتُهُ اشْتَهَيْتُهُ» فما كان من عمر رضي الله عنه، إلا أن حذره قائلاً:

١ انظر: ابن كثير: التفسير، جـ٢، ص ٢١٩.

«أَوَ كُلَّمَا اشْتَهَيْتَ شَيْئًا اشْتَرَيْتَهُ؟ أَمَا تَخْشَى أَنْ تَكُونَ مِنْ أَهْلِ هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿**ويوم يعرض الذين كفروا على النار أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون**﴾ (الأحقاف، ٢٠)؟» (ابن حنبل، الزهد، ص ١٢٤/ ٦٥٣)

وما أجمل ما أوجز الرسول ﷺ المعيار الذي يجب اتباعه في المأكل والمشرب، والأثر الكبير لذلك على الصحة، بالقول:

"مَا مَلأَ آدَمِيٌّ وِعَاءً شَرًّا مِنْ بَطْنٍ. بِحَسْبِ ابْنِ آدَمَ أُكُلَاتٌ يُقِمْنَ صُلْبَهُ، فَإِنْ كَانَ لَا مَحَالَةَ فَثُلُثٌ لِطَعَامِهِ وَثُلُثٌ لِشَرَابِهِ وَثُلُثٌ لِنَفَسِهِ" (الترمذي، الزهد، ٤٧/ ٢٣٨٠)

هذه البيانات النبوية تتضمن وصفة طبيةً لمعالجة كثير من الأمراض الناجمة عن جنون الإسراف والاستهلاك في عصرنا.

وأوصى عمر رضي الله عنه، بالوصايا التالية:

"إياكم والبطنة في الطعام والشراب! فإنها مفسدة للجسد، مورثة للسقم، مكسلة عن الصلاة؛ وعليكم بالقصد فيهما! فإنه أصلح للجسد، وأبعد من السرف؛ وإن الله تعالى ليبغض الحبر السمين، وإن الرجل لن يهلك حتى يؤثر شهوته على دينه."أبو نعيم" (علي المتقي، الكنز، جـ١٥، ٤١٧١٣\٤٣٣)

كتب الرحالة الغربي ثيفينو، في كتابه المنشور في باريس في ١٦٦٥، عن طهارة أجدادنا الذين رفعوا راية الإسلام طوال قرون، وبساطتهم واعتدالهم في المأكل والمشرب، وما أدى إليه هذا المسلك في حياتهم اليومية إلى قيام مجتمع يتمتع بالصحة، فقال في وصف ذلك:

"يعيش الأتراك حياة صحية، وقلما يتعرضون للمرض. لم أر لديهم أمراض الكُلى الشائعة في بلداننا وغيرها من الأمراض الخطيرة. فلا يعرفون حتى أسماء تلك الأمراض. أظن أن أحد أهم أسباب صحة الأتراك الممتازة هو اغتسالهم بكثرة واعتدالهم في المأكل والمشرب. فهم يأكلون قليلاً جداً، وما يأكلونه لا يشبه الأطعمة المنوعة كما هي لدى المسيحيين"

يقول مثل تركي: «على المرء ألا يعيش ليأكل، بل أن يأكل ليعيش». يعبر هذا المبدأ في الوقت نفسه، عن أحد الصفات المهمة في المؤمنين. الحادثة التالية معبرة جداً عن معيار الأخلاق الإسلامية بهذا الخصوص:

جاء ضيف ذات يوم إلى رسول الله ﷺ وكان وقتها من الكفار. طلب الرسول أن تحلب نعجة من أجله. شرب الضيف الحليب الذي قدم إليه حتى انتهى منه. فقدموا له كمية أخرى من الحليب، أتى عليه أيضاً، فجلبوا له كمية ثالثة أتى عليها أيضاً. وهكذا شرب



سبع أواني كاملة من الحليب. وفي اليوم التالي أسلم هذا الضيف. فأمر رسول الله أن يقدموا له الحليب أيضاً. شرب الضيف الحليب. فأمر رسول الله ﷺ بكمية إضافية لتقدم له. لكن الضيف لم يتمكن هذه المرة من شرب الحليب كله. فقال فخر الكائنات:

"الْمُؤْمِنُ يَشْرَبُ فِي مِعًى وَاحِدٍ، وَالْكَافِرُ يَشْرَبُ فِي سَبْعَةِ أَمْعَاءٍ"

(مسلم، الأشربة، ١٨٦/ ٢٠٦٣)

يريد لنا الله ﷻ أن نعتدل في المأكل والمشرب، وأن نبتعد عن طريقة الأكل عند عديمي الإيمان. ويحذرنا في ذلك بالقول:

﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾ (محمد، ١٢)

وتدخل جميع التصرفات المخلة ببركة الطعام في دائرة الإسراف. وهكذا فالشروع في تناول الطعام قبل غسل اليدين والبسملة، هو من الجحود والإسراف، مثله مثل القيام عن الطعام من غير الشكر لله تعالى. جاء في الأحاديث الشريفة:

"بَرَكَةُ الطَّعَامِ الْوُضُوءُ قَبْلَهُ وَالْوُضُوءُ بَعْدَهُ" (الترمذي، الأطعمة، ٣٩/ ١٨٤٦)

"مَنْ نَامَ وَفِي يَدِهِ غَمَرٌ، وَلَمْ يَغْسِلْهُ فَأَصَابَهُ شَيْءٌ، فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ" (أبو داوود، الأطعمة، ٥٣/ ٣٨٥٢)



الحرص الذي أبداه أجدادنا في غسل اليدين قبل الطعام وبعده، يستحق التقدير حقاً. يعبّر كاتب يدعى ريكو، وكان يعمل في سفارة إنكلترة في باسطنبول في القرن السابع عشر، وكان شخصاً معادياً للأتراك، في أحد كتبه، عن حساسية أجدادنا بخصوص النظافة، كما يلي:

«لقد شاعت بين الأتراك عادة غسل اليدين قبل الطعام وبعده، إلى درجة أنهم يتحدثون عن أن الله خلق الأغذية فقط بهدف غسل اليدين، كما لو كان هذا مثلاً يضرب أو حكمة من الحكم»

إذن فهذا الحرص على النظافة في الطعام والشراب، يضفي على النعم البركة، إضافة إلى أنه يؤدي إلى الطمأنينة والصحة مادياً ومعنوياً. كما أن الطعام الذي يبدأ بالبسملة وينتهي بالحمدلة يشكل ينبوع شفاء من الأمراض، في حين يؤدي الطعام الذي تم تناوله بلا بسملة ولا شكر، إلى الغفلة والبلادة. انطلاقاً من هذه الحكمة قال رسول الله ﷺ:

"إِذَا دَخَلَ الرَّجُلُ بَيْتَهُ، فَذَكَرَ اللهَ عِنْدَ دُخُولِهِ وَعِنْدَ طَعَامِهِ، قَالَ الشَّيْطَانُ: لَا مَبِيتَ لَكُمْ، وَلَا عَشَاءَ، وَإِذَا دَخَلَ، فَلَمْ يَذْكُرِ اللهَ عِنْدَ دُخُولِهِ، قَالَ الشَّيْطَانُ: أَدْرَكْتُمُ الْمَبِيتَ، وَإِذَا لَمْ يَذْكُرِ اللهَ عِنْدَ طَعَامِهِ، قَالَ: أَدْرَكْتُمُ الْمَبِيتَ وَالْعَشَاءَ" (مسلم، الأشربة، ١٠٣/ ٢٠١٨)



تحكي عائشة ﵂ فتقول:

كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: يَأْكُلُ طَعَامًا فِي سِتَّةِ نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، فَجَاءَ أَعْرَابِيٌّ، فَأَكَلَهُ بِلُقْمَتَيْنِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:

"أَمَا أَنَّهُ لَوْ كَانَ قَالَ: بِسْمِ اللَّهِ لَكَفَاكُمْ، فَإِذَا أَكَلَ أَحَدُكُمْ طَعَامًا، فَلْيَقُلْ: بِسْمِ اللَّهِ، فَإِنْ نَسِيَ أَنْ يَقُولَ: بِسْمِ اللَّهِ فِي أَوَّلِهِ، فَلْيَقُلْ: بِسْمِ اللَّهِ فِي أَوَّلِهِ وَآخِرِهِ" (ابن ماجة، الأطعمة، ٧/ ٣٢٦٤)

على المؤمن أن يبسمل أيضاً قبل شرب الماء، وأن يشربه على ثلاث جرعات، وأن يقول في الآخر: الحمد لله. كان سيدنا الرسول، عليه الصلاة والسلام، يشرب الماء والأشربة الأخرى على ثلاث جرعات، ويقول في ذلك:

"لَا تَشْرَبُوا وَاحِدًا كَشُرْبِ البَعِيرِ، وَلَكِنْ اشْرَبُوا مَثْنَى وَثُلَاثَ، وَسَمُّوا إِذَا أَنْتُمْ شَرِبْتُمْ، وَاحْمَدُوا إِذَا أَنْتُمْ رَفَعْتُمْ" (الترمذي، الأشربة، ١٣/ ١٨٨٥)

كما منع سيدنا الرسول ﷺ النفخ على المشروب قبل شربه، مهما كان السبب.

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ، «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَهَى عَنِ النَّفْخِ فِي الشُّرْبِ» فَقَالَ رَجُلٌ: القَذَاةُ أَرَاهَا فِي الإِنَاءِ؟

قَالَ: **"أَهْرِقْهَا"** ، قَالَ: فَإِنِّي لَا أَرْوَى مِنْ نَفَسٍ وَاحِدٍ؟ قَالَ: **"فَأَبِنِ القَدَحَ إِذَنْ عَنْ فِيكَ"** (الترمذي، الأشربة، ١٥/ ١٨٨٧)

كذلك فتناول الطعام على انفراد يُذهِبُ ببركته ويؤدي بالتالي إلى الإسراف. قال رسول الله ﷺ:

"الْجَمَاعَةَ رَحْمَةٌ، وَالْفُرْقَةَ عَذَابٌ" (المناوي، جـ٣، ص ٤٧٠)

وأوصى بتناول الطعام جماعةً.

نقل وحشي بن حرب ﷺ، عن بعض الصحابة شكواهم قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّا نَأْكُلُ وَلَا نَشْبَعُ، قَالَ:

"فَلَعَلَّكُمْ تَفْتَرِقُونَ؟"

قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ:

"فَاجْتَمِعُوا عَلَى طَعَامِكُمْ، وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ يُبَارَكْ لَكُمْ فِيهِ" (أبو داوود، الأطعمة ، ١٤/ ٣٧٦٤)

كذلك قال رسول الله ﷺ:

"إِذَا سَقَطَتْ لُقْمَةُ أَحَدِكُمْ فَلْيُمِطْ عَنْهَا الْأَذَى وَلْيَأْكُلْهَا، وَلَا يَدَعْهَا لِلشَّيْطَانِ" وَأَمَرَنَا أَنْ نَسْلُتَ الْقَصْعَةَ فقال:

"فَإِنَّكُمْ لَا تَدْرُونَ فِي أَيِّ طَعَامِكُمُ الْبَرَكَةُ" (مسلم، الأشربة، ١٣٦/ ٢٠٣٤)

كم من ضروب الإسراف تمارس في الطعام والشراب وفي حياتنا اليومية، وخاصةً في الأعراس والولائم، مما يهز الضمائر. إلى درجة أن مجرد حساب خسائر هذا الإسراف يتجاوز طاقة البشر. إذا اكتفينا بحساب الإسراف في استهلاك الخبز وحده، واعتبرناه معياراً للإسراف، ثم قسنا عليه وجوه الإسراف الأخرى



التي نعجز عن تعداد أصنافها، فالأرقام التي سنحصل عليها ستشكل يوم حشر تملؤه صرخات المعذبين.

إن ترتيب ولائم فاخرة، القصد منها استعراض الغرور والكبرياء والقوة، والتشجيع على النهم عن طريق ولائم العشاء المفتوح، وارتداء الملابس ذات الماركات العالمية بهدف التظاهر، ستؤدي جميعاً إلى ندم كبير في يوم القيامة. لأن حساب كل ضروب المغالاة المذكورة سيواجهنا في ميزان الحساب الإلهي.

إن الأعراس والولائم هي مناسبات مهمة لتقوية مشاعر الأخوّة. لكن تلك المراسم التي تقام بهدف الإستعراض ووفقاً لمعايير النفس، لا تقوّي مشاعر الأخوّة، بل على العكس توقظ مشاعر سيئة كالغرور والتكبر والغيرة والحسد، فتنتهي إلى خسران عظيم. كما أن ذلك النوع من التجمعات محروم أيضاً من رحمة الله وبركته.

الخلاصة، ما أكبر الخسارة التي تنتهي إليها حياة أنانية مملوءة بالإسراف، حتى أنه جاء في القرآن الكريم:

﴿**إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ...**﴾ (الإسراء، ٢٧)

وقال رسول الله ﷺ:

"لَا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ عُمُرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ، وَعَنْ عِلْمِهِ فِيمَ فَعَلَ، وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ، وَعَنْ جِسْمِهِ فِيمَ أَبْلَاهُ" (الترمذي، القيامة، ١/ ٢٤١٧)

لقد ذكّرنا الرسول في هذا الحديث الشريف بأننا سنحاسب، يوم القيامة، على كل النعم والأمانات، فأراد لنا بذلك أن نستيقظ من غفلتنا.

علينا، في هذا المعنى، ألا ننسى أبداً أن تجاوز الحد في الطعام والشراب هو إسراف، واستخدامنا لنعمة الصحة بفظاظة وخسارتنا لها، إسراف. وهدر العمر سدى هو إسراف كبير.

وعدم حفاظنا على الأمانات المادية والمعنوية التي في أيدينا، والخطأ في توجيه تفكيرنا ومشاعرنا إلى غير مقاصدهما الحقيقية، هو إسراف أيضاً.

وفي التربية والتعليم بخاصة، أي في بناء شخصية الإنسان، إذا لم تتم هذه التربية على هدى أن الإنسان هو أشرف المخلوقات، فهذا أحد أكبر وجوه الإسراف.

بالفعل، إن تربية الأبوين لأولادهم في مناخ القرآن والسنة النبوية الشريفة، واجب ضروري للحيلولة دون ضياع حياتهم المعنوية. الأمر الذي يشير أيضاً إلى مستوى محبتنا وإخلاصنا للقرآن الكريم ولرسول الله ﷺ. قال عليه الصلاة والسلام:

"تَرَكْتُ فِيكُمْ أَمْرَيْنِ لَنْ تَضِلُّوا مَا تَمَسَّكْتُمْ بِهِمَا: كِتَابَ اللهِ وَسُنَّةَ نَبِيِّهِ.." (الموطأ، القدر ،٣، ٦٧٨/ ٣٣٣٨)



علينا، من وجهة النظر هذه، أن نزيد من ألفتنا مع القرآن الكريم. وعلينا خاصةً أن نبذل جهوداً كبيرة في التربية المعنوية والأخلاقية لأطفالنا، تلك التربية التي طالما تم إهمالها على العموم في حياتهم التعليمية. فالميراث الثمن الذي يمكننا أن نتركه لأولادنا، إنما هو ثقافة القرآن والسنة. علينا أن نبذل الجهد ليكسب أولادنا الاخلاق النبوية التي تعني عشق القرآن والحياة في ظل مبادئه. علينا ألا نضحي بمستقبلهم الأبدي على مذبح هواجس المستقبل الدنيوي الفاني.

من هذا المنظور، إذا كنا نحب أولادنا ونريد أن نحميهم من كل أنواع المصائب، ونرغب ان نكون معهم في الحياة الآخرة، يتوجب علينا أن نبذل الجهد لينشؤوا نشأة إيمان. يبين لنا الله تعالى في آيته الكريمة كيف أن تلك الجهود تشكل وسيلة للسعادة الأبدية:

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ...﴾ (الطور، ٢١)

المؤمنون الذين نالوا هذا اللطف الإلهي سيكونون في الآخرة مع ذريتهم المؤمنة. إنه لطف إلهي استثنائي من الله تعالى ليحيوا في الجنة مع أولادهم بطمأنينة.

بهذه الطريقة تكتمل أيضاً سعادة الأمهات والآباء وبهجتهم. إن الطريق لنيل هذا الكرم الإلهي تمر من خلال تربيتنا لأولادنا في



مناخات القرآن والسنة كأجيال مؤمنة. لكي نتجنب أحد أهم وجوه الإسراف، ألا وهو الإسراف في الإنسان، علينا أن نفي بواجباتنا تجاه أولادنا، وهي مسؤوليةٌ أخروية في أعناقنا جميعاً.

إذا تم تحليل جميع فعاليات الحياة على ضوء المعايير التي أَكّدْنا عليها بخصوص كل أنواع الإسراف التي أتينا على ذكرها هنا، فسوف نلاحظ مدى شمول واتساع مفهوم الإسراف. فسواء تعلق الأمر بالبغض أو المحبة بما يتجاوز الحد، أو المبالغات في المراسم والولائم، أو غيرها، فالواقع ان تجليات الإسراف المتنوعة موجودة في جميع الميادين.

لقد حاولنا فقط تبيان المعايير الضرورية لمعرفة الاتجاه الصحيح في عدد محدود من المواضيع الرئيسية. ولكن علينا ألا نحصر المعايير والمنطق اللذين سعينا إلى توضيحهما، في هذه المواضيع فقط فنمد شمولها إلى جميع فعاليات الحياة، وعلينا ألا ننسى وجوب مجانبتنا لكل أنواع الإسراف والبخل.

لِيُبْعِدْنا الله تعالى عن كل أنواع الإفراط والتفريط، ويوفقنا لنحيا حياة عبودية ترضيه. وليجعل من نصيبنا أن نستخدم كل النعم باعتدال، وأن نفي بشكرنا وامتناننا له تعالى كما ينبغي. آمـين...



حوار حول حساسيات

حياة العمل عند المسلم

«لا يجوز إضاعة الحدود بين الحلال والحرام بذرائع جوفاء»



هذا الإرتفاع الظاهري في الأرباح يبدو للمرء كموسيقى حلوة، والأرباح بدون وجه حق مثل بالونة انتفخت فجأةً في اليد. بعض هذه البالونات سينفجر في الحياة الدنيا، وبعضها الآخر يوم الحشر. تبدو حلوة، لكنها خسارة مطلقة بجانبها المعنوي، والأفلاس الأبدي.

لكي نفهم السوية المعنوية للربح، يكفي النظر إلى مواضع صرفها. يقول مثل سائر: المال كالأفعى، يخرج من الجحر الذي دخل فيه.

حوار حول حساسيات

حياة العمل عند المسلم

«لا يجوز إضاعة الحدود بين الحلال والحرام بذرائع جوفاء»

سنتاول هذا الموضوع من خلال الحوار التي أجرته مجلة ألتن أولوق في مارس ٢٠٠٦م مع مؤلف هذا الكتاب السيد عثمان نوري طوبَّاش المحترم:

- سيدي، هناك مناقشات تدور حول مواضيع كالإسلام والرأسمالية ورسملة الإسلام. ما الذي يمكنكم قوله حول هذه الأفكار، بالخطوط العريضة؟

- الميدان الذي وجدت فيه الرأسمالية فرصتها للنمو وأينعت، هي حيثما تعرض التوكل والقناعة للضعف، وقويت شوكة الطمع والجشع والربح بدون وجه حق. من زاوية النظر هذه، على أصحاب القلوب المؤمنة أن يُخضعوا أنفسهم، فيما خص الطمع والجشع، لتربية صوفية، وهذا ما يتحقق بالقناعة والتوكل. أما القناعة فهي الغنى الحقيقي الذي يحرر جميع الناس من عبودية جشع المال والملك. وبالتالي، إذا لم يمر المسلم عبر تزكية النفس وتصفية القلب، فسوف يهلك بين مسننات الرأسمالية التي لا تعترف بأي حدود غير المال.



ذلك لأنه لا محل لفضائل الضمير وروحانيات القلب في النظامين الرأسمالي والإشتراكي، سواء بسواء. ففي أحد هذين النظامين، الملكية للمجتمع، وفي الآخر للأفراد. لكن الذهنية المهيمنة في الحالتين هي النفعية والاستغلالية. ويتم النظر إلى الأفراد على أنهم مسننات في آلة.

أما في الإسلام، فالملك لله. ولا محل فيه للنفعية والإستغلال مطلقاً. يبدأ اقتصاد الإسلام بحل مشكلات الإنسان. التقاسم وإعانة الآخرين، وبخاصة من ذوي الحاجة، هو فريضة في الإسلام، إلى حد أن الله تعالى أعلنها حقاً للفقراء:

﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ (الزاريات، ١٩)

السائل، أي المحتاج، والمحروم الذي يتعفف على السؤال، لهما حقٌ معين في أموال الأثرياء.

هذا الدستور هو، في وقت واحد، تربيةٌ في استخدام النقود، ووسيلةٌ للتأليف بين القلوب. أي أن المال، في الإسلام، ليس مصدراً للجشع، بل هو أمانةٌ ينبغي أن تصرف في محلها. فإذا تم استخدام هذه الأمانة في محلها، وتم صرفها حيثما يجب، مع الإقرار بحق المحتاج والمحروم فيها، فتكون بذلك وسيلة كبيرة من وسائل العبادة. غير أنه من الأهمية بمكان معرفة من أين جاء هذا المال وكيف تم كسبه. فكل مال يتم كسبه، إنما يتم بوسائل



معينة، ويتشكل قلب الإنسان بشكل تلك الوسائل. وتتم الإنفاقات أيضاً وفقاً لهذا التشكل. بهذا المعنى يتوجب علينا الانتباه بشدة إلى شكل كسبنا للمال.

- ما هي طرق الكسب التي يتجه نحوها الناس؟
- بصورة عامة جداً، هناك نوعان من الكسب.

الأول وهو الكسب بما يتفق مع المعايير الدينية والضميرية. تتم هنا مراعاة المعايير الإلهية. وهناك أخلاقيات التجارة. ويشكل الحلال مبدأً لا يجوز الإخلال به. لا وجود للمنافع الشخصية والاحتيال. وإذا كان هذا النوع من الكسب لا يبدي ارتفاعاً ظاهراً، فإن ارتفاعه المعنوي يتواصل باطراد. لأن هذه الثروة فيها الكثير من الإنفاق والخير والحسنات. تبلغ بالفرد راحة الضمير وطمأنينة الرحمة. يتمتع هؤلاء العباد بالرحمة والرأفة نحو كل الكائنات. هذه الرحمة هي الوسيلة الفضلى لنستحق الرحمة نحن أنفسنا. قال سيدنا الرسول ﷺ:

"ارْحَمُوا مَنْ فِي الأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ" (الترمذي، البر، ١٦)

إن مصير المال يخترق مشاعر الشخص، فكما يقول المثل، المال كالأفعى، يخرج من الجحر الذي دخله. يكفي لمعرفة مصدر أموال الشخص، النظر إلى وجوه إنفاقه.

- وماذا عن النوع الثاني؟

- أما الثاني فهو المال الذي يتم الحصول عليه بالتوسل بقوة أو سلطة معينة. وهذا عموماً كسب بلا وجه حق. إنه ثروة سرطانية تراكمت من خلال وسائل كالمحسوبية والرشوة. هو مثل بالونة انتفخت فجأة في يد المرء. ينفجر بعض هذه البالونات في الحياة الدنيا، وسينفجر بعضها الآخر يوم القيامة. يبدو التنامي الظاهري لهذه الأموال عذباً كالموسيقى، غير أن جانبه المعنوي هو خسارة مطلقة وإفلاس أبدي. بالتالي لا يتم صرف هذا النوع من الأموال على وجوه الخير والحسنات. ربما قسم صغير منها..

للأسف هذا النوع الثاني من كسب المال، يبدو للناس في أيامنا أكثر جاذبية. ويقوم النظام الرأسمالي بتشجيع الناس عليه بحماسة. إنه من المؤسف أن كثيراً من ذوي القلوب المؤمنة يجرفها هذا التيار. كثير من الناس ينساقون أولاً وراء الاهتمام بالكسب والجشع. في حين أنه من الواجب قبل كل شيء التفكير بحساب الآخرة فيما يتعلق بالكسب. حين تقسو القلوب بفعل الجشع، وتهمل الآخرة، يتحول الإنسان إلى مخلوق غاصب وظالم لا يعترف بأي حق أو شرعة. أي أن النظام الرأسمالي يدفع بالإنسان من الطمع إلى الوحشية. إن نظرة خاطفة لما يحدث في العالم، كافية لرؤية هذه الحقيقة. أية إنسانية يمكنها أن تتحمل ضروب



الاستغلال والمظالم التي تحدث في سبيل المال؟ يلقون بقنبلة، فيهلك النبات والحيوان والأطفال والمرضى والمسنون بلا تمييز. ما من رحمة أو رأفة! كيف للنقود المضرجة بدم الأبرياء والمظاليم أن تعمر شيئاً لصالح الإنسان؟

النظام الرأسمالي الظالم، يحوِّلُ الناس كل يوم إلى مجرد عبيد للمال الذي حوّله إلى صنم للعبادة.

- وما إطار الحساسيات الذي يقترحه الإسلام؟

- كما في كل المسائل الأخرى، يجعل الإسلام العبدَ مسؤولاً أمام الله، في شؤون الثروة. ذلك أن الله تعالى أعطى كل شيء للإنسان بصفة الأمانة. كما تقول الآية الكريمة:

﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ (التكاثر، ٨)

على الإنسان إذن أن يحصِّل ثروته في إطار معايير الحساب والمسؤولية. لا يمكن لأي خطوة خاطئة أن تُسَوَّغ بنوايا طيبة. إن القول مثلاً: "أنا أكسب الآن لكي أقوم بفعل الخير في المستقبل" تبريراً لخلط الحدود بين الحلال والحرام، هو من أسوأ أنواع الشر وخداع النفس. لأن الإسلام لا يقبل أبداً مفهوماً قائماً على مبدأ: "اكسب كما تشاء وأنفق كما تشاء". كذلك يرفض الإسلام رفضاً قاطعاً مبدأ "دعه يعمل، دعه يمر" الذي يشكل أساس النظام الرأسمالي.

في يومنا الذي بات فيه الناس خاضعين للمادة، على كل مسلم أن يمتلك بنية أخلاقية أرفع مما في أي وقت مضى، وأن يسلك ويتحرك بمخافة الله، ويراعي حقوق العباد إلى أقصى الدرجات، وأن يتحلى بروح المسؤولية.

مثلاً فيما خص الصعوبات والأزمات التجارية في أيامنا، على المسلمين ألا يتورطوا في تأمين مصادر تمويل غير مشروعة، بل ينبغي التغلب على تلك الصعوبات بواسطة مؤسسات تمويل. وفي جميع الأحوال ينبغي عدم التلوث بآفة الربا. هذه من الأمور المهمة جداً من وجهة نظر مسؤولياتنا في الدنيا والآخرة معاً.

هناك نقطة أخرى علينا مراعاتها من أجل أن نحافظ على طهارة أنفسنا وأموالنا، وهي تجنب الرشاوى التي يتم دفعها في التعهدات تحت ستار البقشيش(الحلوان). فاختلاف الأسماء لا يغير من كنه الأشياء أو ماهيتها. الأسماء المغايرة الملطفة التي تطلق على المحرمات، لا تعدو كونها وسائل خداع تعمينا عن محاسبة أنفسنا، وتزييناً لجهنم. نقل الصحابي عبد الله بن عمر ﵁، عن رسول الله ﷺ، أنه لعن الراشي والمرتشي (أبو داوود، اقضية ٤، ٣٥٨٠)

من المؤسف أن الثروات تتعرض اليوم لرشقات سموم من هذا النوع من جميع الجهات. ما لم يكن المسلم مهتماً وحساساً ومتيقظاً وواعياً كمن يمشي في حقل ألغام، فلن يستطيع حماية ثروته من السموم المماثلة.



- ما شكل الاهتمام والتيقظ والحساسية التي يمكن أن توصوا بها؟

- على حياتنا التجارية أن تتشكل بالانتباه إلى الحدود بين الحلال والحرام، لا بأنانية النظام الرأسمالي وجشعه.

علينا أيضاً أن نحمي أنفسنا من التجارة الموجهة وفقاً لاقتصاد الاستهلاك والإسراف. لأن الإسراف وارتفاع مستوى الرفاه يؤدي إلى هلاك المجتمع. من هذا المنظور تشكل بطاقات الائتمان التي تشجع على الإنفاق غير المتوازن، فخاً اقتصادياً ووسيلة استغلال. الحاجات لا تبرر الوقوع في هذا الفخ.

لأن معايير الإسلام فيما يتعلق بالحاجات واضحة: القرضة الحسنة التي هي دين يهدف إلى الإفراج عن كربة المفلس وتقديم مخرج لمشكلته. في حين أن بطاقات الإئتمان وسيلة لمفاقمة الإفلاس، وهي نظام لم يصمم لمنفعة المستهلكين، بل لمراكمة أرباح المشجعين على الاستهلاك.

إنه نظام رهيب يوقع في فخه الفقراء وهم يضحكون، ليكسب بعض الجشعين. بفضل الدعاية المبهرة، يقع الكثير من الفقراء والمساكين ضحايا أعمال غير مشروعة. مثلاً يتم إغواء فتاة فقيرة بواسطة الحيل الإعلانية المبهرة كالكلام المعسول: "تصبحين أجمل إذا استخدمتِ هذا المنتج، أو تصبحين جذابة ومقبولة اجتماعياً إذا فعلت كذا أو سلكت هكذا" فينقلب عالمها رأساً على عقب.

وبالنتيجة تغرق المسكينة في نمط حياة لا تستطيع مواجهة متطلباتها بإمكانياتها المالية المحدودة. وما دامت لم تحقق ما تصبو إليه، ستزداد جشعاً، الأمر الذي سينتهي بها إلى الدمار في دروب السوء..

من هذا المنظور، علينا قبل كل شيء التمسك بكنز الرضا والقناعة الذي يشكل الثرة الأعظم في قلوبنا. لم يأمرنا الله تعالى بالإثراء المادي، بل أمرنا بالكسب الحلال والإنفاق بالحلال والحياة بالحلال، وعدم نسيان المحتاجين. علينا إذن أن نبني حياتنا وتجارتنا على أساس معيار الحلال.

من الممكن، بهذا الخصوص، أن تحدث انحرافات ذهنية حتى عند أولئك الذين يخضعون لتعاليم الإسلام وأوامره.

من المؤسف أن النظام الرأسمالي اليوم قد أفسد عالمنا الروحي إلى درجة أن الأعمال المنافية للقيم الأخلاقية والمبادئ الإسلامية باتت شائعة حتى في الشركات ذات الطابع الإسلامي. ما أكثر من يحجون ويؤدون الصلاة، لكنهم يرتكبون أخطاءً لا يمكن القبول بها بذريعة أنهم يريدون أن يكسبوا أكثر ليقوموا بأعمال الخير أكثر.

أي أن الحلال والحرام يختلطان عندهم. مثلاً هناك إعلانات لا أخلاقية أو استخدام سكرتيرات لجذب الزبائن، هذه من أبرز الأخطاء المشار إليها. فبسبب تقدم المكاسب الدنيوية على مكاسب



الآخرة، تتذرع النفس بذرائع من نوع "هذه الأعمال لا تمشي إلا بهذه الطريقة" من غير أدنى اهتمام بجانب الحرام من الموضوع. من المؤسف أن هذه ليست مكاسب، بل هي ألغام إفلاس سوف تنفجر في الآخرة.

من هذا المنظور، ينبغي مقاربة كل موضوع في الشؤون التجارية من جديد وبصورة منفصلة. علينا أن ننتبه إلى كل شيء وكل تفصيل بما في ذلك الأشخاص الذين يعملون عندنا. وينبغي ألا نخالف حساسيات الإسلام لأي سبب كان. علينا ألا نشغِّل المرأة في عمل يخص الرجال، أو الرجل في عمل يخص النساء، مرغمين كلاهما على ما يعاكس فطرتيهما. على أخلاق الإسلام ومبادئه أن تكون دستورنا، فهي التي تحدد معاييرنا على أجمل وجه في مثل هذه الأمور. علينا أن نحرص على حقوق العباد على ضوء تعاليم الله.

قال سيدنا الرسول ﷺ، قبل وفاته:

"الصَّلَاةَ الصَّلَاةَ، اتَّقُوا اللَّهَ فِيمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ" (أبو داوود، الأدب، ١٢٣-١٢٤\٥١٥٦؛ ابن ماجة، الوصايا، ١)

سيدنا الرسول ﷺ الذي كان حريصاً، طوال حياته، على حقوق جميع المخلوقات، بما يفوق الطاقة البشرية، لم ينس حقوق العباد حتى وهو على فراش الموت، وقصد المسجد، برغم وهن جسده، ليخاطب المسلمين قائلاً:

"إِنَّهُ قَدْ دَنَا مِنِّي حُقُوقٌ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِكُمْ، وَإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ، فَأَيُّمَا رَجُلٍ كُنْتُ أَصَبْتُ مِنْ عِرْضِهِ شَيْئًا فَهَذَا عِرْضِي فَلْيَقْتَصَّ وَأَيُّمَا رَجُلٍ كُنْتُ أَصَبْتُ مِنْ بَشَرِهِ شَيْئًا فَهَذَا بَشَرِي فَلْيَقْتَصَّ وَأَيُّمَا رَجُلٍ كُنْتُ أَصَبْتُ مِنْ مَالِهِ شَيْئًا فَهَذَا مَالِي فَلْيَأْخُذْ، وَاعْلَمُوا أَنَّ أَوْلَاكُمْ بِي رَجُلٌ كَانَ لَهُ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ فَأَخَذَهُ أَوْ حَلَّلَنِي فَلَقِيتُ رَبِّي وَأَنَا مُحَلَّلٌ لِي، وَلَا يَقُولَنَّ رَجُلٌ إِنِّي أَخَافُ الْعَدَاوَةَ وَالشَّحْنَاءَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ، فَإِنَّهُمَا لَيْسَتَا مِنْ طَبِيعَتِي، وَلَا مِنْ خُلُقِي...ُ" (ابن سعد، الطبقات، ٢، ٢٥٥)

هذه الجمل التي أغرقت الصحابة الكرام في البكاء، هي في حقيقتها تعليمات لنا تشير إلى أهمية حقوق العباد. بحديثه الشريف هذا، ضرب سيدنا الرسول مثلاً بنفسه لأمة محمد التي ستدوم إلى يوم القيامة. ما يقع علينا، بعد ذلك، هو أن نزين أنفسنا بميزان هذه المعايير.

لأن حقوق العباد هي ظلم وجهالة يلاحقاننا إلى يوم القيامة ويعرضاننا لعذاب أبدي. والنظام الرأسمالي اليوم لا يعترف بحقوق العباد. المسحوقون يُسحقون أكثر وأكثر. يعتبر هذا النظام كل شيء مباحاً. أما في الإسلام، فإن ما يؤدي إلى الحرام فهو حرام أيضاً.

الخلاصة، نحن بحاجة اليوم إلى محاسبة ضميرنا محاسبة شديدة. انتفاضةً من شأنها أن توقظنا من غفلتنا.. فرأس المال يطبع الأفراد بطابعه، في حين أن على الأفراد أن يطبعوا رأس المال بطابعهم..

- كيف يمكن تحقيق ذلك يا سيدي؟ فالمال هو جوهر النظام الرأسمالي الذي يدور كل شيء في فلكه.

- من أجل تحقيق ذلك، علينا أن نحكم المال، لا أن يحكمنا المال. ويتحقق هذا بالخضوع لمشيئة حاكم الحكام. يتحقق ذلك بقناعة لا تتحول إلى كسل.

ألقوا نظرة واحدة على المجتمع. سترون كثيرين ممن يملكون إمكانيات مادية كبيرة، لكنهم ما زالوا بعيدين عن الرضا والطمأنينة. والبعض منهم يصيبه الجنون. لقد ارتفع إلى حد كبير مستوى الثراء والرفاه، بالقياس إلى السابق، لكن الأزمات النفسية وحالات الجنون ازدادت كثيراً. الحياة العائلية أصابها الدمار. ارتفع معدل حالات الطلاق. الأطفال تشتتوا. هناك جيل حُرِمَ دفء الأسرة، فأخذ يبحث عن السعادة في الشوارع وتُرِكَ لعدالة الشارع. أي أن النظام الرأسمالي الأناني الذي لا يعرف الحلال من الحرام، لم يجلب الطمأنينة إلى مجتمعنا.

كان الأستاذ نور الدين طوبجو الذي درَّسَنا في الثانوية الشرعية، يطرح علينا السؤال التالي: "هل إنسان اليوم أكثر سعادة أم إنسان الأمس؟".

وكان يفصِّل لنا بعد ذلك في أسباب سعادة إنسان الأمس وطمأنينته، مقابل مدى اضطراب إنسان اليوم وقسوته.

- يبدو الثراء وكأنه امتحان عسير يا سيدي.

- وفقاً لشروط كل منهما، فالثراء والفقر كلاهما امتحان عسير. لم يكن أحدهما يوماً أصعب من الآخر أو أسهل. وبالتالي لا ينبغي الاستنتاج من كلامي السابق أنه على المرء أن يفقر لكي يحصل على الطمأنينة. أي أن القول بوجوب الخضوع لمبادئ الإسلام في حياتنا، والتوكيد على مسؤولياتنا في شؤون الأموال والممتلكات، ينبغي ألا يقودنا إلى استنتاجات خاطئة من نوع الإعلاء من شأن الفقر والبؤس. علينا أن نعرف أن الإسلام لا يمنع الإثراء. على العكس، ففي القرآن أكثر من مئتي أمر إلهي بوجوب الإنفاق، وهذا بمثابة التوصية، بمعنى ما، بضرورة الإثراء إلى الحد الذي يتيح الإنفاق. لكن ما نريد التوقف عنده هو عدم معاندة القسمة الإلهية أو الحدود التي رسمها لنا القدر، أي عدم اعتبار كل وسائل الإثراء مشروعة. أي ينبغي الكسب بالحلال ضمن حدود ما قسمه لنا الله، لبلوغ فضيلة القدرة على الإنفاق. فنحن بحاجة اليوم، كما كنا في



الأمس، إلى أناس مقتدرين، في قلوبهم رأفة، ويكسبون بالحلال، من شأنهم أن يشكلوا ملاذاً للفقراء والبؤساء وأصحاب الحاجة.

تكمن المسألة في عدم قتل طمأنينة النفس في سبيل الرفاه المادي.. عدم استهداف طمأنينة القلب التي يمكن الحصول عليها في فضائل الإسلام.. القدرة على نبذ الأنانية.. عدم نسيان أن الثراء الحقيقي اللامحدود موجود في الحياة الروحية..

- هل يمكن أن نذكر الإمام أبو حنيفة كمثال بهذا الصدد، وهو عالم إسلامي كبير وكان يعمل في التجارة؟

- طبعاً. إن الإمام أبا حنيفة رضي الله عنه، كان فعلاً قدوةً في العلم وكما في العمل الصالح. إن أخلاقياته في حياته التجارية وسلوكه النموذجي، بصورة خاصة، مملوءة بالصفات الملحمية لشخصية المسلم. يمكننا القول إننا بحاجة اليوم، في مجتمعنا الذي وهنت فيه مشاعر الأخوة، واختفى فيه الاستقرار الاجتماعي، وزادت فيه الأحقاد والخصومات، إلى العمل الجاد من أجل أخلاق تجارية تقتدي بالإمام أبي حنيفة رضي الله عنه. لدينا المثال التالي من بين أمثلة كثيرة عن أخلاقيات أبي حنيفة التجارية:

كان الإمام أبا حنيفة رضي الله عنه، صاحب ثروة كبيرة يعيش من التجارة. لكنه، بسبب انشغاله بالعلم، كان يدير تجارته بواسطة وكيل له، في حين يقوم هو بالمراقبة للتأكد من أن تجارته لا تخرج عن دائرة

الحلال. كان حساساً جداً بهذا الخصوص إلى درجة أنه حدث ذات مرة وأرسل شريكه حفص ابن عبد الرحمن لبيع القماش، فقال له:

"يا حفص، في بضاعتنا عيوب كذا وكذا، عليك أن تخبر الزبون بهذه العيوب، وتبيعه بثمن رخيص".

وباع حفص البضاعة بالسعر الذي حدده الإمام، لكنه سها عن إخبار المشتري بعيوبها. وحين علم أبو حنيفة بذلك، سأل حفص ابن عبد الرحمن: "هل لك معرفة بالزبون الذي اشترى القماش؟"

وإذ أخبره حفص بأنه لا يعرف المشتري، تصدّقَ الإمام بكامل الربح المتحصل من بيع القماش، خشية تلوُّث ربحه بالحرام. هذه التقوى كانت خيراً وبرَكَة على تجارته مادياً ومعنوياً.

لكني نفهم ما إذا كان شخص ما طاهر القلب ومن أهل الإستقامة والصدق، علينا أن ننظر إلى مدى إخلاصه القلبي في العبادات التي يؤديها، أكثر من تلك العبادات بحد ذاتها. أي أننا ينبغي أن ننتبه خاصةً إلى مدى موافقة سلوكه لأخلاقيات الإسلام، وإلى خضوع كسبه لمبدأ الحلال. بهذا الصدد، كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذا امتدح أحدهم شخصاً، يطرح عليه ثلاثة أسئلة:

"هل دخلت معه في علاقات جيرة أو رفقة سفر أو تجارة؟"

فإذا أجابه الرجل بالنفي على الأسئلة الثلاث، قال له رضي الله عنه:

"إذن لا تمتدحه، لأنك لا تعرفه بما يكفي"



لذلك فقد قال سفيان الثوري، قدَّسَ الله سرَّه:

"إن مقدار إيمان الشخص، هو بمقدار حلال خبزه"

وسأله أحدهم، في يوم من الأيام: "يا سيدي، هل لك أن تحكي لنا فضيلة الصلاة في مقدم المصلين؟"

فلفت نظر السائل إلى اللقمة الحلال أيضاً، قال:

"يا أخي، عليك أن تهتم بطريقة كسبك رزقك. فإذا كان رزقك حلالاً، فصلِّ أينما شئت، لا عسر في ذلك"

كان والدي، موسى طوبَّاش أفندي، قدس الله سره، يحكي لنا الحادثة التالية، بصدد الإشارة إلى أهمية الانتباه إلى الكسب بالحلال في التجارة، والحرص على عدم خلطه بالحرام:

"كان عندنا جار غير مسلم، اعتنق الإسلام لاحقاً. سألته يوماً عن سبب اهتدائه، فقال لي:

لقد اهتديتُ إلى الإسلام بفضل الأخلاق الجميلة في التجارة للمُولاّ (الشيخ) ربيع، صاحب الحقل المجاور لحقلي. كان المُولاّ ربيع يكسب رزقه من بيع الحليب. جاء إلينا ذات مساء وقال:"تفضلوا، هذا الحليب لكم"، استغربتُ الموقف وقلتُ له: "لكني لم أطلب حليباً منك؟" أجابني ذلك الشخص الظريف مرهف الإحساس قائلاً: "انتبهت إلى أن أحد رؤوس الماشية مما أملك دخل حديقتكم ورعى من عشبها، قبل أن أنتبه إليه. لذلك

فهذا الحليب من حقكم. وسأواظب على إعطائكم من حليب ذلك الحيوان إلى أن ينتهي تحول العشب الذي أكله إلى حليب"

فقلتُ له: "وما قيمة ذلك العشب يا جاري؟ أليس ما أكله عشباً؟ حلال عليه"

لكن المُولاّ ربيع لم يوافق. وظل يأتيني بحليب ذلك الحيوان إلى أن انتهى تماماً من تحويل عشب حديقتي إلى الحليب.

هذا السلوك من ذلك الرجل المبارك، أثّر بي كثيراً، فانتهى بي الأمر إلى انحسار حجاب الغفلة عن عينيّ، وبزغت شمس الهدى في قلبي وقلتُ لنفسي:

"لا بد أن دين رجل بهذه الأخلاق الرفيعة، هو الدين الأعظم. لا يمكن التشكك بصحةِ دينٍ يربي أناساً بهذا اللطف والحقانية والطهر والكمال" وأتيتُ بكلمةِ الشهادة فأسلمتُ"

- يبدو أنه لا يمكن بلوغ سلوك بهذا السمو في عالم يتمحور حول المال. ولكن هناك بالمقابل نماذج حية جميلة جداً على السلوك المماثل. نريد أخيراً من حضرتكم جواباً على سؤال "ما العمل؟"

- إن تلك القصص المملوءة بالعبر، تبين لنا بوضوح شديد، كم علينا أن نبدي من الحرص والتحوُّط في التمييز بين الحلال والحرام وخاصة ما تعلق بالرزق الحلال. فالرزق الحلال هو من أسس التقوى الرئيسية. جاء في الحديث الشريف:



"التَّاجِرُ الصَّدُوقُ الأَمِينُ مَعَ النَّبِيِّينَ، وَالصِّدِّيقِينَ، وَالشُّهَدَاءِ"
(الترمذي، البيوع، ٤/ ١٢٠٩)

فالتاجر ذو القلب المرهف الذي تشرف بأن يذكر مع النبيين والصديقين والشهداء، يشيع من حوله الطمأنينة والبركة، ويكسب، في الوقت نفسه، السعادتين في الدنيا والآخرة.

في حين أن من غلبهم الجشع الدنيوي، لن ينجوا بأنفسهم من الفقر والبؤس الأبديين لعالم الخلود، حتى لو بدا أنهم سلاطين متوجين في الحياة الدنيا.

ينبذ سيدنا الرسول ﷺ، التجار الذين يعملون بالطمع والغش، ولا يعدُّهم من أمته. عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ مَرَّ عَلَى صُبْرَةِ طَعَامٍ فَأَدْخَلَ يَدَهُ فِيهَا، فَنَالَتْ أَصَابِعُهُ بَلَلًا فَقَالَ:

"مَا هَذَا يَا صَاحِبَ الطَّعَامِ؟"

قَالَ أَصَابَتْهُ السَّمَاءُ يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ:

"أَفَلَا جَعَلْتَهُ فَوْقَ الطَّعَامِ كَيْ يَرَاهُ النَّاسُ، مَنْ غَشَّ فَلَيْسَ مِنِّي"
(مسلم، الإيمان، ١٦٤)

قال الرسول الأكرم ﷺ أيضاً:

"إِنَّ لِكُلِّ أُمَّةٍ فِتْنَةً، وَإِنَّ فِتْنَةَ أُمَّتِي الْمَالُ" (أحمد، جـ٣، ١٦٠)

"يأتي على الناس زمان، لا يبالي المرء ما أخذ منه، أمن الحلال أم من الحرام" (البخاري، البيوع، ٧، ٢٣/ ٢٠٥٩)



"إنما أخشى عليكم من بعدي ما يفتح عليكم من بركات الأرض" (البخاري، الجهاد، ٣٧/ ٢٨٤٢؛ مسلم، الزكاة، ١٢١-١٢٣)

وفي أحد المرات قال سيدنا ﷺ، مخاطباً صحابته الكرام:

"فوالله ما الفقر أخشى عليكم، ولكن أخشى عليكم أن تبسط عليكم الدنيا، كما بسطت على من كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها، وتلهيكم كما ألهتهم" (البخاري، الرقاق، ٧/ ٦٤٢٥، الجزية، ١؛ مسلم، الزهد، ٦)

هذا الحديث الشريف ينطوي على معانٍ تلخص مشكلاتنا الراهنة. مختصر القول، في يومنا الذي ازداد فيه ظهور ضروب الغفلة المشار إليها في الأحاديث الشريفة أعلاه، في يومنا الذي يتشبث فيه الحرام بالقلوب، حتى لو حاولت هذه التحرر منها، يشكل التمسك بمراعاة الحلال، واحداً من أكبر العبادات وأهمها.

على المسلم اليوم أن يسعى إلى حماية نفسه من كل شرور الرأسمالية، وأن يتجنب تحويل المال إلى طمع وجشع، وأن يحوز، مهما كانت الأحوال والشروط، الصفات التي يجب أن يتحلى بها كل مؤمن، كمخافة الله ونشدان رضى الله والرأفة والرحمة نحو المجتمع وأخلاق الإسلام ومراعاة حقوق العباد وعدم خلط الحلال بالحرام بشتى الذرائع الجوفاء..

يجب، في شروط زماننا الراهن، التذكير بأن الرأفة بالضعيف والفقير والمنبوذ والحزين، ينبغي أن تملأ قلب كل ذي رحمة وإنصاف.



لكن منكودي الحظ الذين يستحقون الشفقة حقاً هم ضمائر الظالمين أكثر من المظلومين، وأرواح ذوي الجاه الذين باتوا أسرى نفوسهم وأهوائهم، وقلوب الأثرياء المستغلين المتسخة في النظام الرأسمالي أكثر من ذوي الحاجة. هؤلاء هم المساكين الحقيقيون الذين يستحقون الرحمة والشفقة. هاتان الصفتان الرحمة والشفقة ليستا غير الاسم الآخر لإنقاذهم من درك الشر الذي أوقعوا أنفسهم فيه، ووسيلة هدايتهم إلى سبيل الحق.

قال سيدنا الرسول ﷺ:

"اللهُمَّ إنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ، وَمِنْ قَلْبٍ لَا يَخْشَعُ، وَمِنْ نَفْسٍ لَا تَشْبَعُ، وَمِنْ دَعْوَةٍ لَا يُسْتَجَابُ لَهَا" (مسلم، الذكر ، ٧٣/ ٢٧٢٢)

"بَادِرُوا بِالأَعْمَالِ سَبْعًا هَلْ تُنْظَرُونَ إِلَّا إِلَى فَقْرٍ مُنْسٍ، أَوْ غِنًى مُطْغٍ.." (الترمذي، الزهد، ٢٣٠٦\٣)

كما نرى في الحديث الشريف الأخير، يعدُّ الفقر الذي يدفع إلى نسيان الله، والثراء الذي يغوي، سيان.

فلنحيَ بمشيئة الحق تعالى في الجمال الإلهي، وليجعل الله ﷻ من نصيبنا مجانبة كل ضروب الحرام والمريب. آمـين...

المحتويات







